سيباستيان فيتزيك

النزيل

DER INSASSE

"سيباستيان فيتزيك
عبقري حقيقي
في الغموض والإثارة".
-كريس كارتر

أكثر من
19 مليون
نسخة
مباعة

رواية

ترجمة: بسمة الخولي

التنزيل

DER INSASSE

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

هيئة الأدب والنشر والترجمة

Literature, Publishing & Translation Commission

Translation funded by the Tarjim Initiative

سيباستيان فيتزيك

SEPASTIEN FITZEK

النزيل

DER INSASSE

ترجمة

أ / كاميليا وليد

الفصل الأول

لماذا الجو بارد هكذا؟

بالنظر إلى أن ميريام كانت تقف على أعتاب الجحيم، بدا البرد قارسًا للغاية هنا في هذا القبو الخالي من النوافذ، بجدرانه الطوبية الرطبة التي تشبث بها العفن الأسود كأنه سرطان ينهش شُعَب رئة مدخن.

قال الشرطي وهو يشير إلى رأسها:

— "انتبهي."

اضطرت لخفض رأسها لتتجنب الاصطدام بأنبوب الصرف الصحي وهي تخطو داخل غرفة الغلاية، رغم أن طول ميريام لم يتجاوز خمسة أقدام وخمس بوصات. على العكس من ترامنيتز، الذي بدا مظهره شديد الجاذبية، على نحو لا يتناسب إطلاقًا مع هذه المناسبة المروعة. منكباه العريضان، وجبهته العالية، وجسده النحيل المفتول بالعضلات؛ كلها صفات جعلته يبدو وكأنه فُصّل خصيصًا ليتصدر غلاف "تقويم شرطة برلين"، هذا إن وُجد شيء كهذا أصلاً. لكن هنا في الأسفل، علق الغبار وخيوط العنكبوت بشعره الأشقر الذي يوحي مظهره بأنه «لم يذق طعم النوم مرة أخرى»، والذي احتك بسقف القبو لشدة انخفاضه. شُيّد هذا المنزل الصغير على طرف غابة "غرونفالد" في عشرينيات القرن الماضي؛ لا بد أن الناس حينها كانوا أقصر قامة.

وبالتأكيد لم يكونوا بالشر الذي كان عليه الساكن الأخير لهذا المكان. أم تراهم كانوا كذلك؟

ابتلعت ميريام ريقها وحاولت تذكر الاسم الأول لهذا الضابط الودود الذي أقلها بسيارته إلى هنا.

لا يهم. كانت تحاول فقط تشتيت انتباهها. لكن عقلها أبى أن يُشكّل أي أفكار مطمئنة. ليس هنا، في قبو تفوح منه رائحة الدم والبول والخوف.

والموت.

أزال ترامنيتز شريط الشرطة الأحمر والأبيض الذي وضعه فريق الأدلة الجنائية على شكل حرف «X» فوق إطار الباب المفتوح. كُتبت عليه عبارة «شريط شرطة» بحروف سوداء على مسافات منتظمة.

لكن ميريام قرأتها: «ممنوع العبور! ممنوع النظر للداخل!»

قال المفتش وهو يفرك بتوتر ذقنه التي نبت فيها شعر خفيف لم يُحلق منذ ثلاثة أيام:

— "اسمعي، حقًا لا ينبغي لنا أن نكون هنا."

في ضوء مصباح القبو المغبر، بدا وجهه شاحبًا وكأنه مصاب باليرقان. حاولت ميريام أن تومئ برأسها موافقةً ورافضةً في آن واحد (لا، لا ينبغي لنا. ولكن: نعم، يجب أن أفعل هذا)، مما جعل الجزء العلوي من جسدها يرتعش بحركة غريبة.

قالت:

— "لكنني أريد أن أراه."

نطقت الكلمة وكأنها تشير إلى شيء جامد. لم تستطع أن تجبر نفسها على تسمية الرعب باسمه الحقيقي، باسم ابنتها.

قال الشرطي مرة أخرى، مشيرًا الآن إلى الدرجات التي أمامهم:

– "إنني أتجاوز صلاحياتي هنا. مسرح الجريمة لا يزال مغلقًا، وما سترينه..."

قاطعت ميريام بصوت بالكاد مسموع:

– "لا يمكن أن يكون أسوأ من الصور التي في رأسي. أرجوك، أحتاج أن أرى هذا بعيني."

قال:

– "حسنًا، لكن انتبهي."

صرّت درجات السلم الخشبي الصغير تحت حذائها الرياضي. أزاح ترامنيتز جانبًا غطاءً بلاستيكيًا غير شفاف، يشبه ستارة الحمام. وخلفه رقد ما يشبه غرفة انتظار ربما استخدمها الشخص الذي عاش هنا كغرفة لارتداء الملابس أو تعليق المعاطف، والتي كانت تؤدي عبر باب مقاوم للحريق إلى الجحيم مباشرة.

كان زيّ عامل توصيل مُعلقًا بعناية على شماعة تتدلى من بعض الأنابيب النحاسية. وبجانبه عربة يدوية محملة بالطرود.

بدأت ميريام تقول:

– "إذن لقد كان..."

أومأ ترامنيتز برأسه. رمش بعينيه وكأن شيئًا من الغبار الممتزج بالهواء اللزج في الأسفل قد علق فيهما.

– "شكوككِ كانت في محلها."

يا إلهي.

أمسكت ميريام بحلقها وقد عجزت عن التنفس؛ جفّ حلقها تمامًا.

عندما عجزت الشرطة، بعد عدة أسابيع، عن العثور على أثر واحد لـ "لورا"، شرعت ميريام في البحث عن ابنتها بنفسها. استجوبت جميع الجيران مرة أخرى؛ وكل من عمل في المتاجر المحيطة بملعب "شفايتزر فيرتل" حيث شوهدت الفتاة لآخر مرة.

كانت هناك ساكنة مسنة تعاني من خرف خفيف، لم تؤخذ إفادتها على محمل الجد – أو لم تُتابع – بلا شك لأنها كانت سريعة النسيان وتغرق في الذكريات. على أي حال، في اليوم الذي اختفت فيه لورا، ادعت هذه المرأة أنها رأت عامل توصيل. قالت إنها شعرت بالشفقة وهي تراه يكافح وحيدًا مع كل تلك الطرود التي اضطر لإعادتها إلى شاحنة الـ DHL لأن لا أحد في المبنى السكني في شارع "ألتدورفر" كان موجودًا في المنزل. ثم تلاشت مصداقيتها عندما استطردت في الحديث عن كيف ذكّرها الرجل بابن أخيها.

ومع ذلك، فقد قدمت أهم دليل على الإطلاق!

قال ترامنيتز وهو يوكز برفق بقدمه كومة من الطرود بارتفاع متر ونصف المتر كانت موضوعة على عربة بجوار الحائط:

– "لقد كان بالفعل متنكرًا بزي عامل توصيل."

لدهشتها، ثم لرعبها، سقطت الكومة على الأرض، رغم أن الشرطي لم يلمسها إلا بالكاد.

قال ترامنيتز:

– "ورق مقوى. مجرد قشرة فارغة."

صندوق فارغ، للمظهر فقط.

بارتفاع متر وخمسين.

مساحة كافية لإخفاء طفلة في السابعة من عمرها.

أنّت ميريام:

– "لورا... طفلتي. ماذا فعل بها؟"

أجاب الشرطي:

– "خدّر لورا، وخبأها داخل هذا الطرد الزائف ودفعها عائدًا إلى شاحنته دون أن يلحظه أحد. تعالي معي."

دفعت يدا ترامنيتز القويتان الباب المقاوم للحريق، الذي كان عليه ملصق قديم لمتجر موسيقى. هل يُعقل أن يكون هذا الوحش محبًا للموسيقى؟

مثل لورا؟

لم تستطع ميريام منع نفسها من التفكير في البيانو الذي اشترته الصيف الماضي فقط، والذي وقف صامتًا بشكل لا يُطاق في غرفة الجلوس طوال الأسابيع القليلة الماضية. هنا في الأسفل، كان الصمت صاخبًا بشكل لا يُطاق. هنا، في غرفة القبو المربعة التي كانت تدخلها لتوها، خُيّل لميريام أنها تسمع صراخ ابنتها. صدى لذكرى يتردد من الجدران الرمادية بلون الجثث والأرضية المبلطة ببالوعة في منتصفها. فوقهم تدلت لمبة عارية، ملطخة بطلاء أبيض، بدت وكأنها تنشر الظلال أكثر مما تنشر الضوء.

سألت ميريام بصوت مبحوح وهي تشير إلى الصندوق الخشبي بجوار الحائط أمامهم:

— "ما هذا؟"

حك ترامنيتز مؤخرة عنقه الحليقة وتفحص الصندوق الخشبي الزاوي. كان موضوعًا على طاولة معدنية تشبه طاولة التشريح في المشرحة. الصندوق مصنوع من خشب مضغوط بني اللون، طوله حوالي متر ونصف وعرضه ثلاثون سنتيمترًا. في الجانب المواجه لهم، فُتحت ثقبان دائريان، بقطر حوالي عشرين سنتيمترًا، يفصل بينهما مسافة عرض كف اليد. كانا مغطيين بغشاء غير شفاف، وكذلك الجزء العلوي من الصندوق، مما يعني أن ميريام لم تستطع رؤية ما بداخله.

قال ترامنيتز، محولاً جحيم القبو إلى صقيع أشد برودة:

— "إنها حضّانة."

شعرت ميريام بالغثيان عندما أدركت أن الثقوب كانت مخصصة لإدخال اليدين ولمس كل ما هو مخفي خلف جدران «الحضّانة».

سألت ترامنيتز دون النظر إليه:

— "ماذا فعل بها؟ ماذا فعل بطفلتي بحق السماء؟"

— "عمل لسنوات عديدة في وحدة حديثي الولادة قبل أن يُطرد لسلوك غير لائق. لم يتجاوز الأمر أبدًا، لذا أنشأ وحدة أطفال خاصة به هنا في الأسفل."

— "ليفعل ماذا؟"

اقتربت ميريام خطوة، ومدت يدها لتمزيق الغشاء، لكنها كانت ترتجف بشدة. لم تستطع فعل ذلك. وكأن مجالاً مغناطيسيًا حول «الحضّانة» يصد أصابعها بقوة أكبر كلما اقتربت منها.

اقترب ترامنيتز من خلفها، ووضع يديه برفق على كتفيها وتنحنح قائلاً:

— "هل هذا ما تريدينه حقًا؟"

وبدلاً من الهروب والصراخ، أومأت برأسها.

عندما انتزع الضابط الغشاء البلاستيكي عن «الحضّانة»، لم تستطع ميريام إغلاق عينيها بالسرعة الكافية. لقد لمحت المشهد، وانطبعت الصورة المرعبة في ذهنها كما ينطبع وسم الحديد الساخن على جلد حيوان.

شهقت:

— "لورا."

لأنه لم يكن هناك مجال للشك. رغم أن الجسد كان مغطى بعدة طبقات من رمل القطط الماص للروائح، والديدان كانت تتلوى بالفعل تحت العينين المفتوحتين على آخرهما، فقد عرفت ميريام ابنتها من الغمازة على ذقنها، والشامة بجانب حاجبها الأيمن، ومن مشبك الشعر "الأميرة" الذي كان يروض غرتها المتمردة.

— "لقد اعتنى بها."

— "ماذا؟"

كان عقل ميريام بعيدًا أميالاً عن كل واقع، تائهًا في محيط من الألم والعذاب النفسي. تسللت كلمات الشرطي إلى وعيها وكأنها قادمة من بُعد آخر... ولم يكن لها أي معنى.

— "أعطاها الطعام، والدواء، والدفء. والحب."

— "الحب؟"

تساءلت ميريام عما إذا كانت قد فقدت عقلها.

استدارت ونظرت لأعلى نحو ترامنيتز. من خلال غشاوة دموعها، بدا الوجه الوسيم المتناسق لضابط الشرطة غير واضح، وكأنه خلف جدار من المطر.

ولرعبها، بدأ يضحك بخفوت:

— "أوه، هذا أفضل بكثير مما كنت آمل. التعبير على وجهك!"

في لحظة خاطفة، أيقنت ميريام أن الله لم يعد موجودًا. فقط هي، وجثة لورا، والشيطان الواقف أمامها.

كانت ميريام على وشك الصراخ:

— "أنت لست شرطيًا. لقد كان أنت! أنت خطفت طفلتي، ثم عذبتها وقتلتها!"

لكن لم تخرج أي من هذه الكلمات من شفتيها، لأن فأسًا قد استقرت مباشرة بين عينيها.

كان آخر ما سمعته ميريام في هذه الحياة هو صوت تهشم مؤلم، وكأن غابة كاملة من الأغصان الجافة تتكسر في أذنيها، ممتزجًا بالضحكات المقززة من غيدو ترامنيتز وهو يوجه ضرباته. مرة تلو الأخرى. ومرة أخرى.

حتى أصبح كل شيء حوله وحول ميريام ضبابًا أحمر، ثم ألمًا عنيفًا أخيرًا. ثم لا شيء. ولا حتى السواد.

الفصل الثاني

تيل بيركوف

كانت الطفلة تختنق، لكن الرجل الأصلع لم يبالِ.

رفع قبضته وهوى بها على غطاء محرك سيارة تيل وكأنها مطرقة "ثور" العملاقة.

– "حرك سيارتك اللعينة من الطريق. هذا شارع باتجاه واحد!"

قال تيل وهو يترجل من سيارة الإسعاف:

– "واصلي الضغط. ثلاث مرات، كما أخبرتك. ستنجحين في ذلك."

لم يكن يتحدث إلى العملاق الواقف أمامه في الطريق، الذي كانت ملابسه الرياضية أصغر بثلاثة مقاسات من أن تستوعب عضلات جسده، بل إلى الأم على الهاتف التي كانت على وشك الانهيار من الذعر.

كانت قد أجرت مكالمة الطوارئ قبل خمس دقائق. ومنذ ذلك الحين، كان تيل يحاول توجيهها عن بُعد.

– "الآن حاولي التنفس الصناعي من الفم للفم مرة أخرى. لقد أوشكنا على الوصول."

هذا إذا سمح لنا السيد "ملاكم" بالمرور أخيرًا.

كانوا على بعد حوالي أربعمائة متر بخط مستقيم من المرأة، وقد سلكوا الطريق المختصر عبر "إيشكاتزفيغ" لتجنب حادث في شارع

"إيشكامبف". ولكن لأن هذا الأحمق بسيارته الرياضية الضخمة (SUV) رفض التحرك من الطريق، لم يتمكنوا من دفع سيارة الإسعاف أكثر في هذا الشارع الضيق ذي الاتجاه الواحد. لم يكن للشارع حتى رصيف للمشاة. ومن الواضح أن هذا الهمجي كان مستعداً لاستخدام القوة لإجبار سيارة الإسعاف على الرجوع للخلف.

أطلق صاحب العضلات نظرة خاطفة سريعة نحو سيارته التي كانت تجلس فيها امرأة نحيلة للغاية ذات شعر أحمر تُصلح أحمر شفاهها المنفوخ، وقال:

— "سأقولها مرة واحدة أخيرة، ثم سأدع قبضتي تتحدث، ولا أقصد التصفيق بقبضتاي — أفهمت؟ أنا في عجلة من أمري وأنت تقف في طريقي اللعين."

أخذ تيل نفسًا عميقًا وأبعد الهاتف قليلاً عن أذنه قائلاً:

— "اسمع، ماذا يبدو لك هذا؟"

أشار إلى سيارة الإسعاف التي صفعها الأحمق للتو وإلى الأضواء الوامضة على السطح التي كانت تدور في صمت.

— "أحتاج للوصول إلى طريق داورفالد، وبالتأكيد لن أعود للخلف عبر ثقب إبرة فقط لكي تصل أنت إلى الجيم في الوقت المحدد."

لم يكن من غير المألوف أن يشتكي المارة عندما تقف مركبات الطوارئ في الصف الثاني، ولكن حتى بمعايير برلين، كان هذا مستوى جديدًا تمامًا من الوقاحة. ومع ذلك، بالأمس فقط وجد ورقة على الزجاج الأمامي في حي لانكفيتز: «مجرد أنك تنقذ حياة الناس لا

يعطيك الحق في تلويث هوائنا بعوادم سيارتك. في المرة القادمة أطفئ المحرك بينما تذهب لنقل شخص ما من منزله!»

بوضوح تام، لم يخطر ببال الشخص الغاضب أن هذا كان سيعني أيضًا إيقاف المعدات التي تحافظ على حياة مريض الجلطة. أو ربما لم يبالوا. تمامًا كما لم يبالِ هذا المفتول العضلات بشأن الطفلة التي تختنق.

سمع تيل الأم تنادي بقلق بينما اقترب الأصلع أكثر:

— "ألو؟ هل ما زلت معي؟"

أمسك الهاتف بقوة أكبر على أذنه.

— "نعم، نعم، ما زلت هنا. استمري في التنفس الصناعي!"

— "إنها تتحول للون الأزرق. يا إلهي. أعتقد أنها... أنها..."

نادى شريك تيل من الخلف:

— "اترك الأمر، عُد أنت بالسيارة للخلف وسأركض أنا هناك."

كان آرام قد نزل بالفعل ومعه الحقيبة الطبية.

ضحك الأصلع قائلاً:

— "هذا صحيح، استمع إلى صاحبك الأسود. الآن، ارجع للخلف، وبسرعة!"

ها هو ذا مجددًا، ذلك الوخز في أصابعه. إشارة التحذير التي يرسلها دماغ تيل عندما يكون على وشك القيام بشيء خاطئ. لم يستطع تيل تحديد ما إذا كان السبب هو إهانة الهمجي لشريكه الكردي، أم لأنه كان مشحونًا بما يكفي على أي حال. في كل الأحوال، كانت حياة طفلة تبلغ من العمر ستة أشهر على المحك. آخر مرة شعر فيها بهذا

الإحساس الذي يشبه وخز الدبابيس في أطراف أصابعه كانت عندما ذهب للتعامل مع حريق قبل ثلاثة أسابيع. العملية التي أدت إلى إجراءات تأديبية ضده.

كان تيل رجل إطفاء، وعضوًا في فريق الإنقاذ. قائد طاقم بتدريب مسعف. في الواقع، لم يكن ينبغي أن يكون هنا في "ويست إند" يلعب دور الطبيب، بل في مكان ما على الخطوط الأمامية، يهرع إلى مبنى يحترق مرتديًا جهاز التنفس والفأس.

في الواقع.

«سلوك متهور للغاية. خطر محتمل على الزملاء»؛ هكذا جاء في التقرير النفسي الذي تسبب في نقله. تخفيض وظيفي. مسعف في جنوب غرب برلين.

وكل ذلك بسبب قطة غبية. ولكن ماذا كان عليه أن يفعل؟ بكت العجوز بمرارة، مخبرة إياه أن قطتها العزيزة كانت كل ما تبقى لها في الدنيا، لذا عاد إلى النيران وصعد إلى شقتها. وفي النهاية اضطر زميل له للقدوم لمساعدته.

قبل لحظات من ركض تيل إلى النار، شعر بالوخز في أصابعه. إشارة التحذير: لا تفسد الأمر مرة أخرى. هذه المرة، قال لنفسه الآن، سوف أستمع إليها.

بصرف النظر عن حقيقة أن تيل لم يكن لديه وقت لهذا الهراء، كان من الواضح أن السيد "ملاكم" مقاتل من طراز مختلف. لم يكن تيل قصيرًا أو ضعيفًا، لكنه كان يمتلك عينًا خبيرة بمقاتلي الشوارع ولاعبي

الفنون القتالية. والرجل المقابل له بدا متفوقًا بمراحل في هذه التخصصات.

حسنًا، الحكمة هي الجزء الأفضل من الشجاعة، تنهد تيل في وجه ضحكة الهمجي الساخرة.

عاد إلى سيارة الإسعاف وأدار المحرك ويداه توخزانه. وضع السيارة في وضع القيادة وحاول قمع غضبه.

انتظر حتى عاد الأحمق إلى سيارته الـ SUV.

ثم ضغط بقدمه على الدواسة بكل قوته.

بعد نصف ثانية اصطدم بمقدمة السيارة. ورغم أن الاصطدام لم يكن عنيفًا بما يكفي لتشغيل الوسائد الهوائية، إلا أن العملاق لم يكن قد ربط حزامه بعد، فارتطم رأسه بعجلة القيادة.

صرخت ذات الشعر الأحمر بصوت عالٍ لدرجة أن تيل تمكن من سماعها حتى عبر زجاج السيارتين وضد صوت احتكاك الإطارات بالأسفلت وتحطم الزجاج والبلاستيك والكروم، بينما كانت تُدفع إلى الخلف مع السيارة.

ظهر مدخل مرآب بعد فترة وجيزة على اليسار، فحرّف تيل عجلة القيادة بينما ضغط بقدمه مرة أخرى ليدفع الـ SUV المحطمة إلى الجانب وعجلاتها تدور بجنون، مما أدى إلى إتلاف سيارتين أخريين متوقفتين في العملية. ولكن أخيرًا أصبح الطريق سالكًا، واضطر تيل للضغط على المكابح بقوة لتجنب الانطلاق كالسهم إلى شارع "ألتي آلي".

توقف، وفتح الباب واستدار لفترة وجيزة إلى آرام، الذي كان يقف في الطريق وكأنه مشلول من الصدمة بجوار حطام الـ SUV في مدخل المرآب. كان العملاق يحاول الخروج بصعوبة، وأنفه مكسور والدماء تسيل على وجهه. بدا غائبًا تمامًا عن الوعي.

صاح تيل بشريكه:

– "الطفلة أولاً. الأنف يمكنه الانتظار."

الفصل الثالث

بعد ثماني ساعات

سمعه يتمتم نصف هامس ونصف باكٍ:

– "أريد أن أريكِ شيئًا."

انتفض تيل فزعًا لأن ماكس، مرة أخرى، قد تسلل إليه كجندي نخبة. وكعادته، ترك تيل باب مكتبه في العلية مفتوحًا. كان تيل يكره الغرف المغلقة بقدر ما يعشق ابنه البالغ من العمر ست سنوات، الذي كان يمتلك مهارة التحرك بصمت فوق هذه السلالم.

– "ما الأمر يا صغيري؟"

أغلق تيل حاسوبه المحمول الذي كان قد صاغ عليه بيان دفاعه، رغم أنه لم يكن يستحق العناء. كانت حقائق الأمر واضحة؛ ماذا كان لديه ليقوله للجنة التحقيق؟

نعم، لقد فقد صوابه مرة أخرى. نعم، كان سلوكه متهورًا وغير منضبط مرة أخرى، وهذه المرة كان هناك شهود سيشهدون كيف فقد أعصابه وكسر أنف رجل، ناهيك عن الأضرار التي لحقت بأربع مركبات والتي ستكلف مئات الآلاف من اليورو. حقيقة أنه أنقذ حياة طفلة بعد دقائق لم تكن ذات صلة. لا يُفترض بك استخدام سيارة الإسعاف كدبابة للوصول إلى وجهتك في الوقت المحدد. سيُطرد تيل بمجرد أن تتلقف الصحافة القصة وتصوره كمسعف هائج.

– "لقد أنهيتُ (ميلينيوم فالكون)."

حمل ابنه سفينة الفضاء المصنوعة من الليغو إلى المكتب وكأنها أثر مقدس.

قال تيل بإعجاب، رغم أنه تساءل عما إذا كان السماح لماكس، وهو في السادسة فقط، ببناء سفينة فضاء حربية من "حرب النجوم" مزودة بمدافع ليزر يُعد تربية مسؤولة:

– "تبدو رائعة. مكتوب على العلبة أنها لمن هم في التاسعة فما فوق."

رغم علمه أن هذه الإرشادات العمرية غالبًا ما تكون محض خيال. «عند الشك»، كما أخبره ذات مرة مطور ألعاب سريًا كانوا قد أخمدوا حريقًا في مستودعه، «نقول إنها للأطفال الأكبر سنًا، وحينها يعتقد الآباء أن لديهم عبقريًا صغيرًا في المنزل».

– "أستطيع رؤية (هان سولو) و... هل هذا (تشوباكا) هناك؟ لديك حتى (لوك سكاي ووكر) في قمرة القيادة. واو! كل شيء مثالي. إذن لماذا الدموع؟"

شهق ماكس، ثم تلكأ في الكلام. قال أخيرًا:

– "ماما."

– "ما بها؟"

– "قالت إنني لا أستطيع."

– "لا تستطيع ماذا؟"

– "أن أريها إياها."

ابتسم تيل وبعثر الشعر البني الكثيف الذي ورثه ماكس عن والدته، ريكاردا. تمامًا مثل الشفتين الممتلئين والرموش الطويلة.

لكن معظم الناس كانوا يقولون إن ماكس يشبهه، وهو ما يمكن أن يُعزى فقط إلى العينين الداكنتين الكبيرتين اللتين بدتا حزينتين دائمًا، حتى عندما يبتسم الصبي.

سأل تيل وهو ينظر عبر نافذة الرواق:

— "عندما تقول (أريها)، هل تقصد آنا؟"

كان الثلج قد تساقط الليلة الماضية في "بوكوف" وتراكم الآن على أسطح المنازل المجاورة. ابنة الجيران كانت حب ماكس الأول، وكان على تيل الاعتراف بأنها كانت فاتنة حقًا. كانت ذكية ولطيفة ومهذبة أيضًا؛ في الواقع كانت لتكون زوجة الابن المثالية، لولا فارق السن البسيط. كانت آنا في السابعة عشرة وتستعد لامتحاناتها المدرسية النهائية، بينما كان ماكس لا يزال في سنته الدراسية الأولى ويريد أن يصبح رجل إطفاء. مثل والده.

ومع ذلك، كانت آنا تجاريه. كان ماكس يهيم بها وكانت تسمح له بمعانقتها بين الحين والآخر. حتى أنها كانت ترد على رسائل حبه الطفولية. كلما رأت تيل كانت تلقي عليه تحية مرحة: «مرحبًا يا عمي»، ولكي تتجنب كسر قلب ماكس الصغير، لم تخبره أن الشاب الذي كان يأتي أحيانًا لاصطحابها على دراجته النارية هو صديقها.

سأل تيل:

— "هل آنا هناك إذن؟"

أومأ ماكس برأسه.

— "وماما قالت إنه لا ينبغي لك الذهاب؟"

— "لكنني أريد فقط أن أريها إياها."

— "هممم، أنا أتفهم. أنا متأكد أنها ستعجب بها."

تساءل تيل كيف يمكنه حل هذه المعضلة دون أن يقع في المشاكل. كانت حاجته للصراع والدموع قد اكتفت لهذا اليوم. بعد كل ما حدث، كان يتوق لبعض الانسجام. في النهاية استقر على الحل الوسط مرة أخرى، والذي كان في الحقيقة مجرد تسوية كسولة.

— "حسنًا يا صغيري. هذا هو الاتفاق. إذا قمت بتنظيف صندوق فضلات القطة، سأسمح لك بالذهاب سريعًا إلى منزل آنا لتريها (الميلينيوم فالكون). ما رأيك؟"

أومأ ماكس. مسح تيل آخر الدموع عن خدود ابنه وربت بلطف على ظهره.

— "وأخبر ماما أنني سأنزل حالاً للتحدث معها."

بمعرفته لريكاردا كما يعرفها، لن يتمكن من التحدث معها لساعة أخرى على الأقل، بعد أن قوض سلطتها مرة أخرى مع ماكس. هذا عن الرغبة في بعض الانسجام.

لا بد أن لديها أسبابًا وجيهة لعدم رغبتها في خروجه مرة أخرى والظلام يوشك أن يحل، رغم أن منزل آنا كان يقع فقط في المبنى التالي على الطريق.

كانت توبخه بانتظام: «إنه يتلاعب بنا ضد بعضنا البعض» — وكانت محقة. كان تيل عاجزًا عن رفض أي شيء لابنه، خاصة عندما يقف باكياً ويحدق في والده مثل جرو مهجور. كان يعتقد أحيانًا أن

السبب الرئيسي لرغبة ريكاردا في إنجاب طفل آخر، ابنتهما إميليا، هو ألا يبقى ماكس طفلاً وحيدًا يفسده تيل بشكل مفرط.

– "أوه، وماكس؟"

استدار ابنه عند أعلى درجات الرواق وفي عينيه قلق من أن والده قد يلغي الاتفاق.

– "نعم يا أبي؟"

– "ما هي كلمة السر؟"

الفصل الرابع

ماكس

مكعب ثلج، فكر ماكس وهو يضم نموذج المركبة الفضائية إلى صدره.

خطا خارج الباب الأمامي إلى برد يناسب تمامًا كلمة السر التي اتفق عليها هو وأبوه في الصيف الماضي. لقد استوحيا الفكرة من شرطي زار حضانة ماكس وحذرهم من أناس أشرار يريدون إيذاء الأطفال الصغار. أوصى الشرطي بأن يتفق الآباء والأطفال على كلمة سر لا تعرفها إلا العائلة.

أعجبت الفكرة والده.

تدربا عليها مرارًا وتكرارًا، في جولات مشيهما عبر الغابة، في السيارة، أو بينما كانا ينتظران الحافلة. راجعا السيناريو الذي تحدث عنه الشرطي والذي جعل ماكس مرعوبًا للغاية.

– "ماذا تفعل إذا قال غريب إنه يجب عليك الذهاب معه لأنه سيعطيك حلوى أو يريك حيوانات أليفة صغيرة؟"

– "أقول: لا!"

– "وإذا قال إن والديك قالا إن الأمر على ما يرام؟"

– "إذن أطلب منه كلمة السر."

– "وما هي كلمة السر الخاصة بنا؟"

– "مكعب ثلج."

– "حسنًا. فماذا يحدث إذا لم يعرف الشخص كلمة السر؟"

– "إذن أعرف أنك لم تقل إن الأمر على ما يرام."

– "ماذا تفعل حينها؟"

– "حينها أصرخ (ساعدوني!) بأعلى صوتي وأهرب."

تمتم ماكس: "مكعب ثلج"، ونزل بحذر الدرجات إلى الحديقة الأمامية.

كان والده قد نثر الحصى على الممر القصير المؤدي للسياج هذا الصباح، لكن الثلج تساقط مرة أخرى منذ ذلك الحين. يجب ألا ينزلق ماكس ويوقع شيئًا في غير مكانه أو حتى يكسر سفينة الفضاء.

كان يتطلع بالفعل لرد فعل آنا عندما تراه والعناق الذي ستمنحه إياه. كانت تعانقه دائمًا عندما يلتقيان. كانت رائحتها زكية جدًا. ربما رائحة الخوخ، لكنه لم يكن متأكدًا مما تغسل شعرها به. على أي حال، كانت رائحتها تختلف عن شامبو "غابة الديناصورات" الذي كانت أمه تفرك شعره به.

مركزًا بشدة، محولاً بصره بين بوابة الحديقة، التي دفعها بحذر بقدمه لتفتح، وبين سفينة الفضاء، مشى ببطء، ولكن فجأة أفزعه صوت وكاد يسقط النموذج.

– "هاي، أيها الصغير!"

نظر ماكس إلى اليمين ورأى رجلاً يقف تحت مصباح الشارع. وكأنها تطيع أمرًا، أضاءت اللمبة في تلك اللحظة بالذات، كما فعلت جميع المصابيح الأخرى في الشارع الصغير المرصوف بالحصى.

– "نعم؟"

– "هل تعرف أين يقع العقار رقم 65؟"

لم يرغب ماكس في أن يتأخر في طريقه إلى آنا، وفضلاً عن ذلك، كان الجو يزداد برودة مع كل ثانية.

زلت الكلمات من لسانه:

– "ما هي كلمة السر؟"

– "هاه؟"

نظر الرجل إلى ماكس وكأنه يتحدث اللغة السرية التي ابتكرها مع صديقه المفضل، أنطون.

قال ماكس بعد لحظة، وقرر مساعدة الرجل:

– "لا يهم... رقم 65؟"

اقترب الرجل أكثر، لكن ماكس لم يكن خائفًا.

ففي النهاية، لم يقترح الرجل أن يذهب معه.

وقاعدة كلمة السر لا يمكن أن تنطبق على الأرجح على عامل توصيل يحاول سحب عربة محملة بالطرود عبر الثلج.

الفصل الخامس

تيل

بعد عام واحد

لا شيء. لا صوت. لا خطوات. ولا حتى طرقة باب.

لم يسمع تيل بيركوف صهره يدخل من الباب الأمامي. ولم يكن أوليفر سكانيا بالضبط قزمًا يطفو فوق الأرض بخفة الريشة. عادةً ما كان عبور جسد مفتش المباحث الجنائية بوزنه البالغ 120 كيلوغرامًا عبر أي باب كافيًا لجذب الأنظار، سواء كان يدخل مسرح جريمة، أو غرفة استجواب، أو كما هو الحال هنا، منزلاً خاصًا.

ولكن في هذه اللحظة، كان رجل آخر أشيب يصرخ بصوت عالٍ داخل غرفة الجلوس لدرجة أن طائرة مروحية كان يمكن أن تهبط في الحديقة دون أن يلاحظ تيل.

— "في هذه اللحظة بالذات، وبعد عشرة أشهر من اعتقاله، يتم نقل القاتل المتسلسل غيدو ترامنيتز إلى جناح الطب النفسي الشرعي المكثف. وأسباب هذا النقل غير معروفة."

كان تيل قد رفع صوت التلفزيون إلى الحد الأقصى تقريبًا حتى لا تفوته كلمة واحدة مما سيقوله قارئ الأخبار المصاحب للصور المروعة. كان صوته يحمل تلك النبرة غير الصادقة، النرجسية والدرامية التي كان تيل يكرهها بشدة في مقدمي البرامج التلفزيونية.

— "في يناير، أُدين ترامنيتز بقتل لورا البالغة من العمر سبع سنوات ووالدتها، ميريام س. ثم أرشد ضباط الشرطة إلى موقع جثة أخرى، تعود للطفل أندرياس ك، البالغ من العمر ست سنوات."

تناوبت صور مسرح الجريمة لقبو قذر وصندوق خشبي بدائي الصنع، يذكر بتابوت طفل، مع صور مدرسية للطفلين المقتولين.

ثم انتقلت الصورة إلى اللقطة التي حولت ترامنيتز إلى "نجم رعب". التقطها مصور باباراتزي مباشرة بعد الاعتقال: ترامنيتز جالسًا في سيارة الشرطة، يبتسم مباشرة للكاميرا.

وجه منفتح وودود، يشبه وجه عارض أزياء، بعينين زرقاوين كعيني طفل حديث الولادة.

— "في المحكمة، اعتُبر ما يسمى بـ «وحش الحضّانة» غير مسؤول جنائيًا بسبب اضطراب فصامي حاد. كان ترامنيتز مقتنعًا بأن قوى شريرة زرعت شيئًا داخل دماغه لتوجيه أفكاره."

— "بعد محاكمة استمرت ثلاثة أيام فقط، نُقل ترامنيتز بمرافقة الشرطة إلى «مستشفى شتاين»، وهو مستشفى للأمراض النفسية شديد الحراسة في منطقة تيغيل ببرلين. في الوقت الحالي يبدو أنه في حالة حرجة. حتى الآن لدينا فقط شائعات غير مؤكدة تشير إلى أن ترامنيتز سيخضع لعملية جراحية اليوم."

تمتم سكانيا:

— "آمل أن يبرحه رفاقه في السجن ضربًا."

عرض التلفزيون الآن المستشفى ورجلاً، لا بد أنه الطبيب المعالج لترامنيتز، يرد على الأسئلة حول حالة مريضه بمجرد هز رأسه ويسرع

متجاوزًا المراسلين. كان التعليق أسفل الشاشة يقرأ: د. فولكر فريدر، جراح.

قال قارئ الأخبار:

— "مستشفى شتاين مجهز بجناح للعناية المركزة والصدمات للتعامل مع حالات الطوارئ، حيث يلجأ الجناة المصابون بأمراض عقلية كثيرًا إلى إيذاء أنفسهم. في بعض المرضى، يكون للذهان أسباب جسدية وتتطلب جراحة في الدماغ. رفض الدكتور فولكر فريدر التعليق عما إذا كانت هذه هي الحالة مع غيدو ترامنيتز."

تعرف تيل على الاسم؛ خُيِّل إليه أنه يتذكر لقاء الطبيب مرة واحدة عند نقل مصاب من حريق إلى مستشفى فيرشو. لاحقًا سمع شائعات من الممرضات. قيل إن فريدر فقد مريضًا ذات مرة وهو تحت تأثير الكحول، لكن لم تكن هناك محاكمة أبدًا. لا بد أن الأقارب توصلوا لتسوية مع المستشفى، تضمنت مبلغًا كبيرًا من المال. منذ ذلك الحين كان فريدر يعمل كطبيب عام، ولا بد أن مستشفى شتاين يستدعيه لإجراء عمليات الطوارئ.

قال سكانيا وهو يخلع معطفه:

— "لا ينبغي أن تشاهد هذا."

ألقى تيل نظرة على حمالة الكتف والمسدس الذي يطوق صدر صهره الضخم، ثم عاد ببطء إلى التلفزيون، لكنه خفض الصوت بجهاز التحكم عن بُعد.

— "قضية غيدو ترامنيتز تصدرت العناوين ليس فقط بسبب وحشيته التي لا توصف، بل لأن المحققين الجنائيين وخبراء الأدلة

الجنائية يعتقدون أن القاتل المتسلسل السيكوباتي مسؤول عن جريمة قتل واحدة أخرى على الأقل. ولكن بما أن ترامنيتز، بناءً على نصيحة محاميه، يلتزم الصمت، فمن المرجح أن أي جرائم أخرى قد يكون ارتكبها لن يتم كشف غموضها أبدًا."

انتفض تيل عندما كانت الصورة التالية التي رآها على الشاشة لرجل بدا مألوفًا بشكل غريب ولكنه مجهول تمامًا أيضًا: هو نفسه.

كان المراسل يتربص خارج شقته. بالكاد استطاع تيل تذكر الحالة التي كان عليها عندما استوقفه الطفيلي الصحفي الذي عذبه بأسئلة تفتقر للكياسة: «سيد بيركوف، هل تعتقد أن غيدو ترامنيتز مسؤول عن اختفاء ماكس؟ هل سيعترف بقتل ابنك؟ ماذا ستفعل بالمتهم لو أتيحت لك الفرصة؟»

كان السؤال الأخير تلميحًا صارخًا للتقارير حول «طبيعة تيل المتهورة وسريعة الغضب» التي كلفته وظيفته.

عندما اختفى ماكس، كان تيل المشتبه به الرئيسي في البداية. ليس في نظر الشرطة، بل بالنسبة للإعلام، الذي سرعان ما حصل على معلومات تتعلق بسجلاته الوظيفية والإجراءات التأديبية التي صُنف فيها تيل كشخص قادر على السلوك العنيف والمتهور. وعندما قدم العملاق الأصلع صاحب الـ SUV، مقابل مبلغ مناسب، مقابلات لنفس الصحيفة، شارحًا كيف حاول تيل قتله بسيارة الإسعاف، بدأ الصحفيون يستفسرون في روضة ماكس السابقة عما إذا كان الصبي الصغير قد ظهر يومًا بأي إصابات غير عادية. هل كان الأب عنيفًا مع ابنه، ربما؟

بغضب، أطفأ تيل جهاز التلفزيون، لكن الصور في رأسه رفضت الرحيل.

الشارع. الحصى المغطى بالثلج. قطع الليغو. كم هذا مناسب، فكر تيل، متذكرًا سفينة الفضاء المحطمة — الشيء الوحيد المتبقي من ماكس في حياته، محطم الآن أيضًا.

بعد أن فشل ابنهم في العودة للمنزل واكتشفوا أنه لم يصل أبدًا إلى منزل آنا، وجدوا فقط قطعًا فردية. جمعت الأدلة الجنائية كل قطعة ليغو مفردة وأعادت تجميع الشيء بالكامل في المختبر. للتحقق مما إذا كان الخاطف قد أخذ تذكارًا بالإضافة إلى ماكس. وبالفعل، كان هناك تمثال واحد مفقود.

لوك سكاي ووكر.

اختفى من على وجه الأرض، تمامًا مثل ابنه.

الآن اختفت ريكاردا من حياته أيضًا. كانت تلومه بحق على المأساة، رغم أنها لم تنطق أبدًا بالكلمات التي كان يعذب نفسه بها باستمرار طوال الأشهر الاثني عشر الماضية: «لو لم تسمح له بالذهاب إلى منزل آنا، لما حدث أي من هذا».

نهض تيل ونفض نفسه ككلب مبتل، لكنه لم يستطع التخلص من الذكريات. ولا من ضيفه غير المدعو الذي لم يبالِ بوضوح بأن تيل كان يتجاهله منذ وصوله.

هسهس أخيرًا:

— "ماذا تريد؟"

لكن هذا لم يزعج سكانيا أيضًا. بعد سنوات عديدة في سلك الشرطة، كان صهره معتادًا على الأرجح على سماع المفجوعين يفرغون يأسهم في المحققين الجنائيين. أو ربما اعتبره واجبه العائلي أن يقف بجانب تيل، حتى لو كانت مسألة وقت فقط قبل أن تطلب أخته الطلاق. كانت ريكاردا قد انتقلت بالفعل وأخذت أخت ماكس معها.

— "اسمع، لقد حدث تطور، ولكن..."

شد سكانيا إحدى طيات الجلد تحت ذقنه المزدوجة، وهي لازمة له كلما كان يفكر فيما سيقوله تالياً.

— "ماذا؟"

— "لقد أوقفوا أخيرًا البحث عن ماكس."

الفصل السادس

خلل تيل أصابعه في شعره الدهني الذي طاله الإهمال. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرًا، ولا يزال يرتدي ثياب نومه.

– "ماذا؟ ابني لم يغب سوى عام واحد!"

أومأ صهره برأسه مؤكدًا:

– "هذا صحيح، لكنهم متأكدون من مسؤولية ترامنيتز. أسلوب التنفيذ، الموقع، وكل تفاصيل جرائمه تتطابق تمامًا مع حالة ابنك. أنت تعرف كيف تدار الأمور في سلك الشرطة. هل تظن أن هذا يعجبني؟ لكن لا جدوى من مطاردة مجرم يقضي بالفعل عقوبة السجن المؤبد. نحن نعلم أنه هو الفاعل."

شعر تيل وكأن الهواء قد سُحب من الغرفة فجأة، وهدده ثقل هذه النهاية بالاختناق. احتج بصوت متهدج:

– "لكنكم لا تعرفون مكان ماكس. يجب أن تستمروا في البحث!"

أومأ سكانيا برأسه وقال:

– "صدقني، لو كان الأمر بيدي لكان للوضع شكل آخر. لنبشتُ كل حجر في هذه المدينة بحثًا عنه، ولما أبالي بنقص الميزانية أو الكوادر. لكن هذا هو السبب تحديدًا في استبعادي رسميًا من قيادة هذه القضية."

– "أفهم ذلك."

بصفته شقيق زوجة تيل، كان سكانيا طرفًا منحازًا، فكيف له أن يتوخى الموضوعية في تحقيق كهذا؟ لكن استبعاده لم يكن يعني انقطاع أخبار التحقيقات عنه. صرخ تيل:

— "لا يمكنهم التخلي عن البحث عن ماكس. أحتاج أن أعرف ما حل بابني!"

فأجابه سكانيا بحدة:

— "أنت تعرف تمامًا ما حل به."

نعم، كان يعرف.

فرك تيل ذقنه التي غطاها شعر نبت لعشرة أيام، أو ربما لأسبوعين، لم يعد يذكر. فمنذ اختفاء ماكس، صارت الأيام تتشابه كحلقات مفرغة.

استيقظ. فكر في ماكس. ارتدِ ثيابك. فكر في ماكس. استسلم لليأس. فكر في ماكس. اخلع ثيابك. فكر في ماكس. استلقِ. فكر في ماكس. يأس. عجز عن النوم. فكر في ماكس. استيقظ.

ومنذ أن هجرته ريكاردا، لم يعد يضطر حتى لتغيير ثيابه.

قال سكانيا محاولاً استمالته بلين:

— "أنت تعرف ما حدث للأطفال الآخرين."

نعم، كان يعرف. فتاة وصبي، في السابعة والسادسة. تنكر ترامنيتز بزي عامل توصيل، واختطفهما من حديقتي منزليهما، وخدرهما ثم اقتادهما إلى قبوه حيث عذبهما واعتدى عليهما وقتلهما داخل حضّانة صممها بنفسه. لم ينجُ طفل وقع بين يديه لأكثر من ثماني وأربعين

ساعة. وقد اختفى ماكس منذ أكثر من عام، بعد رؤية الجيران لشاحنة "دي إتش إل" وعامل توصيل يجر عربة محملة في الشارع.

قُبض على ذلك الوغد بعد وقت قصير، وعثروا على جثة ميريام شميت، والدة لورا المخطوفة. كانت ميريام، بجهودها الخاصة، قد اقتربت كثيرًا من كشف ترامنيتز، في وقت كان فيه القاتل يراقب الأم الوحيدة عن كثب ليتلذذ بمعاناتها. وعند اعتقاله، وجدوا صورًا وتسجيلات فيديو لا حصر لها لميريام وهي تعلق المنشورات التي تحمل وجه ابنتها على الأشجار أو تهيم في الشوارع. كانت ميريام محقة في نظريتها بأن المختطف تنكر بزي ساعي بريد، ولهذا أراد ترامنيتز التخلص منها قبل أن تذهب للشرطة. ومن قبيل الصدفة وحدها، شوهد وهو يحاول التخلص من جثتها في كوخ للقوارب، وهكذا كانت ميريام هي المسؤولة في النهاية عن إدانة قاتل ابنتها وطفل آخر على الأقل. وتحت الضغط، قاد ترامنيتز الشرطة إلى جثتي لورا وصبي في السادسة من عمره من منطقة بانكو. ومع ذلك، ظل صامتًا كالقبر بشأن ما حدث لـماكس.

قال تيل:

— "تعال معي، لدي ما أريك إياه."

تجاوز سكانيا بجر خطواته نحو الحمام، وفتح الخزانة تحت المغسلة وأخرج بخاخًا معطرًا للجو.

سأل سكانيا بحيرة:

— "معطر جو؟"

فأجابه تيل:

– "بل بخاخ طارد الوحوش."

ولم يفهم سكانيا قصده، فتابع تيل:

– "كان ذلك قبل عام ونصف. حينها ارتكبت خطأً وحكيت لـماكس قصة مرعبة قبل النوم. كان قد شاهد فيلم (موانا) في السينما وأرعبه (تي كا)، شيطان الحمم البركانية، فطلب مني أن أحكي له شيئًا مخيفًا مثله. أعرف، كان يجب ألا أذكر وحش الخزانة ذا العينين الخضراوين. بعدها، صار يهرع لفراشنا كل ليلة، حتى أخبرته أنني اشتريت بخاخًا طاردًا للوحوش من متجر للأشباح."

هز تيل العبوة التي تفوح منها رائحة اللافندر:

– "أخبرته أننا إذا رششناه في الخزانة وعلى السرير، فسينام بأمان ولن يمسه سوء. وقد صدقني."

طفرت الدموع في عينيه:

– "كنت أرشه كل ليلة في غرفته، ولم يعد يزحف إلى فراشنا أبدًا. صار ينام بعمق. لم يعد ماكس خائفًا."

– "تيل!"

– "هل تظن أنه سأل مختطفه عن بخاخ الوحوش أيضًا؟" تكسر صوته وهو يتابع: "أتعلم؟ أستلقي كل ليلة، وعيناي مفتوحتان على اتساعهما، أحدق في السقف، وأسمع ماكس ينادي طالبًا البخاخ لأنه مرعوب. لكن لا أحد يأتيه به. لا يوجد بخاخ.. يوجد الوحش فقط..."

رفع سكانيا صوته قائلًا:

– "ماكس مات!"

– "أعرف!" صرخ تيل وقذف العبوة نحو المرآة التي لم تخدش بمعجزة ما. تابع وصوته يزداد حدة: "أعرف أنه مات، لكن يجب أن أراه، أن أرى جثته. يجب أن أدفن ماكس، ألا تفهم؟ أحتاج إلى اليقين!"

اندفع خارج الحمام وتبعه سكانيا مسرعًا:

– "بالطبع أفهم. أنا أريد ذلك بقدر ما تريده أنت.. أو ريكاردا."

– "أختك هجرتني، وأخذت معها إيميليا."

نظر سكانيا إليه بشفقة:

– "أعرف، لقد أخبرتني. لكن كن صريحًا، هل يدهشك ذلك؟ انظر إلى حالك، لقد أهملت نفسك تمامًا، ورفضت مواجهة الحقيقة."

– "وما هي الحقيقة؟"

رفع صهره ذراعيه، فبدت بقع العرق تحت إبطيه كبيرة وواضحة.

– "إذا لم يخبرنا ذلك الوغد بمكان ماكس..." تنحنح سكانيا وتابع: "أعني، أنت تعرف ما حدث مع الأطفال الآخرين. لقد قرأت التقارير. لقد كان ترامنيتز بارعًا في دفن الجثث لدرجة أنه لولا اعترافه لما عثرنا عليهم أبدًا. دفنهم في أعماق مكب النفايات القديم حيث لا يمكن حتى لكلاب كشف الجثث أن تشم ريحهم. ومنذ دخوله السجن..."

توقف عن الكلام. صمت تمامًا.

أغمض تيل عينيه. بناءً على نصيحة محاميه، لم ينبس ترامنيتز بكلمة منذ اعترافه الأول، مما ترك تيل في أسوأ حالة ممكنة: عدم اليقين. ولأن ألمانيا دولة قانون، فإن مجرد التهديد بالتعذيب يعاقب عليه، حتى ضد وحش كهذا. لم يكن هناك ما يجبر هذا المسخ على

الكلام. لا شيء سوى... خطرت لـتيل فكرة. فكرة عبثية، تقارب الجنون، ولا يصدقها عقل. ومع ذلك، كانت أول فكرة تمنحه دافعًا منذ زمن طويل.

– "ماذا كنت ستفعل بالمتهم لو أتيحت لك الفرصة؟"

ثم سأل سكانيا:

– "ما مدى تأكدنا من أن ترامنيتز هو من قتل ابني؟"

– "كانت تقديراتنا السابقة تسعة وتسعين بالمئة، لكن في الساعة الأخيرة، وصلنا إلى اليقين التام."

– "وكيف ذلك؟"

– "لقد وجدوا شيئًا. في الواقع، لهذا جئت."

شعر تيل بغثيان، وبدأ العالم يدور من حوله، فتشبث بالكرسي الذي وضعه أمام التلفاز.

– "ماذا؟" سأل بجهد جهيد.

ماذا وجدوا؟

فتح سكانيا قبضته الكبيرة، لكن تيل لم يبصر شيئًا في البداية؛ فقد كان الضوء المتسلل عبر الستائر يضرب عينيه بزاوية مزعجة. خاصة وأن الشيء في يد سكانيا كان صغيرًا وأبيض.. ومن البلاستيك!

همس تيل:

– "لوك سكاي ووكر." تراجع وكأن دمية "الليغو" في يد سكانيا موبوءة: "أين عثروا عليها؟"

– "على طاولة ترامنيتز بجانب سريره، حين اقتيد إلى غرفة العمليات. لقد عرض الوغد غنيمته علنًا في المصحة. وهناك شيء آخر أيضًا."

– "دليل إضافي؟"

– "ربما."

مط سكانيا شفتيه وتابع:

– "هناك شائعات، أخبار تتداول بين السجناء."

– "ماذا؟"

– "يُقال إن ترامنيتز يتفاخر بمذكرات يكتبها في المستشفى، يسرد فيها تفاصيل كل جرائمه."

الفصل السابع

فريدر

– "فريدر؟"

جلس الجراح وراء مكتبه مندهشًا من الرقم المجهول على هاتفه الخاص. كان يهم بمغادرة المكتب الذي خصصوه له في مصحة شتاين كلينيك للتوجه إلى الطابق الأرضي حيث غرفة العمليات.

سمع فريدر صوتًا عميقًا ورخيمًا يقول:

– "أعتذر عن إزعاجك."

بدا الرجل واهنًا ومجهدًا، وكادت كلماته تضيع وسط ضجيج العاصفة الممطرة في الخارج. هنا في الطابق الأول من المستشفى، كان عواء الريح في قنوات التهوية يشبه أنين كلب خائف.

سأل فريدر بنفاد صبر:

– "من معي؟"

– "اسمي تيل بيركوف، أنا والد ماكس."

يا إلهي.

ابتلع فريدر ريقه وأومأ برأسه لا شعوريًا. الآن عرف هوية المتصل، ولأنه خمن ما يريده هذا الرجل المنكوب، بدأ قلبه يخفق بشدة وتصاعدت الحرارة في جسده.

– "كيف حصلت على رقمي؟"

– "بصفتي مسؤول إطفاء سابق، لا تزال لدي صلات جيدة بالسلطات."

فك فريدر الزر العلوي لقميصه الوردي، وهو لونه المفضل الذي يراه مناسبًا لبشرته السمراء بفعل جلسات التسمير.

قال:

– "اسمعني جيدًا، لا يُسمح لي بالتحدث معك عن مرضاي."

– "لا أريد الكلام، أريدك أن تفعل شيئًا من أجلي."

كان صوت المتصل يقطر غضبًا مكتومًا. فهم فريدر على الفور ما يعنيه بيركوف بعبارة "تفعل شيئًا". كان يمكنه ببساطة أن يقول: "تخلص من المشكلة" أو "ساعد العدالة قليلًا" أو "وفر على دافعي الضرائب ثروة".

سأل فريدر وهو يطفئ مصباح المكتب:

– "هل تسجل مكالمتنا؟" كان عليه المغادرة فعلًا للتحضير للعملية.

بصق بيركوف كلماته بغضب وجهه هذه المرة نحو فريدر:

– "ابني ليس مجرد قصة للنشر."

– "اعذرني، لم أقصد ذلك. كل ما في الأمر أنني..." تردد قليلًا: "لا يمكنني حتى التفكير فيما تطلبه مني."

رغم أنني أتفهمك تمامًا، فلو كنت مكانك لتمنيتُ ميتة شنيعة للرجل الذي اختطف ابني وقتله.

– "بل يمكنك."

– "لا." بدأت يدا فريدر ترتجفان: "أنا لا أقتل الناس، ولا أريد ذلك." قالها بصوت عالٍ كبيان واضح تحسبًا لو كان هناك تسجيل.

لكن الأب باغته بالرد:

– "ليس هذا ما أطلبه منك."

– "ماذا إذن؟"

سمع صوت شهيق، ثم استنشر بيركوف واعتذر باختصار قبل أن يقول:

– "أنا أطلب منك، بل أتوسل إليك: افعل كل ما في وسعك لتضمن نجاة غيدو ترامنيتز. يجب أن يخرج حيًا من العملية، هل تفهمني؟ هو الوحيد الذي يعرف ما حل بابني، ولا يجب أن يأخذ سره معه إلى القبر."

قال فريدر وقد تأثر بشدة:

– "حسنًا، سأفعل ما بوسعي."

لقد هزته مناشدة الأب غير المتوقعة والمنطقية في آن واحد. وعندما أغلق الخط، كانت أصابعه ترتجف لدرجة لم يعد معها خيار سوى فتح درج مكتبه وتناول جرعة واحدة. ليست بالكثير، مجرد كأس صغير ليهدئ أعصابه.

الفصل الثامن

تيل

– "مريض متخفٍ؟"

– "نعم."

– "ماذا تقصد؟"

– "أريدك أن تهربني إلى شتاين كلينيك."

– "لتصل إلى ترامنيتز؟"

– "بالضبط، بصفة نزيل في الجناح النفسي."

شعر تيل بالضيق من تحول المحادثة إلى استجواب، فأدار ظهره لسكانيا وحدق عبر النافذة. كانت الريح تتقاذف كيسًا بلاستيكيًا فوق الرصيف حتى علق بين أغصان شجرة صفصاف باكية مثل بقايا شراع ممزق. لم يكن هناك أثر لحياة في الخارج؛ لا طير ولا سنجاب، فقط هطول المطر المنهمر. ومع ذلك، تمنى تيل لو كان في الخارج تحت رحمة الطبيعة بدل الانتظار هنا في هذا الدفء اللعين الذي يفرضه العجز.

تنحنح صهره خلفه، وحتى هذا الصوت صار يستفزه. صرخ سكانيا:

– "هذه واحدة من أكثر الأفكار جنونًا التي سمعتها في حياتي! حتى لو كنت مستعدًا –وأنا لست كذلك– كيف تتخيل أنني سأدخلك إلى

هناك؟ (جزيرة الحمقى) ليست متنزهًا للتسلية يمكنك الدخول إليه متى شئت."

كان محقًا بالطبع. فمصحة شتاين كلينيك للطب النفسي الشرعي هي مؤسسة أمنية رفيعة المستوى في منطقة راينيكندورف. مجمع مبانٍ يقع على شبه جزيرة في بحيرة تيغيلير، وقد أطلق عليه البرلينيون هذا اللقب تهكمًا على منتجع (تروبيكال آيلاند) المائي. في الأصل، خطط مستثمر ثري لبناء فندق فخم هناك، ولكن بسبب تأخر إغلاق مطار المدينة، لم يكن هناك ضيف مستعد لدفع ٦٥٠ يورو لليلة لينام على أزيز المحركات. وحتى عبقرية المعماري الذي صمم المبنى على غرار البيت الأبيض بواجهته ذات الأعمدة الضخمة لم تنقذ المشروع.

اشترت شركة مستشفيات خاصة الموقع، واليوم لا يسكنه كبار الشخصيات أو الساسة، بل أخطر السيكوباتيين في ألمانيا. يضم النزلاء (رسام الدماء)، وهو رجل في الثانية والثلاثين يبدو كأستاذ جامعي رزين، لكن هوايته كانت رسم لوحات بحرية باستخدام سوائل أجساد ضحاياه الذين يجبرهم على المشاهدة وهم ينزفون حتى الموت.

وهكذا كان غيدو ترامنيتز في "أفضل" صحبة، مع مجرمين آخرين صُنفت حالتهم العقلية بأنهم غير مسؤولين عن أفعالهم، وبالتالي سيبقون محتجزين هنا للأبد.

أخذ تيل نفسًا عميقًا وقال:

— "لا أملك أدنى فكرة كيف ستحقق ذلك، لكن يجب أن أدخل إلى هناك.. إلى ترامنيتز."

— "لماذا؟ لتشبع قاتل ابنك ضربًا؟"

هز تيل رأسه:

– "أحتاج إلى اليقين يا أوليفر. لا يمكنني الاستمرار هكذا. أحتاج إلى شيء أتمسك به، شيء يجعلني أودعه. هل تفهم؟"

رأى الإجابة في عيني صهره. بالطبع كان يفهم، فسكانيا شرطي ويعرف أثر موت طفل على والديه؛ حياتهم تنتهي، أرواحهم وسعادتهم وكل ما يشكل كيانهم يتلاشى. ومع ذلك، كان لدى هؤلاء ميزة لا يملكها من يجهلون مصير أطفالهم، فصراعهم مع الموت لا ينتهي أبدًا.

قال تيل:

– "أشعر كأنني حصان كُسرت ساقاه في خندق."

– "وتظن أن مقابلة ترامنيتز ستكون بمثابة رصاصة الرحمة لك؟"

– "بالضبط. هو يرفض الكلام مع الشرطة أو القضاء. لذا يجب أن أذهب إليه. أريد أن أعرف أين خبأ جثة ماكس."

– "فكرة عظيمة! أنا متأكد أن ترامنيتز سيسعد كثيرًا بإخبارك."

هز تيل رأسه مجددًا:

– "قد لا أضطر للحديث معه إذا تمكنت من وضع يدي على مذكراته."

ضحك سكانيا بسخرية:

– "ما هذه السذاجة؟ تلك مجرد شائعة. وحتى لو وجدت، هل تظن أن ترامنيتز سيتركها ملقاة بانتظارك؟"

أدرك تيل منطقية كلام سكانيا، لكنه رفض قبول الحقيقة، وإلا سيضطر للاعتراف بأنه لا يملك خطة سوى شجاعة اليائس. قال بتحدٍ:

— "لا يمكن أن تكون هناك أماكن اختباء كثيرة في جناح عالي التأمين."

— "أصبت! قلتها بنفسك: عالي التأمين! ليس لدي أدنى فكرة كيف ستتحرك داخل مصحة المجانين، فضلًا عن التسلل إلى ترامنيتز. حتى لو حققت المستحيل، سيضعونك في القسم النفسي المغلق العادي، أما ترامنيتز فهو في المستوى الرابع من التأمين." رفع سكانيا يده وبدأ يعد على أصابعه: "هذا يعني: ماسح ضوئي للجسم عند البوابة، بصمات أصابع، فحص قزحية العين عند كل الأبواب، وسياج مزدوج في المنطقة الخارجية تراقبه طائرات مسيرة، تمامًا مثل جدار برلين القديم."

— "سأقلق بشأن كل هذا عندما أصبح في الداخل. سأجد وسيلة."

— "هراء! لا تتوقع مني مساعدتك في هذه المهمة الانتحارية."

— "لا؟" قالها تيل وهو يقبض على خصلة من شعره من جذورها.. وينتزعها.

سمع طنينًا في أذنيه وكأن فقاعات بلاستيكية قد انفجرت دفعة واحدة. اندفعت الدماء إلى وجهه أسرع من صرخة سكانيا:

— "ماذا تفعل بحق الجحيم؟"

— "أنا أجهز نفسي."

حاول تيل إسقاط الشعر الذي انتزعه، لكن يديه كانتا غارقتين في العرق. ثم قبض على خصلة أخرى من منتصف رأسه.

— "توقف، بحق السماء! لا!"

جذبها بقوة أكبر. كان الألم أهون عليه من منظر الدم الذي بدأ يقطر على الأرض.

– "هل فقدت عقلك أيها الأحمق؟"

رسم تيل ابتسامة قسرية:

– "أرأيت كيف أقنعتك بسرعة؟ ها؟"

– "ماذا تقصد؟"

أراه خصلة الشعر الملطخة بالدم في يده:

– "عندما أنتهي من شعري، سأشرب بعض المبيض من الحمام. وبينما أنتظر سيارة الإسعاف، سأجد وسيلة لخلع أسناني. ربما أجد الشجاعة لفقء إحدى عيني أيضًا."

– "أنت مجنون."

– "نعم، أنا خطر على نفسي." وأشار تيل إلى موضع مسدس سكانيا تحت معطفه: "وبمجرد أن أسرق سلاحك، سأكون خطرًا على الآخرين أيضًا. سترى، سأجد وسيلة للدخول. فما رأيك؟"

انتزع تيل خصلة أكبر.

شتم سكانيا بصراخ:

– "تبًا لك! حسنًا، توقف! سأرى ما يمكنني فعله، اتفقنا؟"

وقف سكانيا للحظات مذهولًا ومغلوبًا على أمره، ثم فعل ما يفعله دائمًا عندما يضيق ذرعًا: خرج مسرعًا من الغرفة وصفق الباب خلفه. انتظر تيل دقيقة واحدة، ثم انفجر في البكاء. بكاء ارتياح لأن صهره وافق على مساعدته، وبكاء ألم بدأ ينهش جسده بعد أن خمدت هرمونات التوتر، وبكاء خوف.

يا إلهي، أنا مرعوب.

لم يكن لدى تيل أدنى فكرة عما ينتظره إذا ما نجح سكانيا في تحقيق رغبته الأخيرة وإدخاله إلى شتاين كلينيك.

الفصل التاسع

باتريك وينتر

وقف الموت في غرفة المعيشة، على بعد مائة متر من روضة الأطفال ، وكان يتصبب عرقًا.

حدق باتريك وينتر عبر النافذة الممتدة من الأرض إلى السقف نحو حديقته المهملة التي تجاور روضة الأطفال، ولا يفصل بينهما سوى زقاق ضيق.

لو تجرأ أحد في الخارج على النظر للداخل، لرأى في الطابق الأرضي رجلًا في أوائل الأربعينيات يرتجف، وعلى وشك خسارة المعركة مع شياطينه الداخلية. شعره المجعد الطويل كان مبعثرًا، وذقنه البارزة محلوقة بشكل غير متساوٍ، وفي عينيه المتعبتين خوف بارد.

في الخارج، في شوارع حي روليبين الراقي، لم يكن ليلفت الأنظار، خاصة في هذا المساء الذي خرجت فيه شخصيات أكثر رعبًا للعبث. رغم تجاوز الساعة الثامنة، كان سكان هذا الحي البرجوازي عادة يشاهدون الأخبار أو يتناولون عشاءً عائليًا، ولا يخرجون للتنزه إلا بعد نوم الأطفال. إلا إذا كانت مناسبة خاصة تسمح للصغار بالسهر والتجول بزي السحرة والغيلان.

كان اليوم هو (الهالوين)، وحتى المطر البارد المنهمر لم يمنع الأطفال والمراهقين بزي مصاصي الدماء والهياكل العظمية من تزيين حدائق الجيران بورق المرحاض إذا لم يفتحوا الأبواب.

– "خدعة أم حلوى؟"

عض باتريك الجلد بين إبهامه وسبابته ليمنع نفسه من الصراخ. خلال نصف الساعة الماضية، رن جرس الباب أربع مرات. صبية بوجوه مشوهة بالأصباغ، فتيات بملابس الأشباح، وأطفال يحملون قرعًا مضيئًا.

في إحدى المرات، فتح باتريك الباب وأعطى طفلًا صغيرًا بزي هيكل عظمي لوح شوكولاتة، وهو كل ما كان يقتات عليه تقريبًا في الأيام الأخيرة. لم يكن الطفل، الذي لا يتجاوز الثامنة وكان والداه ينتظرانه في الشارع، يشبه جوناس، بالطبع لا. ومع ذلك، ذكرته تلك العينان الواسعتان المتسائلتان بابنه.

فكر باتريك في التلويح للطفل وهو يرحل، ربما كان ذلك ليغير كل شيء.

لو أنني لوحت له وابتسم هو.

لكنه اكتفى بمراقبته وهو يركض نحو والديه ويختفي معهما عند الزاوية، ليختفي تمامًا من حياته.

بعدها، تجاهل باتريك جرس الباب في منزله الفارغ. (فيلا المعماري) كما سماها وكيل العقارات له ولـليندا عندما كانت حاملاً في شهرها السادس بـجوناس. كان هذا هو سبب قدرتهم على شرائها؛ ففي لغة العقارات، (منزل المعماري) تعني غرابة التصميم التي تجعل البيع

صعبًا. كان التوزيع غريبًا بالفعل، بدءًا من غرفة المعيشة حيث ركب المالك السابق حوض (جاكوزي) سداسي الأضلاع في منتصف الغرفة. فكرة جريئة حتى للعزاب —من يستحم أمام التلفاز؟— لكنها خطيرة على الأطفال، لذا ملأه هو وليندا بالوسائد وحولاه إلى أريكة لـ"المغامرات والأحضان".

لم يملكوا المال للترميم وقتها، عندما كان العالم لا يزال بخير، وحياتهم لم تملأها الأوجاع. وهكذا بقي البلاط القبيح باللونين الأبيض والأسود في المطبخ كما هو. بخلاف ليندا، التي غادرت منذ زمن. وكان معها حق.

نظر باتريك وراء شجرة الكستناء التي ضربها البرق قبل صيفين، نحو الغرفة المضاءة في حضانة (فالدكاتير)، حيث بدأ اجتماع أولياء الأمور بالفعل. اليوم تحديدًا!

منذ ثلاثة أرباع الساعة، والبالغون يجلسون في دائرة على الكراسي الصغيرة المخصصة للأطفال من عمر سنتين إلى ست سنوات. أطفال بأسماء مثل ياسمين، إيغور، ألكسندر، وفريدا.

فريدتي.

على الأقل هي لا تزال حية.

لا بد أن باتريك هو الوحيد الغائب. البقية ممن لم يستطيعوا الحضور، مثل ليندا، سجلوا أسماءهم في قائمة الاعتذارات أو أرسلوا بريدًا إلكترونيًا. كان النظام يسود في روضة الأطفال؛ كل شيء يمضي كالمعتاد.

أتساءل إن كانوا يتوقعون حضوري بعد كل ما حدث؟ أعني، خمسون بالمئة من أطفالي لا يزالون يرتادون روضة الأطفال.

أما الخمسون بالمئة الأخرى، فكان يتعفن في مكان ما تحت الأرض.

مسح باتريك دموعه ونظر إلى المسدس في يده. كان راميًا رياضيًا يملك رخصة سلاح ويتدرب بانتظام. كان يعرف كيف يصوب المسدس ليضمن تفجير دماغه بشكل كامل. ولكن كلما طال نظره نحو روضة الأطفال، شعر أن استخدام المسدس أمر غير لائق. خطأ. جبن. شيء تافه جدًا.

ابتعد عن النافذة وعبر غرفة المعيشة نحو الردهة، حيث فتح باب القبو. رغم تحويل القبو إلى منطقة سكنية بسجاد مشرق وحمام ونوافذ، إلا أن رائحة العفن والرطوبة والكتب القديمة صدمت أنفه وهو ينزل السلالم.

سأفتقد هذه الرائحة أيضًا.

دخل غرفة الضيوف، حيث كان السرير مرتبًا وكأنه ينتظر زائرًا، لولا طبقة الغبار التي تفضح غياب أي لمسة تنظيف منذ أمد. مد يده تحت السرير وأخرج الحقيبة الرياضية التي كان يأخذها للنادي. في الأشهر الثلاثة الأخيرة (منذ ذلك اليوم المشؤوم)، لم يعد بحاجة للرياضة للحفاظ على وزنه، فقد هجرته الشهية تمامًا.

فتح الحقيبة وحدق في زجاجات بلاستيكية بلا ملصقات، كانت في السابق مملوءة بالمياه المعدنية، وصارت الآن تحوي سائلاً عنبري اللون. أربع زجاجات سعة ٧٥٠ مل. سرقها من عامل الصيانة في ناطحة

السحاب حيث يقع مقر عمله في شركة (زانتيا)، واحدة من أكبر شركات التأمين الصحي في ألمانيا.

لن أرى أي منظر قريباً.

— "فلنبدأ العرض." قال باتريك وهو يفتح الزجاجة الأولى.

حان وقت زي الهالوين السائل الخاص بي.

وضع المسدس في الحقيبة وأخرج الزجاجة الأولى. أغمض عينيه وهو يسكب المحتوى على رأسه وشعره، وفتحهما فقط ليفك سداد الزجاجة الثانية ويسكبها على جسده. لم يستطع منع الأبخرة من تهييج أنفه وحلقه، مما جعله يسعل بشدة، لكنه استمر بلا تردد.

رن جرس الباب في الأعلى.

— "خدعة أم حلوى؟"

وضع الزجاجات الفارغة على السجاد الذي تلطخ الآن، وانتظر حتى يمل الأطفال ويرحلوا. ثم صعد السلالم عائدًا لغرفة المعيشة، وفتح باب الحديقة ليخطو مبللاً تمامًا إلى هواء الخريف البارد والرطب.

كان المطر يهطل مجددًا، لكن قطراته القليلة لن تحبط خطته، فقد سكب الكثير من البنزين على جسده.

— "حسنًا إذن." قالها مشجعًا نفسه. وبعدما تأكد أن قداحته (زيبو) لا تزال في جيبه، توجه نحو روضة الأطفال خلف شجرة الكستناء.

الفصل العاشر

فريدر

– "هيا يا دكتور فريدر، اعترف!"

بدا غيدو ترامنيتز مبتهجًا بشكل مريب بالنسبة لمريض يستلقي على جنبه ويستعد لعملية في الشريان السباتي تحت التخدير الموضعي.

– "تتمنى لو تنزلق يدك بالصدفة، أليس كذلك؟"

حاول فريدر تجاهل ذلك الصوت المتغطرس والأنفي لقاتل النساء والأطفال، بينما كان يركز على الملقط الذهبي الصغير في يده. قام الدكتور هوبف، مساعده، بوضع شريط أزرق على الشريان السباتي الأيمن.

هنا، حيث يتفرع الشريان إلى أوعية الوجه والدماغ، يتسبب تدفق الدم المضطرب غالبًا في ترسبات الكالسيوم والدهون. كان هذا شائعًا لدى المتقاعدين، ولكن رغم أن ترامنيتز رياضي في الثامنة والعشرين، إلا أن الترسبات الصفراء والبرتقالية كانت تلوح خلف جدار الشريان الوردي الرقيق.

– "لماذا لا تعطي هذا الوغد ما يستحق هنا والآن؟ هذا ما تفكر فيه، صح؟"

لا، بل أفكر في تيل بيركوف وتوسله اليائس لأنقذك، أيها الحثالة.

ابتسم ترامنيتز. في عملية كهذه، لا يمكن استخدام التخدير العام، بل الموضعي فقط لمراقبة الوظائف العصبية للمريض باستمرار. ولسوء الحظ، كان هذا يعني أن فريدر لا يستطيع إسكات ذلك اللعين.

أمرت الدكتورة أندريا شيلف، طبيبة التخدير، المريض قائلة:

— "اضغط على يدي!"

كان ذلك لفحص وظائفه الحركية وتعبيرات وجهه كلما قام فريدر بتدخل جديد. كانت هناك ستارة خضراء تفصل بينها وبين الجراح، يتبادلان فوقها نظرات العين. كانت هي تراقب ترامنيتز من الجانب الأيسر، بينما فريدر يعمل على الجانب الأيمن. وبينما كان يضع الملقط الذهبي، بدأت أصابعه تحكه فعليًا لارتكاب "خطأ".

كان فريدر يعلم أن مثل هذه الأفكار غير أخلاقية، لكنه في النهاية بشر. وقبل اتصال بيركوف، تساءل فعلاً: ما السوء الذي قد يحدث لو "انزلقت يده"؟ لا أحد هنا سيبكي على هذا اللعين. بل على العكس، إذا نجحت العملية، فإن (وحش الحضّانة) سيبقى عبئًا ماليًا وقنبلة موقوتة لسنوات.

وبدا أن ترامنيتز يتعمد استفزازه.

— "انسَ قسم أبقراط[1]، وفكر في ما فعلته بأولئك الأطفال يا فريدر."

قاطعه طبيبة التخدير بحدة:

— "اصمت!"

لكن ترامنيتز لم يتوقف:

---

[1] قسم أبقراط *Hippocratic Oath* / نص أخلاقي عريق يُنسب إلى "أبقراط"، الطبيب اليوناني القديم المُلقب بـ "أبو الطب". يمثل ميثاق شرف مهني يُقسم عليه الأطباء حتى اليوم، متعهدين بحماية الأرواح، حفظ الأسرار، والالتزام بمبدأ "عدم الإضرار" بالمريض كأولوية قصوى.

– "كنت أحضر معي ملابس بديلة دائمًا، للصبيان والبنات. حقيبة في صندوق السيارة، بجميع المقاسات، لأنني أحب الاستعداد لكل الاحتمالات. بمجرد ركوبهم السيارة، كنت أغير ملابسهم كي لا يتعرف عليهم أحد بسهولة. ومعظمهم كان يغير ملابسه بنفسه، ظانين أنها لعبة." ضحك ترامنيتز بفتور: "توقفوا عن الظن أنها لعبة بمجرد دخولهم الحضّانة."

يا إلهي. إنه يتحدث وكأن هناك أكثر من ضحيتين. أكثر بكثير.

– "لقد بنيتُ الحضّانة بنفسي، كانت أفضل من تلك الصناديق الصغيرة. كان بإمكاني فعل كل شيء؛ أطعمهم، أغير حفاضاتهم.. يا للروعة. لقد كان حلمًا."

قال فريدر بصوت عالٍ:

– "سأقوم الآن بقطع إمداد الدم." معلنًا بداية العشرين دقيقة الأكثر حرجًا. الدماغ الآن يعتمد على هذه الدقائق. الدماغ المريض لسيكوباتي.

– "كان يمكن أن يستمر الأمر للأبد، لولا تلك العاهرة. الأم قامت بتحرياتها الخاصة، وكانت على وشك كشف خدعة عامل التوصيل. الأصوات أمرتني بقتلها."

الأصوات، بالطبع.

لم يستوعب فريدر كيف انطلت هذه الأكاذيب على الأطباء النفسيين والقضاة. ترامنيتز كان ممسوسًا، نعم، ولكن بشهوة القتل لا بأصوات وهمية. مكانه السجن، أو معسكر عمل في سيبيريا، لا مصحة نفسية توفر له كل الرعاية.

أطبق فريدر عينيه ثم فتحهما وبدأ باستخدام المشرط.

— "لو أنني تخلصت من جثتها بعناية أكبر، لما وصلوا إليّ أبدًا. حسنًا، لا بأس، الأخطاء تحدث، أليس كذلك؟"

نظر فريدر إلى هوبف، الذي هز رأسه محذرًا وكأنه يقول: "اهدأ، خذ وقتك. لا ترتكب أخطاء. هذا الحثالة لا يستحق."

لكن فريدر لم يتمكن من كبح جماح نفسه.

— "انظر إليّ. أنا أحاول إنقاذ حياتك في هذه اللحظة. لماذا لا تظهر ذرة من الإنسانية وتعترف بجرائمك لأولئك الآباء الذين سببت لهم كل هذا العذاب؟"

قال ترامنيتز:

— "هل أنا مخطئ، أم أنك تلمح لدمية لوك سكاي ووكر الخاصة بي؟"

— "إذا كنت تعرض غنائمك علنًا، فالأحرى بك أن تعترف بها."

ضحك ترامنيتز:

— "أي غنيمة؟ الشرطة لم تتوقف عن سؤالي عن تلك الدمية، فاشتريت واحدة لأرى شكلها فقط."

التقط فريدر نظرة أخرى من زميله، متبوعة بهزة رأس محذرة:

— "توقف. ليس هذا الوقت المناسب."

لكنه كان بحاجة لتفريغ غضبه:

— "حسنًا، الأمر لا يستحق. فقط أغلق فمك اللعين بينما نعمل."

ضحك ترامنيتز بصوت عالٍ، فتحركت رقبته مما جعل القطع الدقيق مستحيلاً.

– "وإلا ماذا؟ هل ستتلف عصب حنجرتي كما فعلت مع فلوريان برودر؟"

تجمد فريدر في مكانه. كيف عرف ترامنيتز بذلك؟ الاسم لم يذكر في الصحافة أبدًا.

بالطبع، كان يعمل في (فيرشو) عندما كنت هناك.

مصنع الشائعات في المستشفيات أسوأ من "فيسبوك".

– "عملية بسيطة في الغدة الدرقية، والآن يعاني برودر من شلل مزدوج ويعيش على جهاز تنفس اصطناعي لما تبقى من حياته. صحيح؟ وكل ذلك لأنك كنت مخمورًا في الليلة السابقة كالعادة."

همس هوبف:

– "لا تتشتت. لا يمكننا إسكاته يا فولكر."

لكن ترامنيتز سمع ذلك:

– "فولكر؟ ظننت أن الزملاء ينادونك بلقبك الشهير: (فودكا فريدر)." ضحك ترامنيتز: "لقد نلت هذا اللقب لأنك تحتاج دائمًا لجرعة لتتشجع. ماذا عن اليوم؟ هل تجرعت شيئًا من أجلي؟"

هس فريدر بغضب:

– "ستعرف قريبًا." ثم غرس المشرط في شريانه السباتي.

الفصل الحادي عشر

باتريك وينتر

كان الأمر فوق احتمال الكبار. جلس بعضهم وأفواههم فاغرة على كراسي الروضة الصغيرة، بينما أشاح آخرون بوجوههم بعيدًا في اجتماع أولياء الأمور هذا. حتى أن إحدى الأمهات، التي كانت ترتدي سترة صوفية مزركشة بالزهور وابنها إميل في "مجموعة الشمس المشرقة"، أغلقت أنفها بأصابعها.

لم يعد هو قادرًا على شم رائحة البنزين، لكن الشموع العطرية الموضوعة على الرفوف بجوار النوافذ الملونة لم تكن لتقوى على إخفاء تلك الرائحة النفاذة. لا بد أن باتريك تفوح منه رائحة محطة وقود بأكملها. أو أسوأ.

سألت فيكتوريا:

— "أرجوك، لِمَ لا تجلس؟"

كانت مديرة الروضة أول شخص ينبس ببنت شفة ويوجه له الحديث.

حتى تلك اللحظة، كان هو الوحيد الذي يتحدث. كالشلال، منذ أن أدخل الرمز السري لبوابة الروضة الذي يعرفه جميع الآباء.

قال عند دخوله الغرفة المشتركة التي كانت تُستخدم لمجموعات التمثيل والغناء وحيث يتناول الأطفال غداءهم معًا:

— "أنا آسف، أنا آسف."

اليوم، كان هناك متسع لحلقة نقاش تضم حوالي خمسة عشر شخصًا، جفلوا جميعًا عندما رأوه.

ضحك ضحكة مجنونة ومرر يده في شعره المبلل بالبنزين والمطر، وقال:

— "لم تتوقعوا شبحًا حقيقيًا، أليس كذلك؟ أعني، من يرغب في مواجهة شخص مثلي في الهالوين؟ ماذا؟ لا أريد أن أرى أي وجوه محرجة. في النهاية، أطفالكم لا يزالون على قيد الحياة."

كان قد أخرج ولاعة "زيبو" من جيب بنطاله، ورفع ذراعه الآن عاليًا مثل تمثال الحرية. لم ينهض أحد. لم يحرك أحد ساكنًا. باستثناء فيكتوريا، التي التقطت هاتفها المحمول، ربما للاتصال بالشرطة. لكن هذا كان يناسبه تمامًا.

قال وعيناه تلمعان:

— "أراهن أنكم جميعًا تمنيتم لو بقيتم في المنزل الليلة، أليس كذلك؟ أو لو أنكم استمعتم لأطفالكم الزنّانين الذين أرادوا ارتداء أزيائهم التنكرية. لكن كان على الماما والبابا الذهاب لاجتماع أولياء الأمور. ياله من تخطيط قذر!"

وجه نظره نحو سونيا، إحدى المعلمات، وتابع:

— "أعني، كيف ترتبون لهذا في 31 أكتوبر؟ إلى أي مدى يمكنكم أن تكونوا أغبياء؟"

نقر على جبينه المبتل.

– "لأن اليوم لا يتعلق بما إذا كان بإمكان العفاريت الصغار إحضار ألعابهم أو كم عدد الحلويات المسموح بها في صناديق غدائهم. اليوم يجب طرد أرواح الموتى الهائمة. مثل روح جوناس. ومثل روحي."

ابتلع بعض ريقه وسعل.

– "حظ عاثر أيها الآباء الأعزاء. لم تتنكروا. وأنا تجرأت على الدخول. أنا هنا الآن. دليل حي على حقيقة أن الشر موجود. وأن الأطفال يمكن أن يموتوا. ليس فقط على التلفزيون أو في الصحف. بل هنا في برلين، أمام أعيننا مباشرة."

في هذه النقطة، نظر معظمهم بعيدًا بالفعل. محرجين، مصدومين. ومذعورين للغاية. رجالاً ونساءً.

صرخ فيهم:

– "أنا آسف جدًا لاضطراري لتدمير هذا العالم المثالي لكم. انظروا إليّ!"

الزوجان المثليان مع الطفل بالتبني؛ الجدة التي تنوب عن الوالدين اللذين يعملان بجد في مجال العقارات ولم يتمكنا مرة أخرى من الحضور؛ وبالطبع "آباء الهليكوبتر" المثاليين الذين جاؤوا كزوجين لإظهار مدى أهمية نسلهم، وكلاهما يضع مفكرة على فخذه وكأنهما في المدرسة، يستمعان لشيء بالغ الأهمية يجب تدوينه.

– "حسنًا إذن، لماذا لا تكتبون هذا جميعًا بحروف كبيرة: لقد كنتم جميعًا محظوظين للغاية!"

صرخ باتريك فيهم، وتطاير اللعاب من زوايا فمه. ثم قال ويده اليمنى القابضة على الولاعة ما زالت مرفوعة:

– "ما حدث لي كان يمكن بسهولة أن يحدث لكم. هل تظنون أنكم معصومون؟ لا. لستم كذلك. ولهذا السبب لا أرى..."

قاطعته فيكتوريا بصوتها الناعم الذي أخرجه عن مساره:

– "سيد وينتر؟"

التفت إلى المعلمة البالغة من العمر اثنين وستين عامًا، والتي كانت ترتدي فستانًا برتقاليًا مصبوغًا كعادتها. وبسبب الطقس، استبدلت حذاء الباليه الخفيف بحذاء مطاطي طويل هذا المساء.

سألت وهي تشير إلى مقعد خالٍ:

– "ألا ترغب في الجلوس؟"

– "لا، لا، أنا فقط أريد..."

تلعثم عندما قدمت له الهاتف المحمول. هل تريد منه التحدث إلى الشرطة؟

قالت فيكتوريا:

– "زوجتك على الهاتف."

اضطر باتريك للاعتراف بأنها امرأة ذكية. لطالما كان يُكنّ تقديرًا عاليًا لهذه المعلمة التي اقتربت من التقاعد وبخبرتها الطويلة وضعت عشرات الأجيال على الطريق الصحيح. الاتصال بـ ليندا كانت مناورة لم يتوقعها.

كم هي ذكية.

وكم هي متفهمة.

أخذ الهاتف وحاول ابتلاع الغصة في حلقه.

– "ليندا؟"

– "ما الخطب يا حبيبي؟"

حبيبي.

متى نادته بهذا آخر مرة؟ كانت تفعل ذلك ثلاث مرات يوميًا. في الصباح، وبعد الظهر، وفي المساء. على الأقل. ولكن عندما انتُزِع ابنه من حياتهما معًا، انتُزعت الكلمات والعبارات المحبة أيضًا.

– "لا أستطيع التحدث حقًا في الوقت الحالي يا حبيبتي. لقد كتبت كل شيء. الرسالة في البريد."

– "أنا لا أفهم. ماذا تفعل؟"

– "أنا في اجتماع أولياء الأمور."

– "أعرف ذلك. لكن ماذا تنوي أن تفعل؟ إنهم يقولون، حسنًا، فيكتوريا تقول إنك... لن ترتكب أي حماقة، أليس كذلك؟"

هز رأسه دون أن يرفع عينيه عن الجمع المحتشد. من بين كل الحمقى هنا، كان تاجر السيارات مفتول العضلات ذو القرط السخيف هو الأرجح ليلعب دور البطل ويهوي بكرسي على رأسه.

– "لقد ارتكبت بالفعل أكبر حماقة في حياتي عندما..."

قاطعته ليندا، وكانت تبكي الآن هي الأخرى:

– "لا جدوى من ذلك. حبيبي، جلد ذاتك لن يعيد طفلنا."

– "هذا صحيح. لكنك لن تعودي أيضًا، مهما فعلت، أليس كذلك؟ لقد فقدت عائلتي بأكملها."

– "حبيبي..."

– "مكاني في الجحيم."

– "لا، انتظر. أرجوك. مهما كان ما تخطط له، لا تفعله!"

– "يجب أن أحترق يا ليندا، أرجوكِ تفهمي. وليس أنا فقط. أريد من جميع الآباء هنا أن يعرفوا كيف يكون الشعور بالاحتراق في الجحيم."

لهذا السبب أنا هنا.

بهذه الكلمات أنهى المكالمة، وأشعل اللهب وقرّب الولاعة من رأسه.

بعد جزء من الثانية، وعندما بدا أن مجموعة الآباء بأكملها تصرخ في رعب بصوت واحد، كانت النيران قد اشتعلت في شعره.

الفصل الثاني عشر

تيل

في الساعة 8:45 مساءً، انطلقت سيارة إسعاف كالطلقة عبر الأسفلت المبلل، وبأضوائها الزرقاء وصافراتها شقت طريقها عبر الطريق السريع بالمدينة. بين الحين والآخر كانت المركبة تضطر للكبح بقوة، وكان السائق يطلق بوقه بحماس بل وانزلق حول منعطف، لكنه استعاد السيطرة قبل أن يسرع بأقصى سرعة عبر البرك ومقاطع الطريق المغمورة بالمياه.

ازداد المطر غزارة باطراد. وكذلك ازداد قلق الراكب الوحيد في منطقة المرضى.

بعد قيادة استمرت عشر دقائق، أبطأت سيارة الإسعاف. كانت تتمايل برفق، وكأنها تسير على طريق غير معبد. ثم طقطق الحصى الخشن تحت الإطارات. أخيرًا توقفت المركبة وصمتت الصافرات. لفترة وجيزة، حوالي ثلاثين ثانية فقط، استغرقها الرجل البدين ليخرج من سطح موقف للسيارات ويصعد إلى سيارة الإسعاف.

ثم انطلقوا مسرعين مرة أخرى.

سأل سكانيا، بعد أن حدق طويلاً في تيل بمزيج من الإعجاب والاشمئزاز:

— "إذن، أنت تريد حقًا المضي قدمًا في هذا؟"

بسبب حجمه، اضطر لحني رأسه قليلاً. وبيده المشعرة تمسك بقوة بحافة النقالة التي كان تيل مقيدًا إليها. للمظهر فقط بالطبع. كان يجب أن يبدو كل شيء حقيقيًا لحظة وصولهم.

سأل تيل:

– "هل لديك ملف عن الرجل؟"

أومأ صهره برأسه. كانت بدلة سكانيا مبللة تمامًا. لا بد أن الشرطي انتظر طويلاً خارج سيارة الإسعاف دون حماية كافية من المطر. سحب ملفًا ورقيًا بنيًا من سترته وفتحه.

– "اسمك الجديد هو باتريك وينتر؛ تبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا وتعمل في زانتيا."

– "شركة التأمين الصحي؟"

– "بالضبط. كنت تعمل كخبير اكتواري في المقر الرئيسي بساحة بوتسدام."

– "ماذا بحق الجحيم هو الخبير الاكتواري؟"

– "عالم رياضيات تأميني. يحسبون الأقساط، ويجمعون توقعات المخاطر، وهذا النوع من الأمور."

– "أنت تمزح."

– "لماذا تبدو مصدومًا هكذا؟"

– "هل تقول إنه يجب عليّ تقمص شخصية عبقري رياضيات؟ أوليفر، لقد كنت رجلاً قويًا في خدمة الإطفاء، هل نسيت ذلك؟ إنها الوظيفة الوحيدة التي تمكنت من الحصول عليها بدرجاتي. بالكاد

اجتزت المدرسة ولم أحصل أبدًا على أفضل من (مقبول) في الرياضيات."

— "من قال إن وينتر كان عبقريًا في الرياضيات؟"

قال تيل:

— "أي شخص يستطيع العد هو عبقري في نظري."

قال أوليفر:

— "علاوة على ذلك، هل لي أن أذكرك بأن هذه الفكرة المجنونة برمتها كانت فكرتك في المقام الأول؟ لا أستطيع طلب الهوية التي تريد تقمصها من موقع (إيباي). ولكن مهلاً، ليس لدي مشكلة إذا أردت إلغاء الأمر برمته هنا والآن."

قال تيل مسرعًا ليقطع عليه الطريق:

— "لا، لا، الأمر بخير."

لقد خاضا النقاش ذاته كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية.

— "أعني، لن يجبروني على القيام بحسابات ذهنية هناك، أليس كذلك؟ وحتى لو فعلوا، لقد تعلمت كيف أخرج من أي مأزق تقريبًا بالكلام المنمق. بالمناسبة، ماذا فعل باتريك وينتر ليُرسل إلى مستشفى شتاين؟"

أجاب سكانيا:

— "سكب البنزين على نفسه في اجتماع أولياء أمور بروضة أطفال، ثم أشعل النار في نفسه."

— "لماذا بحق السماء؟"

نظر سكانيا إلى تيل وكأنه لم يسمع سؤالاً بهذا الغباء في حياته.

– "لماذا أعاني من ارتفاع ضغط الدم وأختي من خمول الغدة الدرقية؟ كيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟ باتريك وينتر مريض، سئم من الحياة. ربما كان يتعاطى مضادات الاكتئاب منذ أيام دراسته الجامعية."

نقر سكانيا بأصابعه السمينة على الملف وكأنه يقول: «كل شيء هنا».

– "على أية حال، إنها ضربة حظ أنك (مشطت) نفسك بقبضتيك."

قال ذلك وهو يشير إلى ضمادة رأس تيل.

بعد قيامه بتشويه نفسه، حلق تيل شعره بالكامل وفرك مرهم يود لزجًا في الجروح. رب ضارة نافعة. إذا أزال شخص ما الضمادة عن رأسه (وهذا سيحدث قريبًا جدًا) سيبدو الأمر حقيقيًا إلى حد ما وتفوح منه رائحة العلاج.

سأل تيل عن باتريك وينتر:

– "متزوج؟ أطفال؟"

– "نعم، مرتين. زوجته الحالية تدعى ليندا ولديهما ابنة، فريدا، خمس سنوات."

أصغر بسنة واحدة من ماكس.

قال تيل:

– "إذن أين وينتر الآن؟"

– "في ثلاجة."

رفع تيل رأسه ورفع حاجبيه، بينما أغلق سكانيا الملف مرة أخرى.

– "مات بعد أقل من ساعتين من حروقه التي أحدثها بنفسه. مباشرة بعد أن وافق قاضٍ على إيداعه في مستشفى شتاين لأن الرجل كان يشكل خطرًا واضحًا، ليس فقط على نفسه بل على العامة أيضًا."

أراح تيل رأسه مرة أخرى. إذن لهذا السبب حدث كل شيء بهذه السرعة. ما إن أغلق سكانيا الهاتف حتى توقفت سيارة الإسعاف الموعودة خارج منزله.

قال تيل:

– "لن تكون هناك فرصة أخرى كهذه، أليس كذلك؟"

تمتم سكانيا وهو يقوم بإيماءة رافضة وكأنه يقول «افعل ما بدا لك»:

– "ربما ليست فرصة، بل مجرد جنون."

صمت تيل لبرهة، ثم طرح السؤال المحرم:

– "كيف رتبت لي الحصول على هوية وينتر؟"

لوى سكانيا فمه وكأنه قضم ليمونة لتوّه.

– "هل تعتقد بجدية أنني سأفشي لك أسرار عمل تحقيقاتنا السرية؟"

ضحك بمرارة.

– "لقد خرقت حوالي عشرين قانونًا وضعف هذا العدد من اللوائح من خلال استغلال نفوذي لتمزيق شهادة وفاة باتريك وينتر، واستبدال صورته بصورتك في الملف، وجعل هذين المسعفين في المقدمة ينقلانك إلى مستشفى شتاين. الرواية الرسمية هي أنه، بمعجزة ما، نجا وينتر بمجرد حرق في فروة رأسه لأن طاقم الروضة كان لديهم سرعة

البديهة للإمساك بطفاية الحريق ومنع الأسوأ. في الحقيقة كانت جمجمته تبدو مثل خوخة مجففة. وجمجمتي ستبدو أسوأ إذا انكشف أي من هذا. ولا أريدك أن تورط أيًا من زملائي إذا بدأت في الثرثرة."

تقبل تيل هذه الإجابة بـ «همم» مقتضبة.

سأل سكانيا بينما توقفوا والمحرك يعمل، ربما عند إشارة ضوئية:

– "هل رتبت كل تلك الأشياء في المستشفى كما طلبت منك؟"

من نقالته، لم يكن تيل يستطيع سوى النظر عبر نافذة جانبية ضيقة، وحتى نصف تلك النافذة كان مغطى بشريط لاصق. عبر الزجاج المبلل استطاع تمييز عمود إنارة منحني وقمة شجرة تعصف بها الرياح بجانب الطريق.

– "لقد فعلت كل ما بوسعي في الوقت القليل المتاح."

كان سكانيا ينظر عبر النافذة الآن أيضًا.

– "لقد اقتربنا."

ثم التفت إلى تيل على النقالة وقال:

– "سأسألك للمرة الأخيرة. هل أنت متأكد من هذا؟"

بما أن تيل قد أعطى بالفعل إجابة شاملة على هذا السؤال خلال نقاشهم الأخير، اكتفى بإيماءة مقتضبة.

نعم. يجب أن أدخل هناك. إلى ترامنيتز. أحتاج إلى اليقين.

رغم أن صهره لم يكن يتوقع تغييرًا في الرأي بوضوح، إلا أنه بهزة غاضبة من رأسه أوضح تمامًا رأيه في هذه المهمة.

بدأ الشرطي أخيرًا موجزه:

– "حسنًا، جيد. الآن استمع جيدًا. ما تمكنا من تنظيمه لك هناك ليس كثيرًا، لكنه أفضل من لا شيء. عند الدخول إلى المستشفى شديد الحراسة، ستؤخذ منك جميع أغراضك الشخصية. ستُعطى بدلة رياضية حتى يتم تفتيش ملابسك بدقة. من الواضح أنهم سيأخذون هاتفك المحمول فورًا، بالإضافة إلى أي أدوات حادة، والحزام، وأشياء أخرى كثيرة. لذا لا يمكنك أخذ ملف وينتر معك أيضًا. لكن إذا سار كل شيء وفق الخطة، سيكون لديك جهة اتصال."

– "من؟"

زم سكانيا شفتيه، وهو الذي يكره المقاطعة.

– "اسمها سيدا. يكفي أن تعرف اسمها. الآن، هذا مهم. إنها ليست صديقة، وليست حتى شخصًا موثوقًا به. لا نعرف مدى جدارتها بالثقة، نعرف فقط أنها ستفعل أي شيء تقريبًا من أجل المال."

– "ما هي وظيفتها هناك؟"

قال سكانيا بنفاد صبر:

– "تقود الحافلة."

– "أي نوع من الحافلات؟"

– "ستعرف قريبًا بما يكفي."

تحقق سكانيا من ساعته.

– "دعنا لا نضيع الوقت في التفاهات. الأهم بكثير هو كيف يمكنك الاتصال بنا في حالة الطوارئ."

– "كيف؟"

– "عبر هاتف محمول. إنه في المكتبة. خزانة الكتب الثالثة، الرف الثاني. هناك مجلد ضخم مخبأ خلف الأناجيل مباشرة. رواية (يوليسيس) لجيمس جويس. الكتاب القديم ضخم وجاف لدرجة أنه لم يستعره أي من النزلاء أبدًا. حتى لو اكتشفه شخص ما بالصدفة، فإنه يبدو للوهلة الأولى ككتاب عادي تمامًا. لكن في الواقع تم تفريغه بعد الصفحة الرابعة والثمانين. في التجويف ستجد هاتف نوكيا صغيرًا. يمكنك استخدامه لإرسال الرسائل وإجراء المكالمات، لكن ليس للاتصال بالإنترنت."

قال تيل:

– "بالتأكيد."

أي شيء آخر سيستهلك الكثير من البطارية، ومن الصعب شحن الهاتف طوال الوقت.

سأل سكانيا:

– "ماذا عن الأرقام؟"

– "جهة اتصالي محفوظة. الاتصال السريع رقم واحد هو مكتبي، اثنان هاتفي المحمول الخاص. يمكنك الوصول إلى هارتز على الرقم ثلاثة."

كان هارتز محامي تيل وكاتبه القانوني. كان قد جعله يوثق بيانًا مشفوعًا بيمين بأنه في كامل قواه العقلية وأنه يدخل المستشفى فقط تحت ذريعة. بجانب سكانيا، كان الكاتب القانوني هو الشخص الوحيد الذي يعرف رسميًا بهذا الأمر وكان ملزمًا بالسرية بموجب امتياز

المحامي والموكل. لم يخبر تيل حتى ريكاردا، رغم أنه كره فكرة أن تقلق زوجته عليه عندما يختفي من على وجه الأرض.

– "إذا كانت هناك أي مشاكل، كل ما عليك فعله هو الاتصال بي وترك الهاتف يرن ثلاث مرات. عندها سأحاول إخراجك من هناك."

قال تيل لصهره:

– "تحاول؟"

– "هذا ما أردته يا تيل. أردت أن تُقبل كنزيل في هذا المستشفى شديد الحراسة. لذا أرجوك استمع إلي حتى النهاية. في اللحظة التي تخطو فيها عبر ذلك الباب، لن يكون لديك أي حيل في جعبتك لمساعدتك. وبالطبع لا يوجد أطباء مشاركون في الأمر. ولا حتى سيدا تعرف ما يجري. لو ناقشت هذا مع أي من الموظفين الرسميين في المستشفى، لكنت أنا المقيد إلى هذه النقالة ولكنت أنا من سيحبسونه. لن يوافق أحد على مثل هذه المهمة المجنونة – لا سلطة شرطة، ولا طبيب."

– "أنا..."

– "اصمت، لم أنته من محاضرتي بعد. أريد وأحتاج أن أخبرك بهذا للمرة الأخيرة. إذا حدث لك أي شيء، في زنزانتك، في الفناء، في الحمام، أو حتى في غرفة العلاج، فلن يتمكن أحد هناك من مساعدتك. بالنسبة للأطباء والممرضات، أنت مريض نفسي طبيعي تمامًا. وسيستغرق الأمر مني وقتًا لإخراجك من هناك أيضًا. هل تفهم؟ لا أستطيع ببساطة الاتصال بمستشفى شتاين وأقول: (كذبة أبريل، عزيزي البروفيسور سينغر. هل تعرف باتريك وينتر في الغرفة 211؟ إنه يتظاهر

فقط. إنه رجل إطفاء، وليس عالم رياضيات. يرجى إخراجه بأسرع ما يمكن)."

توقف سكانيا بينما تباطأت سيارة الإسعاف. كان هناك تعاطف في عينيه الآن.

– "ولكن مهلاً، أقسم أنني سأقلب الدنيا رأسًا على عقب إذا قمت بإجراء مكالمة طوارئ."

شكره تيل وقال:

– "كيف أدخل إلى المكتبة؟ لا أتخيل أن الجميع سيكون لديهم حق الوصول."

– "هذه مجرد واحدة من ألف مشكلة سيتعين عليك التعامل معها بمفردك. ما يجب أن تتساءل عنه هو كيف تُنقل إلى جناح ترامنيتز وتكسب ثقته. وكيف تضبط نفسك حتى لا تحطم وجهه عندما تقابله لأول مرة."

توقفت سيارة الإسعاف وطرق السائق على الحاجز الفاصل.

قال سكانيا:

– "يجب أن أنزل. لن آتي على العبّارة."

ابتلع تيل ريقه بتوتر.

– "ماذا تعني بالعبّارة؟"

ظننت أن المستشفى يمكن الوصول إليه عن طريق البر.

– "الطريق مغمور بالمياه. المطر يزداد سوءًا ولديهم بالفعل مشكلة حادة مع الفيضانات في الجزيرة. لهذا السبب وحده لا ينبغي أن تقضي وقتًا طويلاً هناك."

فرك سكانيا ذراع تيل بتعاطف.

— "اسمع يا صاح. أعلم أنه ليس من حقي قول هذا وأنا معجب حقًا بشجاعتك. لكن هل تعتقد أن الأمر يستحق كل هذا العناء؟ كل هذه المخاطر والمجازفة؟"

ابتلع تيل ريقه بصعوبة. بالكاد تعرف على صوته عندما قال:

— "لقد فقدت بالفعل أهم شيء في حياتي. ما الذي يمكن أن يحدث لي أكثر من ذلك؟"

نقر المطر على سطح سيارة الإسعاف مثل الحصى، ولم يقل سكانيا شيئًا حتى حثته طرقة أخرى على الإسراع. هذه المرة جاءت من الباب الخارجي. كان على وشك الاستدارة، لكنه توقف ليخرج حبة بيضاء من جيب بنطاله الجينز الصغير.

— "خذ."

— "ماذا يفترض بي أن أفعل بهذه؟"

— "ستجعلك تغيب عن الوعي. في الوقت الحالي أعتقد أنك هادئ وعقلاني أكثر من اللازم. تمثيليتك المجنونة ستبدو أكثر مصداقية إذا وصلت تحت التخدير. على أي حال يا تيل، رسميًا لا تزال لديك حروق طفيفة في فروة رأسك."

صححه وهو يتحسس رأسه:

— "باتريك. من هذه اللحظة اسمي باتريك وينتر. وشكرًا، لكن لا شكرًا. لا أحتاج لقرص دواء. لدي خطة أفضل بكثير لترك انطباع أول لا يُنسى عند وصولي."

الفصل الثالث عشر

ريكاردا بيركوف

كانت ريكاردا بيركوف يائسة لدرجة أنها لم تبالِ برائحة زيت القلي الرخيص التي بدت وكأنها تغلغلت في كل مسام جسدها.

قبل عام، كانت لتبتسم بسخرية من تلك الأرواح الساذجة التي يخدعها المحتالون المشبوهون.

أنتِ الملامة إن كنتِ بهذا الغباء.

والآن كانت تجلس مع عراف.

أو، لتوخي الدقة، كانت تقف معه. لأن غيديون شولتز لم يكن لديه طاولات ولا كراسي في «عيادته»، ويرجع ذلك أساسًا إلى أنه كان يعقد جلسات تحضير الأرواح في مخزن سلسلة الوجبات السريعة حيث يعمل.

قال غيديون مكررًا ما أخبرها به بالفعل على الهاتف:

— "أنا لا أفعل هذا حقًا بعد الآن."

بدا أصغر مما يوحي صوته. مراهق ببثور حمراء وسط الزغب فوق شفته. باستثناء أنه قد تجاوز سن البلوغ قبل عشرين عامًا.

— "لم يجلب لي الأمر سوى المتاعب."

خلع غيديون القبعة الكرتونية السخيفة التي كان على كل موظف في عملاق الوجبات السريعة ارتداؤها. كان مقال في صحيفة قد دل ريكاردا

عليه: «ماك ميستري»، عامل شباك البطاطس، الذي يزعم امتلاكه قوى نفسية يستخدمها في وقت فراغه لمساعدة الأقارب على الاتصال بالمفقودين.

وسواء كان ذلك بالصدفة أم لا، فقد ساعد الشرطة بالفعل في العثور على فتاة مفقودة.

كوم غيديون صندوقًا من البرغر فوق آخر ودعا ريكاردا للجلوس، لكنها رفضت.

– "آسف لعدم تمكني من تقديم أي شيء آخر لك."

لفترة من الوقت، استمتعت سلسلة الوجبات السريعة بالدعاية المجانية وخصصوا جزءًا من غرفة الموظفين لـ «عيادة» غيديون. ولكن عندما بدأ الكثير من المهووسين يظهرون عند نافذة طلبات السيارات، سائلين عن أرقام اليانصيب الفائزة التالية أو نبوءات أخرى، قالوا إنه يجب عليه مقابلة عملائه في المخزن، وفي حالات استثنائية فقط.

– "هل أحضرتِ ما طلبت منك إحضاره؟"

ناولته صورة لماكس. واحدة لم تجد طريقها إلى الصحافة وكان لا بد أن ابنها قد لمسها بنفسه. أزالت ريكاردا الصورة من اللوحة التي صنعها ماكس في الصف الأول لمهرجان الحصاد. واحدة من الصور القليلة التي أظهرت الطفل كثير التفكير وهو يبتسم.

قال غيديون وهو يتفحص الصورة التي لا تزال تحمل بقايا صمغ على ظهرها:

– "أنتِ لم تفقدي ابنك فقط."

– "ماذا تعني؟"

– "زوجك أيضًا، أليس كذلك؟ لم يعد بجانبك."

– "كيف..." عضت شفتها. "عذرًا. أفترض أن الأمر مثل السحرة. لن تخبرني كيف تفعل ذلك، أليس كذلك؟"

ابتسم غيديون ابتسامة خجولة. كان صوته خافتًا لدرجة أن ريكاردا اضطرت للتركيز بشدة لتمييز كلماته وسط ضجيج المطر المتواصل على السقف الصفيحي للمخزن.

– "بلى، سأخبرك. ولا علاقة للأمر بالسحر."

قال مشيرًا إلى يديها:

– "لم تعودي ترتدين خاتم زفافك. الأثر على إصبعك يخبرني أنك خلعتِه منذ وقت ليس ببعيد."

قالت ريكاردا:

– "أوه. ماذا ترى أيضًا؟"

– "توقفتِ عن الرضاعة الطبيعية مؤخرًا."

– "جسدي يخبرك بذلك؟"

عقدت ريكاردا ذراعيها أمام صدرها وكأنها تستطيع بطريقة ما تغيير انطباعه بأثر رجعي.

– "في الواقع، حمالة صدرك. إنها فضفاضة جدًا حاليًا لأنك بين مقاسين."

أومأت ريكاردا برأسها. كانت معتادة على أن يتم تفحصها بدقة وقضت وقتًا طويلاً تتساءل عما سترتديه لهذه المناسبة، رغم أنه في وضعها لم يكن هناك شيء أقل أهمية من مظهرها الخارجي. لكن لسوء الحظ، كان مظهرها الخارجي هو بالضبط ما ركز عليه العامة.

● تبدو أنيقة وممتلئة. ألا ينبغي أن تبدو أكثر توترًا بسبب اختفاء ابنها؟

● تبدو هزيلة، مرهقة حقًا. لا يوجد حب أمومة في وجهها.

● انظروا، ذلك الفستان الذي ترتديه بسيط، لكنه جديد. كيف لها أن تملك راحة البال لتذهب للتسوق في وقت كهذا؟

● لماذا ترتدي ملابس قديمة هكذا؟ تبدو مهملة. ربما طفل ينشأ في منزل كهذا هرب ببساطة.

مهما ارتدت ريكاردا، واجهت النقد. بالطبع كان بإمكانها تجاهل رأي الجماهير، لكنهم كانوا هم من يجب أن يبقوا عيونهم وآذانهم مفتوحة بحثًا عن ماكس الصغير، خاصة الآن حيث لم يعد أحد يبحث تقريبًا.

خاصة الآن.

وهكذا كانت متأكدة من أن الزي الذي ارتدته اليوم (جينز واسع، حذاء شتوي، بلا مكياج عدا أحمر شفاه عديم اللون، وشعرها الكثيف في ضفيرة) سيقابل بالاستهجان.

قال غيديون:

— "أستطيع أن أرى أنك غارقة تمامًا في الوضع الذي أنت فيه."

قالت بمرارة:

— "سيكون غريبًا جدًا لو لم أكن كذلك."

— "لكنني أستطيع أن أرى أنك متوترة ليس فقط لأنك لا تثقين بي. بل أيضًا لأن لديك خيارًا يجب اتخاذه."

— "ماذا؟"

– "عليك اتخاذ قرار."

– "أي قرار؟"

– "بشأن ما إذا كان ينبغي لنا الاستمرار في إضاعة وقتنا هنا أو ما إذا كان من الأفضل المغادرة فورًا، من نفس الباب الذي دخلنا منه."

حدقت ريكاردا في غيديون ولاحظت أن لديه حولاً بسيطًا في عينيه.

– "لا أفهم."

– "لدينا مخرجان هنا. الباب الخلفي يأخذك إلى المطبخ الكبير."

أشار إلى باب رخيص من الخشب الحبيبي المغلف في الطرف الآخر من المخزن. بجانبه وقفت وحدات رفوف فولاذية مليئة بدلاء بيضاء بدت وكأنها مليئة بالمواد الكيميائية، وربما كان المايونيز الذي تحتويه يمكن تصنيفه كذلك.

– "سآخذ ذلك الباب. ليس المصراع الدوار المؤدي لموقف السيارات."

– "لماذا يجب أن أغادر الآن؟ أنت لم تخبرني بأي شيء بعد."

– "بلى، لقد فعلت. لقد تعلمت الكثير بالفعل وأعتقد أنه من الأفضل أن ننهي الجلسة الآن."

أصدرت ريكاردا صوتًا مرتبكًا يشبه السعال أكثر من أي شيء آخر. كانت تتوقع أن يأخذ الاجتماع مسارًا غريبًا، لكن ليس هذا.

– "لماذا؟"

– "لأنني أشعر أنك لست صادقة."

– "بماذا تشعر؟"

مرر يده على وجهه، مبعدًا خصلة شعر لم تكن موجودة، وقال:

– "الآن سنتحدث عن أشياء لا يمكنني سوى الشعور بها بدلاً من شرحها."

– "وما الذي تشعر به، إذا جاز لي السؤال؟"

– "أنك لم تأت وحدك. أن شخصًا آخر ينتظر في الخارج."

– "من؟"

– "شخص يدين لك بالمال."

ضحكت بذهول.

– "لو كنت أعرف أي شخص يدين لي بالمال لكنت استرددته منذ زمن بعيد، صدقني."

أومأ برأسه.

– "نعم، انفصال كهذا يكلف ثروة. شقة جديدة، ملابس جديدة."

شعرت بوجهها يحمر. كان تيل يداعبها دائمًا بهذا الشأن ويقول إنه يمكن قراءة المشاعر من وجهها مثل الترجمة في فيلم.

قال غيديون:

– "حتى لو حصلت على نفقة، الانتقال يمكن أن يكون مكلفًا حقًا. وإذا لم أكن مخطئًا، وسائل الإعلام تدفع بسخاء مقابل الحصريات. خاصة لقصة على غرار «أم يائسة تستشير عرافًا»."

– "طفلي اختفى، أيها الوغد!"

زلت الكلمات من فم ريكاردا وانتزعت الصورة من يده.

– "أيها الأحمق اللعين."

قالتها لنفسها أكثر مما قالتها للمشعوذ، وهي تحاول بصعوبة فتح حقيبة يدها.

– "تأتي هنا لرؤية معتوه وهو فقط يهينك ويذلك."

أخيرًا حشرت الصورة في جيب معطفها وكانت على وشك المغادرة. في المصراع الدوار الذي دخلت منه كان هناك باب، وفي خضم اضطراب اللحظة واجهت صعوبة في معرفة كيفية فتحه بقدر ما واجهت مع حقيبتها. أخذت نفسًا عميقًا، ثم قالت:

– "كيف تجرؤ على قول شيء كهذا في وجهي؟"

قال غيديون ببرود:

– "لا أحب أن يتم استغلالي."

– "ما الذي يعطيك الحق في الدوس بازدراء هكذا على مشاعر أم؟"

أخيرًا تذكرت أن غيديون كان قد سحب المقبض لأعلى ليفتح الباب في وقت سابق. لكن مهما حاولت، لم يتحرك سنتيمترًا واحدًا.

– "هل حبستني؟"

استدارت بسرعة.

بينما كانت ريكاردا تزداد غضبًا، بدا غيديون يزداد هدوءًا. وقف ومنحها نفس النظرة الودودة كما عند لقائهما.

– "لا تقلقي، سأدعك تذهبين بعد دقيقة. بمجرد أن تهدئي وتستمعي لاعتذاري."

– "اعتذار؟"

كان الأمر برمته يزداد غرابة.

قال غيديون مكملاً تحوله المفاجئ:

– "نعم، أنا آسف. لكن كان علي فعل ذلك."

– "كان عليك فعل ماذا؟"

– "كنت بحاجة لرؤية مشاعرك الحقيقية، عواطفك الصادقة. كان عليك التخلص من القناع الذي دخلت به."

هل هو بخير في عقله؟

– "أنا لا أرتدي قناعًا."

– "أوه، كلنا نرتدي أقنعة. بدون قشرة كهذه سنكون بلا دفاع، تحت رحمة سهام الحياة ونبالها. على سبيل المثال، جعلتني ألاحظ عدم وجود خاتم زفافك بمحاولتك لا شعوريًا إخفاء ذلك الإصبع بيدك. أنت محرجة من أن زواجك لم يعد سليمًا."

قامت ريكاردا بإيماءة يد مستنكرة وطالبت مرة أخرى بالخروج.

غير عابس، واصل غيديون قول شيء لم تكن ترغب في سماعه.

– "يقولون إن الناس يكشفون عن حقيقتهم عندما يسكرون. وبما أننا لا نبيع الكحول هنا، كان علي أن أجعلك تستشيطين غضبًا، لأنه في خبرتي الغضب له تأثير مطهر مماثل."

نفخت بازدراء من شفتيها.

كفى هراءً لهذا اليوم. أريد الخروج من هنا.

– "الأمر برمته كان خطأ."

أومأ برأسه.

– "أنا أتفهم تمامًا أنك ترينه بهذه الطريقة. معظم جلساتي الأولية تنتهي هكذا."

لست مندهشة، إذا كنت تبدأ جميعها هكذا.

– "الآن وقد التقينا، لِمَ لا تفكرين في الأمر؟ وإذا أردت الاستمرار... حسنًا، تعرفين أين تجدينني."

بالتأكيد أعرف.

أشار مرة أخرى إلى الباب الثاني وهذه المرة اختارت ريكاردا المخرج بجانب رفوف الدلاء، والذي فتح على الأقل دون أي مقاومة.

لأخرج من هنا.

مباشرة خلف الباب وجدت نفسها في ممر يؤدي إلى مطبخ حيث كان ثلاثة موظفين في أزياء رسمية سخيفة يحملون اللحم المعالج على خبز مسطح. بالكاد انتبهوا لها وهي تسرع مارة بمقلاة الزيت العميقة وإلى منطقة المطعم الصارخة الألوان.

خروج. فلنبتعد عن هنا.

مغادرة مطعم الوجبات السريعة، أسرعت إلى حيث أوقفت سيارتها، متعثرة في بركة ماء في المزراب. وبينما كانت تكافح لفتح حقيبتها اللعينة والعثور على المفتاح، كان شعرها يزداد بللاً. بحلول الوقت الذي عثرت فيه عليه أخيرًا، شعرت وكأنها قد استحمت بملابسها كاملة.

منهكة، سقطت في مقعد الراكب.

وسائل الإعلام تدفع بسخاء مقابل الحصريات.

— "ياله من وغد!"

كانت هناك طرقة على النافذة. أنزلت الزجاج ووجدت نفسها تنظر إلى وجه متحرك لرجل بدا كبيرًا قليلاً في السن على لحية "هيبستر" وقرط أنف. نظرًا للطقس، كان يرتدي أيضًا قبعة صوفية غير مناسبة تمامًا كانت مشبعة بالماء مثل الإسفنج.

سأل:

– "ما الخطب؟"

قالت ريكاردا:

– "أنا آسفة."

– "كنا ننتظرك عند المدخل الخلفي."

أومأت برأسها. مليئة باحتقار الذات قالت:

– "أعرف. لكنني لم أستطع فعل ذلك."

ثم أغلقت النافذة، وأدارت المحرك وتركت مدير إنتاج الطاقم التلفزيوني واقفًا تحت المطر.

الفصل الرابع عشر

تيل
داخل المستشفى

الموت.

هكذا لابد أن يكون الشعور عند الوقوع في براثنه. خانق، لا يرحم، وبارد. كل ذكرى للدفء والحب والأمان ممحوة؛ كل محاولة للهروب منه محكوم عليها بالفشل.

كان الأمر وكأن تيل مدفون تحت انهيار جليدي. حاول أن يشق طريقه عائدًا إلى السطح الخام لوعيه. حاول أن يتنفس، يحرك قفصه الصدري، ثم ذراعيه وساقيه. بدا الأمر وكأنه يحاول السباحة في سائل بكثافة الزئبق.

أخبره جزء من عقله أن هذا مجرد أثر جانبي للدواء الذي خدروه به عند وصوله إلى المستشفى.

مباشرة بعد أن فقدت أعصابي.

أول شيء تمكن من تذكره هو وقوفه في الأنبوب نصف المفتوح للماسح الضوئي الزجاجي للجسم عند وصوله، وذراعاه مرفوعتان في وضعية «الاستسلام». بنطاله الخالي من الحزام انزلق ببطء ولكن بثبات فوق وركيه النحيلين وشعر بالدوار. القلق والرحلة وهو مقيد إلى نقالة كان لهما أثرهما.

– "يمكنك المضي قدمًا."

هذا ما أخبره به صوت جهوري، بلا وجه، عبر مكبر الصوت في السقف بمجرد خضوعه لإجراء المسح الرقمي.

لم يكن لدى تيل أي فكرة عن المكان الذي وصل إليه بالضبط في المجمع، لكنه شك في أن سيارة الإسعاف توقفت في المرآب تحت الأرض. القبو الذي كان مخصصًا في الأصل لإيواء مطبخ الفندق تم تحويله إلى منطقة استقبال.

تبع تيل سهمًا مرسومًا على الأرضية البلاستيكية الرمادية المعقمة حتى وصل إلى بوابة أمنية ذكرته بداخل حاوية شحن، مع كاميرات فيديو على السقف العاري. بينما كان يمشي شعر وكأنه يترنح. مثلما كان في سيارة الإسعاف عندما صعدت على العبارة التي أحضرته إلى هنا.

في انتظاره خلف البوابة كان هناك ممرضان بديا وكأنهما قادران على التعامل مع مرضى أضخم من تيل. ابتسما له بود، لكنه استطاع أن يقرأ في عيونهما أنه من الأفضل له تجنب فعل أي شيء أحمق.

قال الممرض الأبيض الأكبر سنًا من بين الاثنين المفتولين العضلات:

– "مساء الخير، سيد وينتر."

بدا أكبر سنًا، ربما، بسبب الشعر الرمادي الذي أبقاه مقصوصًا قصيرًا مع فرق عسكري صارم. تذكر تيل كيف انتفض داخليًا. وينتر. الاسم الجديد بدا غير مألوف وسلبيًا بطريقة ما، مثل اتهام خفي.

قال الممرض الآخر الأسود، بالنبرة الودية التي قد تسمعها في مطار، لكن دون أن يرفع عينيه عن تيل لثانية واحدة:

– "يجب أن نطلب منك إفراغ جيوبك."

أطاع تيل التعليمات ووضع علبة علكة، ومنديلاً ورقيًا مجعدًا، وقرص أسبرين مغلفًا في الطبق البلاستيكي المقدم. نظر حوله.

بدا المكان في الأسفل مثل أنفاق الإمداد التي تجدها تحت المطارات والمستشفيات والفنادق الحديثة. كبيرة بما يكفي لتضل الطريق. ضيقة بما يكفي لتسريع دقات قلبه.

على جانبيه، بدت ممرات خرسانية مسلحة مطلية بالأبيض ومضاءة ببراقة تمتد إلى المسافة بلا نهاية تقريبًا، لكنها كانت مؤمنة على فترات منتظمة بأبواب شبكية من الأرض إلى السقف. لا فرصة للهروب، لكن تلك لم تكن خطته. بل على العكس.

أشار تيل إلى البوابة الأمنية التي مر عبرها.

– "هل أنا محق في اعتقادي أن الماسح الضوئي للجسم يعمل بتقنية التيراهيرتز؟"

كان قد التقط هذه المعلومة من برنامج على قناة ديسكفري حول تكنولوجيا الأمن في مطار فرانكفورت.

سأل الممرض ذو الشعر الرمادي، وبدا الآن قلقًا أكثر منه ودودًا:

– "لماذا تريد أن تعرف ذلك؟"

– "هل يعني ذلك أنك تستطيع رؤية ما أرتديه على جسدي فقط وليس ما بداخله؟"

بدلاً من إعطاء إجابة، فك الممرض الأسود جهاز اللاسلكي من حزامه. لم ير تيل سلاحًا مع أي منهما، لكن الموظفين في مستشفيات الطب النفسي الألمانية لم يكونوا مسلحين عادة.

– "إذن ليس لديكم أي فكرة عما في معدتي؟"

– "ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟"

– "قبل ساعتين ابتلعت كبسولة حساسة للحمض. وفقًا لحساباتي، حمض معدتي سيكون قد أذاب الغلاف وسينفجر الوضع."

سأل الممرضان بصوت واحد:

– "ما الذي سينفجر؟"

إجابة تيل، بالتزامن مع محاولته الفاترة للهرب، أكسبته في النهاية "حقنة ما قبل النوم".

بعد لحظتين كان على الأرض.

الآن استيقظ مرة أخرى، متسائلاً عما إذا كان الممرضون قد بالغوا في جرعة التخدير وأنه يعبر العتبة الأخيرة. في كل الأحوال، اللحظات الأخيرة من حياته عُرضت مرة أخرى في عقله مثل فيلم "سوبر 8" سيء الإضاءة.

الشيء الوحيد الذي لم يتوافق حقًا مع الموت هو هذا الضوء. لم يكن ضوءًا تتحرك نحوه، بل ضوءًا تريد الهروب منه.

وردي. وردي فاتح صارخ وموجود في كل مكان منذ طرفة عينه الأولى.

كل شيء في الغرفة كان ورديًا بالكامل. الجدران، الأسقف، الأرضيات، حتى ألواح الوزرة والمصابيح – كلها باستثناء المرحاض

المصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ بدون مقعد والحوض المصاحب له. عندما رأى تيل الحوض عرف أنه لا يزال على قيد الحياة وعرف أين أخذوه.

حسنًا، هذه هي العقبة الأولى تم تجاوزها بنجاح.

أغلق تيل عينيه وفتحهما مرة أخرى بعد ثانيتين، لكن ربما كانت ساعتين أو حتى أيامًا. على أية حال لم يعد وحيدًا في الغرفة.

هذه الحقيقة كان ينبغي أن تطمئنه، لأنه لا يزال حيًا وأكمل المرحلة الأولى من خطته.

لكن عندما رأى الرجل بجانب سريره، الذي بدا بفضول مألوفًا وغير مألوف في آن واحد، شعر تيل بارتباك شرير. لم تكن ملامح الوجه أو الوقفة هي ما تعرف عليه، بل شيء آخر. شيء أزعجه بعمق، لأنه ذكر تيل بنفسه: الكراهية في عيني الرجل.

حدق الغريب المألوف فيه تمامًا كما كان تيل ليحدق في قاتل ابنه لو تمكن يومًا من مواجهته.

الفصل الخامس عشر

سأل الرجل بصوت بدا وكأنه يريد الانفجار خارج جسد صاحبه:

– "سيد وينتر، كيف حالك؟"

جسد غريب كان عليك التعود عليه، تمامًا مثل الاسم الذي خاطبه به. كان الصوت أجش، هشًا تقريبًا. عميقًا قليلاً بالنسبة لرجل نحيل، يميل للهزال، بوجه غراب. عينان غائرتان، وخدان ضيقان، وأنف مدبب مثل خطاف الملابس.

سأل تيل:

– "من أنت؟"

وقدم الرجل نفسه على أنه الدكتور مارتن كاسوف، كبير الأطباء في الجناح الثالث، دون أن يوضح ما يميز هذا الجناح عن الجناحين الآخرين، أو أي شيء آخر. لم يكن لدى تيل أي فكرة عن العلاقة الهرمية للطبيب مع البروفيسورة ثيا سينغر، التي كانت وفقًا لسكانيا المديرة الفعلية للمستشفى.

سأل تيل وهو يتحسس رأسه محاولاً الجلوس على سريره الضيق، الوردي أيضًا:

– "ماذا أعطيتني؟"

كان يرتدي بدلة رياضية بلون رمادي، قصيرة قليلاً عليه. شعر تيل بأنه مغسول ونظيف. ضمادته اختفت أيضًا؛ الآن لم يكن هناك سوى

بضع لاصقات طبية على رأسه الأصلع. قدماه، مع ذلك، كانتا في جوارب مخططة بنتوءات مطاطية.

قال كاسوف:

– "فلونيترازيبام."

أومأ تيل بحذر. شعر وكأن رأسه قد امتلأ بسائل ساخن يحرق بشكل غير مريح ومع أقل حركة قد ينسكب مثل الحساء فوق حافة الوعاء. شعر بالدوار والغثيان. لم يكن يعرف ما إذا كان هذا عرضًا جانبيًا طبيعيًا للدواء الذي شل حركته.

سأل متذكرًا الدور الذي كان يلعبه:

– "لماذا ما زلت على قيد الحياة؟"

كان قد ادعى أنه ابتلع قنبلة، بعد كل شيء.

– "لماذا لا ينبغي أن تكون على قيد الحياة؟"

نظر كاسوف حوله وكأن هناك شيئًا آخر للتحديق فيه في الزنزانة الوردية غير النوافذ المفقودة، ومقابض الأبواب المفقودة، والخصوصية المفقودة. فوجئ تيل بأن الطبيب كان يقف في الغرفة بدلاً من التواصل معه عبر كاميرا في السقف أو من خلال الفتحة في الباب الأمني. وفوجئ بالمفكرة الصغيرة التي أخرجها كاسوف من جيب صدر معطفه الطبي دون أن يرفع عينيه عن تيل.

فتح كاسوف المفكرة وقلبها بحيث يتمكن تيل من قراءة الرسالة التي كانت مكتوبة له بالفعل.

سأل الطبيب:

– "هل تعرف أين أنت؟"

لكن تيل لم يعد قادرًا على إعطاء إجابة منطقية. الكلمات القليلة التي خربشها كاسوف بحروف كبيرة على مفكرته وضعت تيل في حالة صدمة.

لا تنظر إلى الكاميرا في السقف!

فورًا، بالطبع، شعر تيل بإغراء لفعل ما أمره الطبيب للتو بعدم فعله. لكن كاسوف كان قد قلب الصفحة بالفعل وكان يريه رسالة جديدة:

أنا أعرف من أنت!

قال كبير الأطباء مجيبًا على سؤاله الخاص ومستمرًا في الابتسام بشكل غير متناغم:

— "هذه هي غرفة التدخل في الأزمات لدينا."

— "المؤسسات النفسية الحديثة لديها غرفتا عزل على الأقل في حال الحاجة لحبس عدة مرضى عدوانيين في نفس الوقت. نحن لدينا ثلاث."

بالطريقة التي كان يقف بها أمام تيل، وظهره للباب وبالتالي للكاميرا، لم يكن أحد في الخارج يستطيع رؤية كيف كان الطبيب يتواصل معه. أي شخص يحلل الفيديو لاحقًا سيفترض أنهم أجروا محادثة تعارف عادية.

— "الجدران والأسقف مطلية بلون (وردي الكاميليا)، لأن الدراسات أظهرت أن لهذا اللون تأثيرًا مهدئًا على الناس."

أمسك كاسوف بالمفكرة لصدره مرة أخرى. هذه المرة بكلمة واحدة خربشها طبيب الجناح للتو على الورقة وأعطت تيل هبة ساخنة غير مريحة:

مخادع!!!

رمش تيل ومسح عرقًا من جبينه كان يشعر به لكنه لم يكن موجودًا بالفعل. قاوم الرغبة في تحسس رأسه. عدم وجود إصابات حروق ربما أثار شكوك الطبيب.

تساءل تيل عما إذا كان يجب عليه النهوض وانتزاع المفكرة من كاسوف، لكن كانت هناك رسالة جديدة بالفعل:

كلمة خاطئة واحدة وسأقتلك!

سأل مضيفًا ثلاث علامات تعجب أخرى:

— "حسنًا، هل يريحك؟"

ابتلع تيل ريقه بتوتر، وبالكاد كان قادرًا على التعامل مع سلوك الطبيب الغريب.

— "ماذا؟"

— "اللون الوردي؟"

تمتم بعد فترة:

— "أفضل الأسود."

حاول التقاط نظرة من عيني الطبيب الزرقاوين الفولاذيتين المتيقظتين.

— "إنه يتماشى مع نظرتي للحياة."

— "أنا أتفهم."

وضع كاسوف مفكرته بعيدًا وأخبر تيل أنه يجب عليه الذهاب، لكنه سعيد بأن المريض يشعر بتحسن قليلاً.

– "هل يمكنني... أعني... لا أعرف طريقي هنا... كيف يعمل الأمر؟ هل يمكنني إجراء مكالمة هاتفية؟"

بابتسامة مصطنعة على شفتيه، منحه كاسوف نظرة تعني «محاولة جيدة». ثم أدار ظهره، وهو ما وجده تيل شجاعًا بشكل مذهل، نظرًا لأن الطبيب قد هدده للتو.

كانت دهشته أكبر عندما لم يغلق الطبيب الباب خلفه.

زنزانة الحجز كانت مفتوحة على مصراعيها.

ورغم أن كل خلية في جسده كانت تنتفض ضد ذلك وصوت داخلي يصرخ فيه ألا يفعل، لم يستطع تيل مقاومة باب الزنزانة المفتوح. إذا أعطيت زجاجة لشخص يموت من العطش فسيشربها مهما كان لون السائل الذي يتدفق بداخلها بنيًا. لذا بدأ في التحرك، يجر قدميه ببطء للأمام، مترًا تلو الآخر.

وهكذا خطى تيل خارج زنزانة العزل الوردية إلى عالم مستشفى شتاين المجهول والمرعب.

الفصل السادس عشر

ترامنيتز

ركض الصبي الصغير بأقصى ما أوتيت ساقاه من قوة، رغم أن ذلك لم يكن يعني الكثير لصبي لم تمضِ على ولادته في هذه الحياة البائسة سوى سبع سنوات ونصف. فضلًا عن ذلك، كانت ساقاه —اللَّتان لم تبلغا طولًا يُذكر بعد— تشعران بخدر شديد، ووخز كالإبر ينهش لحمه؛ وهو أمر لم يكن مستغربًا لمن لم يستطع بسطهما بشكل كامل طوال أيام متواصلة.

كان لهذا الوخز ميزة واحدة على الأقل، وهي حجب الألم كلما داست قدماه الحافيتان على غصن أو حجر أو مخروط صنوبر. ولحسن حظه، كان المطر قد هطل لتوه، فجعل أرض الغابة أكثر طراوة، وإلا لكانت قدماه قد تشققتا من كثرة الجروح خلال ركضه الهائم على وجهه في عز الصيف.

كان الظلام دامسًا، والغيوم تتراكم بكثافة تشبه «سيل الصباح»، كما كان والده يقول دائمًا دون أن يشرح له يومًا ما الذي يعنيه بذلك تمامًا.

انعطف يمينًا نحو ممر ضيق ترابي، يسلكه هواة الدراجات الجبلية في الأجواء الصحوة صعودًا إلى جبل تويفلزبرغ. تعثر بجذر شجرة ففقد توازنه، وسمع صوت فرقعة، ثم انبعث ألم حاد في ساقه وكأنه وقع في فخ.

سقط إلى الأمام، وبالكاد استطاع كبح سقوطه بيده، لكن ذلك جلب موجة ثانية من الألم لا تقل حدة عن الأولى، انطلقت من معصمه لتستقر في كتفه.

صاح قائلاً:

— "تبًّا!"

لكنه لم يبكِ؛ فقد تعلم ذلك في دروسه هناك، في القبو. وتلك الدروس كانت أقسى بكثير من هذه السقطة التافهة في الظلام. لا، لن يبكي حتى لو كان الألم لا يطاق. الرجال لا يبكون. أليست هذه أغنية والده المفضلة؟

— "تبًّا، تبًّا، تبًّا!"

فجأة، انبعث صوت من الغابة خلفه مباشرة:

— "لا تستخدم هذه الكلمات."

تبع الصوت صفعة مدوية على أذنه طرحته أرضًا مرة أخرى. عندها فقط، حين أدرك أن محاولته للهرب قد فشلت مجددًا وأن والده قد أمسك به، لم يستطع حبس دموعه أكثر من ذلك.

بعد أقل من عشر دقائق، كان قد عاد إلى المنزل. كانوا يعيشون على حافة الغابة، في منطقة لم يكن بمقدورهم تحمل تكاليفها لولا عمل والده كحارس لملاعب نادي الهوكي، حيث كانت الإقامة في هذا المنزل الصغير خلف الملاعب جزءًا من ميزات الوظيفة.

قال والده حين دخلا المنزل، وهما غارقان في العرق والقذارة:

— "سنقوم ببعض التدريبات الإضافية."

لكن أمه لم تكن تعيرهما أي انتباه؛ كانت تلف سيجارة من الحشيش وتحدق بعينين جاحظتين في شاشة التلفاز التي تعرض فيلمًا إباحيًا. كانت الأم تأتي بأفلام جديدة دائمًا من متجر الفيديو، ولم يكن والده يحب أن يعود للمنزل ليجد فيلمًا قد سبق له رؤيته.

قال الأب وهما في القبو، واقفين بجانب (تريكسي):

— "هيا، تفضل."

لم يكن الصبي يعرف لماذا أطلق والده هذا الاسم على ذلك الشيء. كان الاسم يبدو لطيفًا جدًا مقارنة بحقيقته: صندوق خشبي مفعم بالرعب.

— "ادخل."

لم يتردد الصبي؛ ففي المرة الأخيرة التي رفض فيها الصعود إلى (الحضّانة)، كسر والده أنفه، مما منعه من الذهاب للمدرسة لمدة شهر. وبالتأكيد ستكون العقوبة هذه المرة أشد لأنه حاول الهرب من المنزل. تسلق بصعوبة —فلا تزال ساقه تؤلمه بشدة بعد السقطة— وصعد الدرجة الخشبية نحو طاولة العمل حيث تقبع (تريكسي)، التي كانت بحجم تابوت طفل. ما إن استلقى على المنشفة الرثة، التي تمثل (الفراش) الوحيد داخل الصندوق، حتى أغلق والده الغطاء وانحنى بركبتيه ليتحدث إليه عبر إحدى دوائر "البليكسي غلاس" المخصصة لليدين في جانب الصندوق.

سأل والده:

— "لماذا هربت؟"

كان لوالده حدس قوي، يعرف دائمًا متى يُكذب عليه، لذا كان من الأفضل للصبي أن يقول الحقيقة.

– "لأنني خائف يا أبي."

ساد الصمت لفترة طويلة، ثم قال والده:

– "أفهم ذلك. هل تتذكر ما قلته لك عما لا يجب فعله أبدًا حين تشعر بالخوف؟"

– "ألا أهرب."

طقطق والده بلسانه استحسانًا:

– "بالضبط. عليك مواجهة أكبر مخاوفك. انظر في عينيه مباشرة. هذا ما يسمونه (التعرض للمخاوف)."

أغمض الصبي عينيه واستجمع شجاعته وهو داخل الحضّانة وقال:

– "لا.. لا أظن أن الأمور تتحسن يا أبي. خوفي يزداد سوءًا هنا في الداخل."

– "أوه، حقًا؟ هذا ما تظنه؟"

– "أفضل أن.."

– "ماذا؟"

– "أن ألعب.. مع توماس وأليكس. أصدقائي. في الخارج."

– "هممم. ظننت أنك تريد حيوانًا أليفًا."

فتح الصبي عينيه مجددًا وحاول اختلاس النظر عبر إحدى الفتحات الجانبية، لكنه لم يرَ سوى أرضية القبو المغبرة وعلبة من الورنيش بجانب أدوات الحديقة.

أجاب بحماس حين كرر والده السؤال:

– "نعم! بالطبع أريد حيوانًا أليفًا. أريد ذلك أيضًا."

سمع ضحكة والده.

– "هذا ما ظننته يا بني. ولهذا أحضر لك والدك واحدًا. لقد استغرق الأمر مني وقتًا طويلاً للعثور عليه."

ومع هذه الكلمات، فتح إحدى فتحات اليدين.

– "ما هو يا أبي؟ قطة صغيرة؟ جرو؟"

ربما مجرد خنزير غينيا، وسيكون ذلك رائعًا أيضًا، رغم أنه سمع في المدرسة أنه لا يجب أبدًا تربية خنزير غينيا وحيدًا. تمنى أن يكون والده قد فكر في ذلك.

سمعه يقول:

– "استمتع مع صديقك الجديد."

قبل أن يحل الظلام فجأة؛ فقد أطفأ والده ضوء القبو. وبقي الطفل وحيدًا. وحيدًا مع نفسه، ومع خوفه.. ومع العنكبوت الضخم المشعر الذي كان يحاول بإصرار التسلق فوق وجنته، بينما كانت صرخات غيدو ترامنيتز تتعالى وتزداد ذعرًا.

الفصل السابع عشر

– "كابوس مزعج؟"

عندما فتح ترامنيتز عينيه، كان قلقه المباشر هو أن والده الوغد قد تمكن بطريقة ما من البعث من الموت، ليقذف بنفسه من كابوس ذكرياته إلى غرفة المستشفى مباشرة. ثم اعتاد بصره على الضوء الساطع المنبعث من السقف، وأدرك تدريجيًا أن الكابوس مع والده قد انتهى، وأن وغدًا آخر هو من يقف بجانب سريره.

هسَّ قائلاً للجراح الذي نظف شريانه الأسبوع الماضي وأنقذ حياته:

– "اغرب عن وجهي يا فريدر."

فأجابه فريدر بابتسامة:

– "أوه، على الرحب والسعة. كان من دواعي سروري."

بسبب تلك الابتسامة وحدها، تمنى ترامنيتز حقًا أن يحطم وجهه، لكنه كان لا يزال يشعر بضعف شديد. لم تكن هذه المرة الأولى التي يفقد فيها الوعي وينهار فجأة. لعنة الجينات. لقد ورث هذا الشريان السباتي اللعين عن والده. لكنها كانت المرة الأولى التي يتوفر فيها جهاز رنين مغناطيسي وغرفة عمليات على مقربة منه، لتشخيص ثم علاج الانسداد المفاجئ في شريانه على الفور.

كانت مصحة شتاين كلينيك مجهزة بشكل ممتاز رغم أنها لا تضم سوى المختلين نفسيًا. كانت أفضل تقريبًا من مستشفى (فيرشو)، حيث كان ترامنيتز يعمل في وحدة حديثي الولادة قبل أن يلقوا القبض عليه. لكن طرأت مضاعفات في غيار الجرح؛ فقد التهب جرح العملية. وفي اليوم الذي كان من المقرر فيه عودته إلى الجناح المغلق، أصيب بحمى وصعوبات في التنفس وبقع حمراء على جلده — وهي كلها أعراض تسمم حاد في الدم. وبفضل المضادات الحيوية بدأ يتماثل للشفاء، لكن الأقراص كانت تؤلم معدته.

— "لقد جاءت الممرضة لرؤيتي، وجاء الطبيب المسؤول رغم أنني لم أطلبه، فماذا تريد أنت الآن؟"

تحرك فريدر —الذي كان ترامنيتز يرى أن حركته تشبه المنحلّين (بنعومة وهدوء ودون صوت تقريبًا على أرضية اللينوليوم)— حول السرير دون أن ينبس ببنت شفة. كان غيدو يكره كل شيء في هذا الرجل: قميص (البولو) الوردي الفاتح الذي يرتديه بياقة مرفوعة كالأثرياء المحدثين؛ ثيابه البسيطة والأنيقة التي تبرز بطنه المترف. كان يرتدي أحذية (السيفتي) الأنيقة بالطبع، بدلاً من الأحذية الطبية، وكان يبدو في مجمله وكأنه وصل لتوه من البحيرة، حيث منحه الهواء على قاربه السريع تصفيفة شعر شقراء طبيعية، رغم أن هذا الرجل لا يمت للرياضة بصلة.

الآن يقف فريدر بجانب النافذة في الغرفة المنفردة، يحدق عبر الزجاج الذي لا يمكن حتى للمطرقة كسرُه. ترك عينيه تتجولان في الحديقة حيث كان من المعتاد في هذا الوقت رؤية مجموعة من المرضى

يتنزهون مع الحراس، أو يدخنون بجانب الشجيرات، أو يفرغون طاقتهم في ملعب كرة السلة. ولأن النوافذ الزجاجية السميكة كانت عازلة للصوت ومقاومة للصدمات، لم يتأكد ترامنيتز من وجود أحد بالخارج طالما بقي فريدر حاجبًا للرؤية. لكن نظرًا لهطول المطر بغزارة، فقد خمن أن المكان خالٍ من الحركة.

قال الطبيب فجأة وهو يلتفت نحوه:

— "أثناء العملية، تولد لدي انطباع بأنك على دراية واسعة بحياتي الخاصة."

ورغم أنه لم يكن يرتدي خاتمًا، تذكر ترامنيتز أنه سمع أن فريدر كان متزوجًا في الماضي. ربما ليس منحلاً كما ظننت. ومن ناحية أخرى، يتزوج الكثير من الشواذ كستار، أليس كذلك؟

أجاب ترامنيتز:

— "فقدان مريض تحت المشرط بسبب السكر.. لا أسمي ذلك حياة خاصة."

وبالنظر إلى هذا (الولد الوسيم) الذي استحم لتوه، شعر ترامنيتز أنه أكثر قذارة. الطعام السيئ هنا أصابه ببثرة صغيرة على أنفه، ولم يغسل شعره منذ العملية. كان يكره حالته غير الصحية ويتوق لليوم الذي يعود فيه لممارسة الرياضة.

قال محاولاً استفزاز الجراح:

— "هل تجرعت الخمر هذا الصباح أيضًا؟"

فأجابه فريدر بنبرة بدت مستمتعة بشكل غريب:

— "ليس أكثر مما تجرعته قبل عمليتك."

سحب مقعدًا صغيرًا مخصصًا للوصول للرفوف العالية، واستخدمه للجلوس.

– "دعني أحكِ لك قصة."

كان ترامنيتز يجزم بأنه يشم رائحة (الشنابز) في أنفاس فريدر.

سأل ترامنيتز الجراح:

– "هل يمكنني الضغط على زر الإنذار في هذه الأثناء؟"

– "تفضل، لكنك لن تعرف أبدًا ما هي مشكلتك."

– "وما هي مشكلتي؟"

انزعج ترامنيتز لأن الطبيب هو من يدير دفة الحوار. حتى لو نادى الممرضة، فستنسحب فور رؤية مديرها.

قال فريدر:

– "الأمر وما فيه، أن زوجتي السابقة تكره أطباء الأسنان. لديها رعب حقيقي من الحقن، وللأسف، كان عليها هي بالذات أن تخضع لعلاج عصب."

– "وما شأني أنا بهذا؟"

واصل فريدر قصته دون اكتراث، بل ووضع ساقًا فوق أخرى وكأنه يستجم بجانب سرير ترامنيتز:

– "بعد عامين، استيقظت على صوت بكائها في الحمام. نهضت وتلمست طريقي عبر غرفة النوم المظلمة ورأيتها. أعني، رأيت زوجتي، لكنني بالكاد عرفتها. كانت وجنتها متورمة بحجم ثمرة الجريب فروت، وكأنها تعرضت لضرب مبرح."

تمتم ترامنيتز:

– "ربما تحب الضرب." لكن فريدر لم يلاحظ التعليق.

– "ذهبت لطبيب أسنان آخر، لأن الطبيب الذي عالج عصبها قد أغلق عيادته."

– "ليست علامة جيدة."

– "يمكنك قول ذلك. الطبيبة الجديدة أجرت صورة أشعة لفكها السفلي، وتخيل ماذا وجدت؟"

– "يربوعًا؟"

– "رأس إبرة. داخل فكها تمامًا. لا بد أنها انكسرت داخل قناة العصب ولم يقل ذلك الأحمق شيئًا. اضطروا لحفر فكها من الأسفل. كابوس حقيقي، خاصة لمن تعاني من فوبيا أطباء الأسنان."

همهم ترامنيتز:

– "قصة رائعة، لكن ما علاقتها بي؟"

وضع وسادة خلف ظهره ليجلس بوضعية أكثر راحة. وحين توقف عن الحركة، تابع فريدر:

– "أنا لا أملك أطفالاً، لكن صديقي المفضل لديه ابن. ذات مرة، حين كان في الثامنة، اختفى الصبي في مدينة ألعاب في (ستوركاو). كنت معهم في ذلك اليوم. فقدناه عن أعيننا وأمضينا ساعتين نبحث عنه في كل مكان. كان هناك حقل ذرة حولوه إلى متاهة، وهناك اختفى. إن جهل صديقي بمكان ابنه أصابه بأكبر رعب في حياته. وحتى اليوم، يتصبب عرقًا بمجرد التفكير في الأمر."

– "بخلافي أنا.. فأنا سأشعر بالإثارة."

أومأ فريدر برأسه:

– "بالفعل، ولهذا حكيت لك قصة طبيب الأسنان."

بردت نظرات الجراح، وبدا غارقًا في أفكاره لدرجة أن ترامنيتز شعر فجأة وكأن الطبيب ينظر من خلاله وهو يتحدث:

– "بينما كنت في مدينة الألعاب تلك ونحن ننادي اسم الصبي مرارًا وتكرارًا، أقسمتُ أنه لو اختُطف، سأساعد صديقي في قتل الوغد الذي فعل ذلك. حتى عاد الصبي، كان لدي شعور جيد بما يحسه الآباء الذين يختفي أطفالهم دون أثر. وما يفعله الأوغاد المنحرفون مثلك بالأقارب."

تنهد ترامنيتز بتصنع:

– "لماذا لم تقتلني حين سنحت لك الفرصة على طاولة العمليات؟" وأشار بعلامات تنصيص بيده متابعًا: "لماذا لم ترتكب (خطأً مهنيًا) يا دكتور؟"

ابتسم فريدر وهو ينهض:

– "أوه، لا تقل ذلك."

– "ماذا؟"

بدأ ترامنيتز تدريجيًا يخمن ما يلمح إليه الطبيب.

قال فريدر:

– "ألم تخدع المقيمين بزعمك أن قوة شريرة زرعت شريحة داخلك تجعلك تسمع أصواتًا تأمرك بالقتل؟"

لم يرد ترامنيتز.

تابع الجراح مشيرًا إلى رأس ترامنيتز:

— "حسناً، الآن هناك شيء بداخلك حقًا. لماذا تظن أنك أصبت بتسمم في الدم؟ لقد نسيت شيئًا. شيئًا سيسبب لك على الأرجح ألمًا مستمرًا ولا يطاق."

هدده ترامنيتز:

— "سيمزق محامي أحشاءك. قبل وأثناء وبعد فحص الرنين المغناطيسي الذي سأطلبه الآن."

— "تفضل. لكن ما تركته بداخلك ليس مرئيًا. على عكس الإبرة المكسورة في فك زوجتي، لا يمكن اكتشافه بالموجات فوق الصوتية أو الأشعة المقطعية أو السينية."

تصصب ترامنيتز عرقًا:

— "ما هو؟" وسارع يتحسس ضمادة شريانه السباتي غريزيًا.

أصبحت ابتسامة فريدر أكثر خبثًا:

— "لا تكن عجولاً. ستعرف قريبًا حين تصبح في حالة عذاب مرير. إلا إذا..."

لوح فريدر بيده، ملمحًا إلى استعداده لإزالة هذا الشيء بشروط.

سأل ترامنيتز:

— "إلا إذا ماذا؟"

— "أجريت محادثة مؤثرة جدًا مؤخرًا. ووعدت الأب بأنني سأفعل كل ما في وسعي بشريًا لمساعدته."

— "عن ماذا تتحدث بحق الجحيم؟"

اقترب فريدر، ولم يعد هناك شك في أنه استعان بالخمر ليخوض هذه المحادثة:

– "اعترف بقتل ماكس بيركوف، وأرِ الوالدين مكان جثته."

الفصل الثامن عشر

تيل

خرج تيل من غرفة العزل وتلفت حوله، لكن الممر كان مهجورًا، ولم يظهر للدكتور كاسوف أي أثر. فقط ذلك الشعور الضاغط بالتهديد الذي تركه الرجل خلفه كان يذكره بأنه كان هناك.

ماذا يريد مني؟

تساءل تيل إن كان قد التقى بهذا الطبيب في الماضي. لا. كنت سأتذكر ذلك الصوت المستفز. أم هل كنت سأفعل؟ ولماذا استقبلني بكل هذا الحقد؟

نظر تيل يمنة ويسرة كطفل يحاول عبور الطريق. كان الممر خارج زنازين العزل واسعًا بشكل غير معتاد بالنسبة لمستشفى، وله سقف عالٍ ومقوس مع مصابيح تسلط ضوءًا دافئًا على الجدران ذات اللون الكريمي.

اتجه يسارًا، في الاتجاه الذي انبعثت منه موسيقى كلاسيكية خافتة. انتهى الممر بمنطقة جعلت تيل يحبس أنفاسه.

لا عجب في قلة الصور لغرف شتاين كلينيك على الإنترنت.

هناك الكثير من الناس الذين يرون في وجود تلفاز داخل زنزانة نوعًا من العدالة "الناعمة". ماذا سيقولون لو عرفوا أن المجرمين المختلين يقضون وقت فراغهم في ردهة تنافس ردهات فندق (الريتز)؟

كان تيل يقف في غرفة بيضاوية سقفها مقبب ومدعوم بأعمدة، يرتفع عدة طوابق فوقه كأنه كاتدرائية. الأرضية المرصعة ببلاط رخامي أبيض ورمادي، تضم نصف دزينة من الأرائك وضعفها من الكراسي الوثيرة، وكلها تبدو مريحة بما يكفي للنوم فيها. وبالفعل، كان هذا ما يفعله رجل مسن ذو لحية؛ كان ضئيل الحجم لدرجة أن الصحيفة التي وضعها على بطنه وهو يغفو بدت وكأنها بطانية.

بحث تيل غريزيًا عن خدم يرتدون بزات رسمية أو نادلات يتحركون بين الضيوف حاملين قوائم الطعام، لكنه لم يرَ حتى ممرضة أو طبيبًا. ولا حتى عند المنصة التي تقع على يمينه، والتي صُممت لتكون مكتب استقبال، وعلق فوقها لوحة مكتوب عليها بأناقة: «الصيدلية».

على قدر ما استطاع تمييزه، لم يكن هناك سوى المرضى. امرأتان شابتان تتهامسان وتحدقان في المدفأة الكبيرة التي تتراقص نيرانها خلف واجهة زجاجية، لدواعي السلامة على الأرجح.

وأمام النار المتراقصة مباشرة، كانت تجلس امرأة لا يمكن تحديد عمرها على الأرض، تمشط شعرها الأشقر الرمادي بذهول وتدندن لنفسها بصوت خافت. بينما وقف رجل طويل، يرتدي بدلة رياضية مثل تيل، بعيدًا عن الآخرين بجانب النافذة الكبيرة، يحدق في المطر. كانت الشمس قد غربت بالفعل، وبذلت مصابيح الحديقة ذات اللون الأصفر الكبريتي قصارى جهدها لمنع العالم الخارجي من أن يبتلعه ثقب أسود. وتحت ظلال المصابيح، كانت قطرات المطر تتراقص في حزم الضوء كأسراب الفراشات.

عندها فقط أدرك تيل أنهم في الطابق الأرضي العلوي، فخلف النوافذ المحكمة الإغلاق كانت هناك شرفة تؤدي منها درجات عريضة ومقوسة إلى ساحة المستشفى. لكن هذه لم تكن المفاجأة الكبرى، ولا حتى الموسيقى الكلاسيكية لـ(شوبان) التي تنبعث من مكبرات صوت خفية.

الشيء غير المعتاد حقًا، والذي استقطب انتباهه بالكامل منذ دخوله الردهة، كان شجرة عيد الميلاد! بدت وكأنها تنبت من الأرضية الرخامية وتكاد تصل إلى السقف المقبب.

سمع صوتًا ودودًا خلفه يقول:

– "أعرف فيما تفكر."

التفت تيل، الذي كان يحدق في السقف ليعرف أين تنتهي الشجرة، وشعر بالذهول مرة أخرى حين قرأ الاسم على معطف المرأة الأبيض. كان يتوقع أن تكون البروفيسورة ثيا سينغر امرأة بيضاء في أوائل الخمسينيات، لا امرأة آسيوية تبدو في منتصف الثلاثينيات أو حتى أصغر.

كانت البروفيسورة سينغر ترتدي معطفًا طبيًا يبدو أكبر قليلاً من حجمها، وأحذية ضخمة تم اختيارها بوضوح لإخفاء أي جاذبية أنثوية. كانت هذه خطوة ذكية بالتأكيد في مؤسسة ربع نزلائها من مرتكبي الجرائم الجنسية، لكنها كانت محاولة فاشلة رغم كل شيء؛ فطالما عجزت عن إخفاء عينيها الداكنتين اللوزيتين وشعرها الفاحم، فستبقى مثيرة لرغبات البعض هنا حتى لو ارتدت كيسًا من الخيش.

سأل تيل حين استعاد صوته:

– "ماذا قلتِ؟"

أشارت المديرة إلى الشجرة غير المزينة:

– "وقت مبكر على شجرة عيد الميلاد. هذا ما تفكر فيه، أليس كذلك؟ لكنها جزء من العلاج الوظيفي. سنقوم بتزيينها جميعًا الأسبوع المقبل. يمكن لكل مريض كتابة أمنية للعام الجديد وتعليقها كبطاقة ملونة على الشجرة. ستقرأها إدارة المستشفى، ومن يدري؟ ربما يتحقق بعضها."

كان تيل يعرف ما سيكتبه في بطاقته.

أريد أن أعرف ما حل بابني.

لكنه بالتأكيد لن يعلقها على الشجرة ليحصل على إجابة.

قالت المديرة وهي تلمس ذراعه برفق وتشير إلى الممر على يمينهما:

– "تعال معي، سأريك (المجتمع)."

– "المجتمع؟"

سارت الطبيبة في المقدمة وتبعها تيل. قالت سينغر دون أن تلتفت:

– "القاعة المقببة تفصل الجناح الغربي عن الشرقي. لو كان هذا هو البيت الأبيض حقًا، لكننا الآن في طريقنا إلى المكتب البيضاوي. رسميًا، يضم الجناح الغربي القسم الثالث، وهو الجزء المفتوح من السجن. خلال النهار، يمكنك البقاء في المناطق العامة، مثل الردهة التي رأيتها للتو."

دخلا ممرًا عالياً ومقوسًا يشبه تمامًا الممر الذي جاء منه تيل، باستثناء أن جميع الأبواب هنا كانت مفتوحة. وبينما كان يمر، لمح

غرفًا متنوعة؛ في إحداها دراجة رياضية وجهاز جري، وفي أخرى ثلاثة رجال يشاهدون التلفاز ويضحكون. وفي الغرفة الأخيرة، اصطفت مقاعد أمام مذبح بسيط.

قالت سينغر دون أن تبطئ سرعتها:

– "صالة رياضية، غرفة تلفاز، وغرفة صلاة مشتركة. هل تؤمن بالله؟"

تمتم قائلاً:

– "ليس بعد الآن."

– "هذه الغرفة هنا ستثير اهتمامك أكثر إذن."

عند نهاية الممر، فتحت المديرة بابًا ثقيلًا من الزجاج المصنفر. في لحظة، امتلأ الهواء بقعقعة الأطباق والأدوات، ورائحة (الشنيتزل) والبطاطس المحمرة والخضروات المعلبة.

– "المقصف وغرفة الطعام. تتسع لخمسين شخصًا كما ترى، كل شخص لديه مساحته الخاصة."

سمع تيل ضحكات امرأتين، تبعتها ضحكة رجولية فاحشة لم يستطع تحديد مصدرها لأن المقاعد كانت موزعة بزوايا مختلفة. ورغم أن الرائحة كانت تشبه طعام المستشفيات المعتاد، إلا أن الديكور كان يوحي بأنك دخلت بالخطأ إلى مقهى (ستارباكس). سيطر الأثاث الخشبي الداكن على المكان، وتدلت مصابيح سوداء أنيقة من السقف، حتى أن هناك بعض الكراسي الوثيرة المبطنة بجانب طاولات قهوة منخفضة.

قالت سينغر بابتسامة:

— "أعرف مجددًا فيما تفكر. الجو في القسم الثالث أكثر استرخاءً من غيره. لكن لا تأخذ انطباعًا خاطئًا؛ فهناك بالطبع جلسات علاجية ثابتة. والسجن المفتوح لا يعني أن النزلاء يمكنهم التجول كما يحلو لهم. الأبواب الوحيدة المفتوحة هنا هي التي نفتحها نحن لك. لذا لا يوجد وصول إلى الأقسام الأخرى، مثل قسم مكرري الجرائم في الجناح الشرقي."

نظرت إليه، وتوقع تيل للحظة أن تخرج مفكرة من معطفها كما فعل كاسوف. نظر غريزيًا حوله بحثًا عن الكاميرات المنتشرة.

كيف سأصل إلى ترامنيتز من هنا بحق الجحيم؟

قالت سينغر:

— "الإفطار من السابعة والنصف حتى الثامنة والنصف، والغداء بين الثانية عشرة والنصف والواحدة والنصف. أما العشاء فيبدأ من السادسة ولمدة ساعة. لذا لا يزال لديك وقت لتصطف الآن."

كانت مجموعة من الأشخاص، معظمهم من الرجال، يقفون عند نقطة التقديم، ينتظرون طباخًا ذا وجه مستدير وملامح طيبة ليغرف لهم الأطباق.

— "يُسمح لك بالخروج من الواحدة والنصف حتى الثانية والنصف كل بعد ظهر. ومن العاشرة ليلاً حتى السابعة صباحًا، يُغلق على جميع المرضى داخل غرفهم."

سأل تيل:

— "لماذا؟"

— "لماذا نغلق عليك؟"

– "لا. لماذا الجو مسترخٍ هكذا هنا في القسم الثالث؟"

اقتادته إلى منصة خدمة ذاتية في وسط المقصف حيث تتوفر السكر والحليب والتوابل والمشروبات. لاحظ تيل أن جميع الأطباق والأكواب والأدوات مصنوعة من بلاستيك (Tupperware) غير الحاد، مثل تلك التي تُعطى للأطفال الصغار لمنعهم من إيذاء أنفسهم.

أخذت سينغر كوبًا وملأته بـ(كولا دايت).

– "دعني أسألك سؤالاً: لماذا أنت هنا؟"

– "أنتِ تعرفين ملفي."

– "أريد أن أسمع ذلك من لسانك."

– "من أين أبدأ؟"

– "باسمك."

– "هذا عبث."

بينما كان تيل يتلفت حوله، لاحظ أنه لم يصادف ممرضًا أو حارسًا واحدًا منذ مغادرته غرفة التدخل في الأزمات.

قالت الطبيبة:

– "هنا في القسم الثالث لدينا ثلاثة وعشرون مريضًا. ثلاثة منهم يعانون من فقدان ذاكرة دائم، وأحدهم لا يتذكر حتى نفسه. ماذا عنك؟"

تنهد تيل. هل هذا اختبار؟

– "اسمي باتريك وينتر، أبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا، وأعمل كخبير تأمين. وأريد أن أموت."

– "لماذا؟"

– "لماذا يجب أن أستمر في العيش؟"

- "نقطة جيدة."

أخذت الرشفة الأولى من الكولا. ثم خرجت الأمور عن السيطرة. لم يكن تيل يتوقع ذلك، وبالتأكيد لم تكن المديرة تتوقعه أيضًا. لم يستطيعا صد الهجوم لأنه حدث بسرعة فائقة.

الفصل التاسع عشر

ظهر المريض من حيث لا يدري أحد، رغم أنه كان يحمل صينية ممتلئة أمام صدره الهزيل. بدا مريضًا، وليس نفسيًا فحسب؛ وجنتاه غائرتان وجبهته عالية ملساء، كأنها جمجمة غطاها جلد رقيق. هكذا فكر تيل حين حياه الرجل بقوله:

– "أهلاً أيها الوغد!"

ثم اصطدم به. شعر تيل بشيء لزج في عينه. دافئ، يحرق، وحلو المذاق.. وهذا كان أقذر شيء على الإطلاق، لأنه حين شم طعمه ورائحته، أدرك أن الرجل قد بصق في وجهه، وأن البصاق قد سال إلى فمه.

– "ماذا..."

مسح تيل شفتيه بكمه وهمَّ بمطاردة هذا المعتوه ليحطم وجهه، لكن البروفيسورة سينغر أمسكت به بقبضة قوية بشكل مذهل. لو أنها رفعت صوتها أو صرخت، لربما زاد ذلك من اشتعال الغضب الذي انفجر بداخله فجأة. لكنها حين همست، أربكت تيل، وفوت عليه ارتباكه فرصة الهجوم على ذلك النذل من الخلف.

قالت ثيا سينغر:

– "حسنًا، دعني أقدم لك ثلاث نصائح." كانت قريبة منه لدرجة أنه شم رائحة شامبو اللافندر المنبعث منها. "أولاً: ابتعد عن كاسوف، فهو وغد كبير."

بينما كان تيل يتساءل لماذا تستخدم طبيبة نفسية لغة كهذه، تابعت: "ثانيًا: المعتوه الذي بصق في وجهك للتو يدعى أرمين وولف. إذا لم تنتبه لنفسك، فسيقتلك هنا أسرع مما قد تقتل به نفسك."

– "ولكن لماذا——"

– "وأخيرًا وليس آخرًا، العجوز المتطفلة التي ظهرت للتو..."

التفت تيل ورأى الوجه المحتقن لامرأة غاضبة جدًا تقطع المقصف بخطوات سريعة وواسعة، وفكاها مشدودان، وكلتا يديها مقبوضتان.

صرخت قائلة:

– "ليس مرة أخرى!"

تساءل تيل من أو ماذا تقصد هذه المرأة في منتصف العمر بشعرها الرمادي المرفوع. وحين اقتربت بما يكفي ليشتم رائحة النعناع في أنفاسها، أدرك أن صرختها "لقد طفح الكيل!" كانت موجهة لـثيا وليس له.

– "أعيدي المعطف الطبي إليّ الآن."

همست ثيا، التي بالطبع لم تكن تدعى ثيا ولا هي مديرة المستشفى:

– "العجوز معها حق تمامًا."

بخلاف الشخصية التي ترتدي بدلة نسائية رسمية ووقفت أمامهما توبخ المريضة الواقفة بجانب تيل:

— "أعيدي إليّ معطفي واذهبي إلى غرفتك. سيكون لهذا التصرف عواقب يا سيدة سوهارتو."

الفصل العشرون

– "أرجو أن تقبل اعتذاري يا سيد وينتر."

عدلت البروفيسورة ثيا سينغر ياقة معطفها المرفوعة، الذي استعادته من المريضة وارتدته. جلست خلف المكتب الذي كان تيل قد جلس أمامه بالفعل. كان مكتب المديرة في الجناح الغربي، ويطل على الساحة. كانت الإضاءة الخارجية في هذا الجزء من المبنى أقوى، مثل كشافات الملاعب، لدواعي أمنية على الأرجح. تعجب تيل من مساحة الحديقة الواسعة في شتاين كلينيك، التي تقع طابقًا واحدًا تحتهم وتذكر بمشهد رومانسي لتلال مغطاة بالضباب. وبقليل من الخيال، يمكنك تصور ممرات متعرجة تصطف على جانبيها أشجار الفاكهة تؤدي إلى البحر خلف تلال تشبه الكثبان الرملية – أو على الأقل إلى بحيرة، وليس إلى سياج خرساني بارتفاع ثلاثة أمتار مدعم بأسلاك شائكة، تقلع فوقه الطائرات أو تهبط بانتظام. ومع ذلك، كانت النوافذ الأمنية السميكة تحجب ضجيج الطائرات تمامًا.

قالت سينغر وهي تلتفت نحو النافذة خلفها وتشير إلى رؤس الأشجار التي تتمايل بفعل الرياح:

– "نحن غارقون حرفيًا في المياه هنا في الوقت الحالي. واجهنا مشاكل في معدات الضخ ولم نتمكن من إخلاء طريق الوصول من

المياه. لقد غمرت المياه مدخلنا الرئيسي وكنت هناك لأطلع على الوضع."

تنهدت وتابعت:

– "من الواضح أن زميلتك المريضة استغلت الفرصة لتسرق معطفي من غرفة الممرضات. لكنني لا أفهم كيف تمكنتَ من مغادرة غرفة العزل دون إشراف يا سيد وينتر."

– "الدكتور كاسوف هو من——"

– "حقًا؟" بدت سينغر مندهشة للحظة، ثم قالت: "نعم، في الواقع كان ذلك متفقًا عليه."

دونّت ملاحظة على مفكرة تحمل شعار شركة أدوية، ومزقت الورقة ووضعتها في جيب معطفها.

– "كيف حالك؟"

أجاب تيل آليًا:

– "بخير." وهو الجواب الذي يطلقه معظم الناس حين يسألهم غريب. ثم خطر له أنه كان يجب أن يمسك برأسه ويتوجع. لكنه لم يرد المبالغة؛ كان متأكداً أن المديرة خبيرة في تمييز المدعين من المرضى الحقيقيين. خاصة وأن زميلها كاسوف بدا وكأنه قد كشفه بالفعل، رغم أن تيل لم يجد تفسيرًا لكيفية انكشاف أمره بهذه السرعة.

مخادع!

كان عليه الوصول إلى الهاتف المحمول المخصص للطوارئ في المكتبة في أسرع وقت، والاتصال بسكانيا ليعرف إن كان يعرف شيئًا عن كاسوف وعلاقته بباتريك وينتر.

سألت سينغر:

– "كيف تتعامل مع الدواء؟"

– "المهدئ؟"

– "كنت أفكر في الواقع في حقنة (الديبوت) التي أعطيناك إياها. مضاد الذهان."

– "ما هذا بحق الجحيم؟"

عض تيل لسانه لأنه أجاب بتلقائية كرجل إطفاء فظ، وليس كعالم رياضيات قد يعرف بحكم عمله في شركة تأمين صحي عما تتحدث عنه الطبيبة.

أوضحت سينغر، التي يبدو أن شكوكها لم تثر: "إنه يتحكم في رغبتك في إيذاء نفسك. حقنة (الديبوت) غالبًا ما يستمر مفعولها لشهر أو أكثر وتغني عن الحاجة لجرعة دواء يومية في القسم النفسي."

وهذا يجعل من المستحيل خداع الناس. تباً.

كان تيل يأمل في بصق الأقراص التي يعطونها له، لكن عليه نسيان ذلك الآن. سأل:

– "هل هذا العلاج القسري مصرح به قانونًا؟"

بدا أن السؤال باغت سينغر. صمتت لفترة طويلة وهي ترفع حاجبيها، ثم دونت ملاحظة أخرى قبل أن تجيبه:

– "يمكنك افتراض ذلك، نعم." نهضت وطلبت منه اللحاق بها.

– "كم سأبقى هنا؟"

توقفت سينغر واستخدمت حيلة الأطباء النفسيين التقليدية بالإجابة بسؤال:

- "كم تعتقد أنك ستحتاج للبقاء معنا هنا؟"

طالما لزم الأمر لأعرف الحقيقة من ترامنيتز.

وبالحديث عن ترامنيتز... بالطبع لم يستطع الكشف عن نواياه الحقيقية لأي شخص هنا، وبالتأكيد ليس للمديرة، لكنه بطريقة ما احتاج للوصول إلى معلومات عن ذلك الوغد المنحرف بأسرع ما يمكن. قرر تيل أن سؤالاً ساذجاً تماماً قد لا يمنحه الأمل في النجاح، لكنه على الأقل لن يضر.

- "هل ترامنيتز في هذا القسم أيضاً؟"

عقدت سينغر حاجبيها:

- "من الغريب أن تسأل أنت بالذات عن ذلك. لا تعليق."

ماذا قصدت بكلمتي "غريب" و"أنت بالذات"؟

حاول تيل الاستقصاء أكثر:

- "قالوا في التلفاز إن قاتل الأطفال هنا."

- "مرة أخرى، لا يمكنني مناقشة حالات المرضى الآخرين معك."

- "هل هو قريب مني؟"

ظل هذا السؤال بلا إجابة أيضاً. كاد تيل يعبر عن قلقه من تنفس الهواء نفسه مع وحش عنيف كهذا، لكنه تذكر في الوقت المناسب أن هذا الكلام قد لا يبدو مقنعاً من شخص حاول للتو إنهاء حياته.

مرا بنافذة في الممر فتوقف تيل مذهولاً:

- "هل تلك محطة حافلات بالخارج؟"

تراجعت سينغر خطوتين ونظرت عبر النافذة أيضاً. هنا في الجانب الشرقي من المستشفى، كانت الممرات المعبدة أوسع منها في الجانب

الغربي عند مكتبها. وكما استطاع تيل التمييز في ضوء المصابيح، فإن الأشجار الكبيرة تظلل المكان نهاراً، وقد فقد بعضها أوراقه التي كانت الرياح تذروها عبر الحشائش الخضراء.

– "نعم، إنها محطة حافلات."

– "لماذا؟"

هزت سينغر كتفيها وأشارت لـتيل بمواصلة السير:

– "لست من المعجبين بالفكرة، لكنني أعترف أنها نجحت."

انعطفا يميناً حيث كان الحارس الأسمر بانتظارهما، وهو نفسه الذي قابله تيل بالأمس عند البوابة الأمنية.

– "أي فكرة؟"

– "أحياناً يكون لدينا مرضى يعانون من مشاكل في الذاكرة قصيرة المدى. ينسون سبب احتجازهم هنا ويصبحون قلقين، عصبيين، وعنيفين أحياناً. إذا لاحظنا هياج هؤلاء المرضى، نسمح لهم بالجلوس هناك بانتظار الحافلة التي ستأخذهم بعيداً عن المستشفى." بدا ردها وكأنها كررته مئات المرات من قبل.

فتح الحارس، الذي سبقهما، باباً إلكترونياً مزدوجاً عبر مفتاح في الجدار ودخل الثلاثة إلى ردهة زنازين بلا نوافذ.

قالت سينغر:

– "شكراً يا سايمون."

وعرف تيل الآن اسم الحارس الأسمر مفتول العضلات ذي الوجه الودود المسترخي. تابعت الطبيبة:

– "بعد بضع دقائق، ينسى هؤلاء المرضى لماذا يجلسون هناك وإلى أين يريدون الذهاب. يهدأون ويمكنهم العودة إلى الداخل."

– "والحافلة لا تأتي أبداً، أليس كذلك؟"

خلفهما، انغلق الباب المزدوج بدوي عالٍ. كان تيل الوحيد الذي جفل.

قالت:

– "ليست الحافلة رقم ٦٩ التي تذهب للمحطة، كما هو مكتوب في جدول المواعيد بالمحطة. بل حافلة المكتبة الخاصة بنا التي تقف هناك ثلاث مرات في الأسبوع. يمكن للمرضى ركوبها واستعارة الكتب إن أرادوا."

– "هي التي تقود الحافلة."

سمع تيل صوت صهره في رأسه وارتجف. مرا بعدد من الأبواب الأمنية المتينة، في كل منها فتحتان تفتحان للخارج؛ واحدة بمستوى العين، والأخرى في الأسفل مثل فتحات القطط، يمكن عبرها إدخال صينية الطعام للزنزانة.

سأل تيل:

– "هل وظفتم سائقة حافلة لهذا الغرض تحديداً؟"

– "لا، بل مريضة."

سيـدا، هكذا فكر تيل. لقد ذكر سكانيا الاسم له.

هل اتصالي الوحيد هنا مجرد مريضة؟

قالت الطبيبة:

– "لقد كان هذا عملها السابق، كما ترى. كانت تقود مكتبة (ستيغليتز) المتنقلة. لكنني أخشى بعد تصرفها اليوم أننا سنضطر لسحب ذلك الامتياز منها."

سأل تيل:

– "تصرفها؟"

– "حسناً، إذا لم تعرف السيدة بنفسها، فقد قلتُ أكثر مما يجب."

أدرك تيل أن الطبيبة لا بد أن تقصد المعطف المسروق والتمثيلية في المقصف.

سألته:

– "هل لديك أي أسئلة أخرى؟"

نعم، لديه مليون سؤال. هز تيل رأسه قائلاً:

– "ليس في الوقت الحالي."

– "جيد. سيغلق سايمون غرفتك الآن. نلتقي في الجولة الصباحية المبكرة. طابت ليلتك."

راقب المديرة وهي تعود من حيث جاءت بخطوات متمايلة قليلاً. ثم طلب منه الحارس المتابعة قليلاً حتى وصلا للباب رقم ١٣١٠. أخرج سايمون مفتاحاً طويلاً من جيبه وفتح القفل.

هجمت على أنف تيل خليط من روائح الجوارب القديمة والعرق والمطهرات. في الظروف العادية لا يحب الغرف المغلقة، ولكن هنا، ومع إحساس بمخالب رهاب الأماكن المغلقة تقبض على صدره، ازداد الكابوس سوءاً مع كل خطوة داخل الغرفة المربعة.

قال سايمون بصوت منخفض:

– "ها قد وصلنا." لم يتأكد تيل، لكن تعبيرات وجه الحارس ونبرة صوته كانت توحي ببعض الارتباك. كما فوجئ تيل برؤية رجل نائم على السرير السفلي، ووجهه محجوب بظل الفراش العلوي.

– "أليس لي زنزانة خاصة بي؟"

أخرج سايمون هاتفه وضغط زراً يوصله بمسؤوله:

– "معك سايمون. سؤال سريع، باتريك وينتر في الغرفة ١٣١٠، هل هذا صحيح؟" وبعد "شكراً" مقتضبة، أغلق الخط. التفت لـتيل: "كل شيء على ما يرام. زميلك في الغرفة نائم بالفعل. وعليك أن تنام أنت أيضاً في أسرع وقت. غداً سيكون يوماً طويلاً يا سيد وينتر."

احتج تيل:

– "انتظر لحظة، أريد زنزانة منفردة."

صحح له الحارس قائلاً: "غرفة منفردة." وهز رأسه متابعاً: "كما ترى، لا يمكن ذلك. المكان مكتظ هنا."

انغلق الباب بنعومة مذهلة، لكن الطقطقة المعدنية للمزاليج المتعددة بدت وكأنها لا تنتهي. وأخيراً، ساد الهدوء فيما لن يسميه تيل أبداً غرفة، بل زنزانة أو سجن. كان الباب السميك يحجب معظم الأصوات من بقية المؤسسة. في تلك اللحظة لم يسمع تيل سوى وقع المطر على النافذة الصغيرة المرتفعة. ثم امتلأت الغرفة بصوت أجش كان قد تعرف عليه بالفعل.

– "أهلاً أيها الوغد."

نظر تيل للأسفل. كان زميله قد اعتدل في جلسته. تحسس تيل وجهه وفرك جفنه لا إرادياً؛ فذكرى تلك البصقة كانت تحرقه أكثر من البصقة نفسها.

كان صوت (سيدا) لا يزال يرن في أذنيه: «المعتوه الذي بصق في وجهك للتو يدعى أرمين وولف. إذا لم تنتبه لنفسك، فسيقتلك هنا أسرع مما قد تقتل به نفسك». عندها وجه إليه الرجل لكمة قوية جداً في وجهه.

وحين ارتطم رأس تيل بالأرضية الخرسانية الصلبة، ألقت قضبان النافذة بظلالها على وجه خصمه، الذي بدا في الضوء الشاحب كأنه جمجمة غطاها جلد رقيق.

الفصل الواحد والعشرون

كان الأمر أشبه بقنبلة طلاء أحمر انفجرت خلف شبكية عينه.

عندما ارتطم بالأرض، تركز الألم أولاً في بقعة وسط مجال رؤيته تقريبًا، ثم انتشر نحو الأطراف قبل أن يرى تيل الوجه الذي يطفو فوقه وكأنه ينظر عبر مرشح ملطخ بالدماء.

قال أرمين وولف وهو يركله في جنبه:

— "يجب أن أعترف لك بهذا. أنت تملك جرأة لا تُنكر. لو كنت مكانك لتوسلت للحصول على زنزانة أخرى."

لكنني لم أكن أعرف مع من يحبسونني.

لم أكن أعرف حتى أنني سأضطر لمشاركة الزنزانة مع مجنون.

لم يكن تيل في حالة تسمح له بالتعبير عن أفكاره. كان يفتقر إلى الهواء والقوة لنطق كلمة واحدة. ترافق الألم في رأسه وظهره وكليتيه مع إدراك أنه محبوس في أضيق المساحات مع سيكوباتي قاتل — ومرة أخرى، أطبق عليه مخلب رهاب الأماكن المغلقة وكأنه ملزمة.

— "ماذا كنت تريد من سينغر، تلك العجوز الشمطاء؟ هل أخبرتها عني؟"

أنك بصقت عليّ في وقت سابق؟

ساعدته هذه الفكرة العبثية على ترتيب أفكاره قليلاً. مد ذراعه أملاً ألا يكسر أرمين معصمه، وسعل بعض البلغم على الأرض ثم لهث قائلاً:

– "لا، لا. لم نتحدث عنك على الإطلاق."

تحرك أرمين خطوة إلى الجانب، وهو ما يعني في هذه الزنزانة الصغيرة أنه أصبح عند الباب بالفعل. ضغط بأذنه على الفتحة ووضع سبابته على شفتيه.

لا شيء.

بدا راضيًا بوضوح، فعاد إلى تيل الذي كان قد زحف في تلك الأثناء نحو النافذة واستند بظهره إلى الجدار بين المرحاض والحوض. فكر للحظة في الانقضاض على أرمين من الخلف. لكن الرجل لم يكن أطول منه برأس فحسب، بل كان في حالة بدنية أفضل بكثير. ما فقده تيل من كتلة جسمانية وعضلات منذ اختفاء ابنه، كان ظاهرًا بضعفين أو ثلاثة في جبال العضلات الثنائية والثلاثية الرؤوس على ذراعي أرمين وصدره. بحركات قططية، كان الرجل يجول كمقاتل شوارع متمرس وكأنه يطوّف فوق أرضية الزنزانة.

لم يكن هناك شك في ذلك. في مواجهة مباشرة، كان تيل هو الطرف الخاسر بلا أمل.

ابتعد أرمين عن الباب مرة أخرى وعاد إلى تيل.

– "حسنًا، الوغد الأسود يقوم بجولته الآن."

كاشفًا بذلك عن عنصريته أيضًا.

تابع قائلاً:

– "سايمون يختلس النظر عبر الفتحة كل خمس وأربعين دقيقة فقط. مما يعني أن لدينا ثلاثة أرباع الساعة لندردش بلطافة."

مع تلك الكلمة الأخيرة، غرس قبضته في معدة تيل. أراد تيل أن يصرخ، لكن الألم كان عظيمًا لدرجة أنه لم يستطع إصدار صوت.

أصابته ضربة ثانية على فمه. ارتطم رأسه بالجدار خلفه وشعر بسن واحد على الأقل يتخلخل.

هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ لا تضع وافدًا جديدًا في زنزانة مع مجنون قاتل!

لم يكن من المرجح أن يسمع أحد صرخاته لطلب النجدة هنا — بافتراض أنه يستطيع استجماع أنفاسه بما يكفي — وعلى هذه الأرضية الباردة، كان تيل بعيدًا عن أي أشياء يمكنه إسقاطها أو قذفها ضد الباب لإشعار أحد بوجوده.

ولرعبه، رأى — بعين واحدة الآن، إذ تورمت الأخرى تمامًا — أرمين يخلع جوربه، ويفترض أنه سيكمم فمه به.

هسهس تيل بصوت مبحوح، وبالكاد تمكن من إصدار أكثر من همهمة:

— "توقف."

اقترب أرمين، واندفع نحوه، ومن بين كل الأفكار المجنونة التي تسابقت في رأس تيل، برزت مقابلة تلفزيونية شاهدها مع مفتش في مترو الأنفاق. عندما سُئل المفتش عن النصيحة التي يقدمها للناس الذين يتعرضون للهجوم في وسائل النقل العام، كانت إجابته: «شتت انتباه العدو!»

فحشرج تيل بأعلى صوت استطاعه، والذي كان أعلى قليلاً فقط من الهمس:

– "أمك!"

بدا أن ملاحظته العبثية كان لها تأثير.

– "ماذا؟"

تردد أرمين. وحامت قبضته أمام وجه تيل مثل كرة هدم توقفت في مسارها.

– "ماذا عن أمي؟"

وفقًا للمفتش، كان هذا هو الوقت المناسب للهرب. ولكن بسبب انعدام إمكانيات الهروب، قرر تيل أنه بدلاً من الركض للنجاة بحياته، سيكثر من الكلام للنجاة بها.

سأل أرمين:

– "فقط أخبرني لماذا؟"

– "لماذا ماذا؟"

– "ما الذي لديك ضدي؟"

– "أنت تستحق الموت لمجرد طرحك هذا السؤال."

أمسك أرمين بضمادة تيل وجذب رأسه للخلف بعنف، ولكن قبل أن يتمكن من حشر الجورب الملفوف في فمه، تمكن تيل من السؤال:

– "كيف تعرفني أصلاً؟"

للحظة بدا أرمين أكثر ارتباكًا مما كان عليه بعد ذكر أمه.

– "أنا أعرف نوعيتك. كل حثالة العالم. كلكم سواء."

– "كيف؟"

– "كيف أعرفك؟"

أومأ تيل برأسه.

لارتياحه، بدا أن السؤال نجح وفقد أرمين تسلسل أفكاره مرة أخرى. ترك رأس تيل وتراجع خطوة للوراء. ثم حك مؤخرة عنقه وقطب جبينه وكأنه يفكر بجدية في إجابة. عندما نطق بها، كان تيل هو من لم يفهم هذه المرة.

– "كان والدي باحثًا."

عض تيل على لسانه.

– "ماذا؟"

لماذا لا تتوقف عن الثرثرة أيها الأحمق؟ دعه يتحدث! لا تقاطعه!

ضحك أرمين باقتضاب.

– "هل تقول إنه ليس لديك أدنى فكرة عما أتحدث عنه؟ حسنًا. دعني أساعدك."

ركل أرمين تيل بين ساقيه. لم يكن الألم ليكون أكثر فظاعة لو سكب أرمين البنزين عليه وأشعل عود ثقاب. شعر وكأنه حيوان بري محبوس يحاول يائسًا اختراق القفص في جميع الاتجاهات. لهث، وتأوه، وحشرج، وضغط بيديه على فخذه، لكن كان بإمكانه غسل أسنانه بنفس الجدوى؛ لم يكن لأي وضعية جسدية أو قبضة أن تخفف من القصف الذي يهاجم منطقة بطنه بالكامل. ربما حقنة مورفين مباشرة في خصيتيه...

ضحك أرمين مرة أخرى.

– "نعم، هذا صحيح. أمسك بخصيتيك للمرة الأخيرة. لن تحتاج إليهما مرة أخرى على أي حال يا وينتر. وبينما أنت متمسك بأجزائك الرخوة، ربما يمكنك أن تبدأ في استيعاب ما أعانيه بسبب حثالة مثلك."

العالم، الذي تحول بالنسبة لتيل إلى زنزانة مساحتها تسعة أمتار مربعة من الألم الذي لا يوصف، كان يدور الآن مثل عربة في مدينة الملاهي. استطاع تيل تذوق العصارة الصفراوية، ربما لأنه كان يتقيأ. لكنه لم يكن متأكدًا.

لم يكن وعيه حاضرًا إلا بالنصف الآن. الخمسون بالمائة المتبقية كانت تسبح في محيط من الألم. وفي مكان ما في المسافة البعيدة، امتزج هدير الأمواج بصوت أرمين وولف.

– "كما كنت أقول، كان والدي باحثًا. وكان مجال بحثه الرئيسي هو الألم. كان حريصًا على معرفة ما يمكن لابنه تحمله. طردوه من الجامعة عندما أظهر اهتمامًا مبالغًا فيه بأجزاء الجسم في قسم التشريح. حتى الجيش لم يرغب في قبوله كطالب طب، لذا اضطر للدراسة في المنزل. وكان موضوع دراسته المفضل هو أنا."

انحنى نحو تيل وبدا كأنه يبتسم له.

– "هل خف الألم الآن؟"

سأله وهو يربت على كتفه بشكل أبوي تقريبًا. كان تيل قد اتخذ وضعية ثابتة على جانبه وكان يلهث وكأنه في مخاض الولادة.

– "حسنًا، هو لم يفعل ذلك بي. لأن أبي أراد معرفة كم من الوقت يمكن لصبيه الصغير أن يصمد دون الذهاب إلى المرحاض. أخذني إلى ورشته في القبو، وربطني بسرير تخييم وربط قضيبي الصغير. بخيط طرود لعين."

وقف أرمين مرة أخرى. تجول جيئة وذهابًا بجانب تيل، الذي كان مقتنعًا بأنه لن يتمكن من اتخاذ خطوة أخرى في حياته أبدًا.

– "بعد يوم واحد، كان الألم يقودني للجنون. صرخت مناديًا أمي، لكنها لم تأتِ. بعد ست وثلاثين ساعة انفجرت مثانتي."

يا إلهي.

رغم عذابه المبرح، أدرك تيل أن ما يُجبر على تحمله هنا لا يقترب مما عاناه أرمين كطفل. بافتراض، بالطبع، أن المجنون كان يقول الحقيقة.

– "لم يمر يوم واحد منذ ذلك الحين دون أن أفكر في والدي العزيز ثلاث مرات على الأقل لمدة ثلاثة أرباع الساعة. هذا هو الوقت الذي أستغرقه لتفريغ مثانتي المدمرة، كما ترى."

بطريقة ما تمكن تيل من التدحرج بعيدًا عن أرمين نحو الجدار الخارجي. بل وتمكن حتى من الجلوس منتصبًا مع ضم ركبتيه إلى صدره.

حشرج صوته وهو يبصق كتلة من البلغم على الأرض:

– "لا أفهم ما علاقة أي من هذا بي."

متى سيعود سايمون؟

عرف تيل أن الخمس وأربعين دقيقة كانت بعيدة عن الانتهاء، رغم أن جسده شعر وكأنه شاخ سنوات.

سمع أرمين يقول:

– "أنا أكره كل من يسيء للأطفال."

– "و؟"

– "و؟"

وجه له رفيقه في الزنزانة، المجنون بوضوح، ركلة أخرى في جنبه، وإن لم تكن بقوة سابقتها.

مهلاً، مهلاً. أنا أحب الأطفال. لدي أطفال بنفسي. لن أفعل شيئًا لهم أبدًا. أراد تيل قول ذلك، لكنه أدرك حينها أنه يجب أن يتحدث بلسان باتريك وينتر لا بلسانه هو. رجل بالكاد يعرف خلفيته. حتى الآن لم يكن يعرف سوى بشكل غامض أن الرجل ربما كان مكتئبًا.

سكانيا، هوية من أعطيتني؟

ماذا قالت المديرة في وقت سابق عندما سألها عن ترامنيتز؟ «كم هو غريب أن تسأل أنت بالذات عن ذلك».

سأل أرمين:

— "ماذا فعلت؟"

— "هل جننت؟"

نقر أرمين على جبينه، متجاهلاً بوضوح السخرية في طرح سؤال كهذا في مستشفى للأمراض النفسية.

شعر تيل بالإغماء وقال كاذبًا:

— "أنا، أنا... الدكتورة سينغر تقول إنني مصاب بفقدان الذاكرة."

— "ماذا؟"

واصل تيل نسج كذبته:

— "الأدوية. جسدي لا يتحمل الحقنة طويلة المفعول. لا أتذكر أي شيء قبل دخولي."

— "هل تخبرني أنك لا تعرف سبب وجودك هنا؟"

نظر إليه أرمين كما قد ينظر أب لطفله الذي ضبطه للتو وهو يكذب.

– "نعم. حاولت إحراق نفسي. أنا... أعني، لا أستطيع تذكر ما دفعني لفعل ذلك."

– "هممم."

نظر أرمين إلى النافذة، التي كانت قطرات المطر بحجم العملات المعدنية ترتطم بها مثل الذباب على الزجاج الأمامي. لفترة طويلة، كان المطر وصوت تنفس تيل هما الصوتان الوحيدان المسموعان داخل الزنزانة. حتى قال أرمين:

– "حسنًا، لديك خمس دقائق."

– "لماذا؟"

– "لقراءة هذا."

أنزل أرمين سرواله الرياضي، ثم ملابسه الداخلية، ووقف مباعدًا بين ساقيه، وانحنى قليلاً للأمام ومد يده إلى مؤخرته. بعد فترة وجيزة، كان يمسك بواقي ذكري، بدا في الضوء القادم وكأنه غلاف سجق متعفن. أزال أرمين الشريط المطاطي وسحب لفافة ورق على شكل سيجار.

ناول الورقة لتيل، الذي تغلب على اشمئزازه وفردها بجهد قبل أن يغير رأيه. كانت الورقة دافئة ورطبة.

سأله:

– "ما هذا بحق الجحيم؟"

هسهس أرمين فيه:

– "لا تثير غضبي. لديك خمس دقائق. اقرأها! ثم سأريك ما هو الألم الحقيقي."

الفصل الثاني والعشرون

كانت ورقة واحدة، مطبوعة على الوجهين. في الزاوية العلوية اليسرى كانت هناك سلسلة من الرموز بدت وكأنها كلمة مرور معقدة: PW12_7hjg+JusA. في الواقع، كانت مرجعًا لملف قضية، كما استطاع تيل أن يرى بوضوح من العنوان:

محضر محاكمة باتريك وينتر

بدأ المحضر في منتصف جملة؛ كان هناك عدد من الصفحات المفقودة. وبشكل غريب، احتوى النص على الشهادة الكاملة للمتهم. عادة ما يُنشر ملخص فقط مع كلام غير مباشر على الأكثر. ولكن رغم أن الأمر تطلب بعض الجهد في الضوء الباهت القادم من المصابيح الخارجية، كان تيل قادرًا هنا على قراءة كلمة بكلمة ما أجاب به المتهم باتريك وينتر (ب.و) على الأسئلة الدقيقة للمدعي العام (م.ع).

... يطلب كوبًا من الماء. بعد انقطاع قصير تستمر الشهادة.

ب.و: آسف.

م.ع: لا مشكلة سيد وينتر. الآن، دعنا نعد إلى ظهيرة يوم 20 يوليو. قبل كم من الوقت خططت للقيام بذلك؟

ب.و: وقت طويل. منذ ولادته، في الواقع.

م.ع: لماذا؟

ب.و: عفوًا؟

م.ع: ما كان دافعك؟ أعني، لديك ابنة في الخامسة من عمرها، فريدا. وكما استمعت المحكمة بالفعل، وصفك المقربون منك بأنك أب محب، سيد وينتر. إذن لماذا هذا التغير في المشاعر؟

ب.و: كان ذلك في الملف.

م.ع: أي ملف؟

ب.و: زوجتي وأنا، كان لدينا اتفاق. ليندا تأخذ الأطفال إلى الروضة في الصباح، مما يسمح لي بالبدء مبكرًا في شركة التأمين. ثم أقلهم أنا بعد الظهر إذا لم يكن هناك ما يؤخرني.

م.ع: هل كنت تتأخر كثيرًا؟

ب.و: لسوء الحظ كنت كذلك مع مرور الوقت.

م.ع: أنت خبير اكتواري. هل يمكنك أن تصف بإيجاز طبيعة عملك للمحكمة؟

ب.و: بإيجاز؟ حسنًا، لصاحب عملي الحالي، زانتيا، أقوم بحساب نماذج التأمين والأقساط. على سبيل المثال، أنتج خوارزميات المخاطر بناءً على التوقعات الديموغرافية.

م.ع: هل يمكنك إعطاؤنا مثالاً ملموسًا؟

ب.و: بالطبع. إذا كان (qx) يمثل احتمالية وفاة شخص يبلغ من العمر (x) في العام التالي، و (ω0) يتوافق مع الحد الأقصى المعتاد للعمر المحدد في الممارسة، إذن، كما هو معروف: qx = 0 f.a. x أكبر من أو يساوي ω0. الآن إذا أخذنا السنوات المتبقية العشوائية من الحياة Tx... عفوا؟

م.ع: شكرًا لك. ما عنيته حقًا هو مثال يمكن لنا جميعًا هنا فهمه.

كاد تيل يسمع القهقهات في معرض الجمهور، بافتراض أنه سُمح للجمهور بمشاهدة هذه المحاكمة.

يا إلهي، ذلك الباتريك وينتر كان حقًا عبقريًا!

إذا كنت سأنجو هذه الليلة هنا، سأضطر للتظاهر بأنني "رجل المطر"!

م.ع: دعني أسألك سؤالاً آخر. كأب، هل تأخذ العمل معك إلى المنزل أحيانًا؟

ب.و: هذا صحيح. لدي بند العمل من المنزل في عقدي.

م.ع: وهذا ما كنت تفعله في اليوم السابق لـ 20 يوليو؟

ب.و: نعم.

م.ع: هل يمكنك إخبار المحكمة بما علاقة الملف الذي أخذته إلى المنزل في ذلك اليوم بمثالنا الملموس؟

ب.و: نعم، لا. لا أعرف. الأمر معقد.

م.ع: خذ وقتك.

بدأت الورقة في يدي تيل تهتز. لم يجرؤ على النظر لأعلى خوفًا من أن يسيء أرمين تفسير ذلك كإشارة على أنه انتهى من القراءة بالفعل — ولم يترك رفيقه في الزنزانة مجالاً للشك فيما سيحدث بعد ذلك. («ثم سأريك ما هو الألم الحقيقي.»)

من ناحية أخرى، لم يرغب في قراءة المزيد، رغم أنه لم يستطع فهم ما الذي أثر فيه بشدة في تلك السطور القليلة لدرجة أن قلبه كان يعمل داخل صدره مثل المثقاب.

كان تيل خائفًا من شهادة باتريك وينتر. كان يعلم أنها لا يمكن أن تروي سوى قصة بأسوأ النهايات الممكنة. ومع ذلك لم يكن لديه خيار آخر، وعادت عيناه إلى المكان الذي توقف فيه.

م.ع: ماذا كان في الملف الأخير الذي أخذته إلى المنزل؟

ب.و: ظننت أنه يحتوي على جداول الوفيات، أي إعادة حسابات احتمالية الوفاة بين السكان في مجالات التأمين الخطرة بشكل خاص.

م.ع: لكن لم تكن تلك المعلومات الموجودة في الملف؟

ب.و: لا.

م.ع: ماذا كان فيه؟

ب.و: شيء عني.

م.ع: ماذا قال عنك بالتحديد، سيد وينتر؟

ب.و: قال ما فعلته.

م.ع: هل يمكنك إخبارنا المزيد؟

ب.و: منذ ولادته. منذ ولادة جوناس كانت تراودني هذه الرغبات. رغبات فظيعة وغير طبيعية.

م.ع: وكانت هذه في الملف؟

ب.و: رغباتي وأفعالي. أفعال مروعة.

يا إلهي، سكانيا. أخبرني أن هذا ليس صحيحًا! باتريك وينتر لديه طفل ثانٍ!

أو كان لديه؟

في هذه النقطة، أشار المحضر إلى انقطاع طفيف لأن وينتر كان يشعر بالإعياء. في النهاية استمرت شهادته من حيث توقفت.

ب.و: ليس لدي أي فكرة كيف يمكن لأي شخص في زانتيا معرفة آثامي. لم أخبر أحدًا عنها أبدًا وكان من المستحيل أن يجمع موظف آخر في شركة التأمين هذه الوثيقة. أعني، فتحت الملف وكان الأمر كما لو كنت أنظر داخل رأسي.

م.ع: هل تقول إنك لم تكن تقرأ فقط عما فعلته، بل عن أفكارك أيضًا؟

ب.و: كان الأمر مثل لمحة في أحلك أعماق روحي.

م.ع: هل يمكنك من فضلك إعطاء المحكمة بعض التفاصيل الإضافية؟

ب.و: قرأت عما حدث في يوم معين في الخريف. في الثانية والنصف بعد الظهر. أخذت ليندا فريدا للسباحة. كان جوناس في عامه الأول فقط. أخذته إلى القبو. لدينا ساونا صغيرة، كما ترون. كانت دائمًا مزعجة لأن الباب كان يعلق باستمرار. المالك السابق للمنزل لم يقم بصيانتها بشكل صحيح ولم تعد تلبي معايير السلامة الحالية.

لذا ذهبت إلى الساونا. كنت قد أشعلت الموقد قبل نصف ساعة، كان يعمل بأقصى طاقة ووصلت درجة الحرارة إلى تسعين درجة تقريبًا. انتظرت حتى الثالثة إلا ربعًا، حتى ينتهي درس السباحة، لأنني كنت أعرف أن ليندا تقوم دائمًا بتسوق عائلي كبير بعد ذلك. لذا كان لدي أقل من ساعة بقليل.

م.ع: لأي غرض؟

ب.و: لفك المقبض الداخلي. لقد خلعته.

م.ع: لماذا؟

ب.و: حتى لا يمكن فتح باب الساونا بمجرد أن أكون في الداخل مع جوناس.

م.ع: دخلت معه؟

ب.و: بالطبع. كان يجب أن يبدو الأمر حقيقيًا. مثل حادث.

أغلق تيل عينيه.

في رأسه رأى الأب والابن يذوبان بالمعنى الحرفي للكلمة. يجفان بشدة وهما يزدادان ضعفًا. هل تردد باتريك قبل إغلاق الباب؟ هل غير رأيه في اللحظة الأخيرة، وأصيب بالذعر وطرق بجنون على الباب؟ هل صرخ بخوفه المميت في الهواء الحارق بينما كان وجه ابنه الصغير يزداد احمرارًا؟

م.ع: إذن، بعد التلاعب بالباب، دخلت الساونا مع طفل يبلغ من العمر ثلاثة عشر شهرًا؟

ب.و: كان جوناس مصابًا ببرد خفيف ولم تكن التدفئة في منزلنا تعمل بشكل صحيح في ذلك اليوم. كانت دائمًا مشكلة خلال الفترات الانتقالية. لذا كان بإمكاني أن أشرح لليندا أنني أردت تدفئة كلينا وارتكبت خطأً فادحًا.

م.ع: ألم تكن قلقًا على حياتك الخاصة؟

ب.و: كنت أعرف أن ليندا ستنزل المشتريات إلى القبو أولاً وتجدنا. كشخص بالغ، ربما كنت سأنجو من ساعة في تلك الحرارة. لكن جوناس؟ مستحيل. صمت بعد بضع دقائق. بعد ربع ساعة كان خاملًا. كانت الحرارة لا تطاق وكنت قد وضعته أيضًا في أعلى الساونا، بالقرب من الفرن.

م.ع: لكن خطتك فشلت؟

بالنسبة لتيل، الذي بدأ يتعرق هو نفسه، جاءت هذه الكلمات كنسيم بارد.

يا إلهي. لم يقتل الصبي. باتريك وينتر حاول فقط. سكانيا لم يرسلني إلى سجن المجانين هذا بهوية قاتل أطفال مسعور.

ب.و: كان من المفترض أن تذهب عاملة التنظيف في عطلة في اليوم التالي. كانت تأتي دائمًا أيام الأربعاء، لكن قبل العطلة أرادت مفاجأتنا بغسل بعض الملابس وكي سراويلي القصيرة. لذا لمرة واحدة فقط جاءت يوم الثلاثاء.

م.ع: ووجدتكما في الساونا؟

ب.و: نعم. بعد عشرين دقيقة فقط. ظننت أنها أنقذت حياتنا. أعطيتها إكرامية سخية جدًا ورجوتها ألا تقول كلمة لليندا. أعني، لم يحدث شيء، تعافى الطفل وسرعان ما عاد يصرخ عاليًا مرة أخرى. فلماذا أؤجج الكوابيس لزوجتي؟ بالطبع وعدت بتغيير باب الساونا، وفعلت. الآن يبقى مغلقًا بمغناطيس فقط.

م.ع: وكل هذا كان في الملف الذي أخذته للمنزل وفتحته مساء 20 يوليو؟

ب.و: نعم، احتوى على وصف مفصل لمحاولتي القتل.

م.ع: بماذا فكرت عندما قرأت ذلك؟

ب.و: صُدمت.

م.ع: بينما كنت تقرأ الملف، هل راودتك رغبة في أكله؟

كاد تيل يبتسم لهذه المحاولة الفجة لإدانة المتهم كمدعٍ. قرأ مرة في مجلة «دير شبيغل» مقالاً حول كيفية كشف الأطباء النفسيين للمحتالين. الأشخاص الذين يزيفون أوهامهم يميلون للاعتراف بأي شكل من أشكال السلوك الغريب. «نعم، بالطبع أردت أكل الملف. مع كمية كبيرة من الكاتشب». الأشخاص الذين يعانون حقًا من مرض عقلي لا يختلقون أي أعراض أو أنماط سلوكية إضافية.

إما أن باتريك وينتر كان على دراية بهذا الاختبار أو أنه مجنون حقًا، لأنه رد على المدعي العام بارتباك:

ب.و: لماذا قد أرغب في أكل الملف؟

م.ع: إذن ماذا أردت أن تفعل عندما قرأت الملف؟

ب.و: ما كان يأمرني بفعله.

م.ع: الملف أمرك بفعل شيء؟

ب.و: نعم، في الصفحة الأخيرة. كانت هناك تعليمات مفصلة.

م.ع: ماذا أخبرتك؟

رمش تيل وجف فمه عندما قرأ:

ب.و: كيف يمكنني قتل ابني، جوناس. هذه المرة دون أن يعترض أحد طريقي. لكي ينجح الأمر بشكل صحيح.

الفصل الثالث والعشرون

سأل تيل دون أن يرفع بصره عن الورقة:

– "كم؟"

مثل صبي صغير يضع يديه أمام وجهه أملاً في أن يجعله ذلك غير مرئي للآخرين.

بدا أن سؤاله اشترى له بعض الوقت من أرمين، الذي كان قد جلس على سريره بينما كان تيل يقرأ. بدلاً من توجيه ضربة أخرى، سأل:

– "ماذا تعني؟"

وجه تيل كلماته نحو أرمين:

– "كم يدفعون لك لتعذيبي؟ عادة لا تحصل على شيء كهذا هنا. لا بد أن شخصًا ما أعطاك إياه. من أمرك بإيذائي؟"

نهض أرمين دون أن ينبس ببنت شفة.

تيل، الذي كان لا يزال يشعر وكأنه خُصي بطوبتين، تمالك نفسه وتحدث بسرعة لدرجة أن كلماته كادت تتعثر ببعضها:

– "أنت هنا مدى الحياة، أليس كذلك؟ ليس لديك ما تخسره. وأنا كذلك."

– "وماذا في ذلك؟"

حاول تيل تسديد رمية في الظلام.

– "ماذا عن والدك؟ هل لا يزال حيًا؟"

– "لماذا تريد أن تعرف؟"

– "إذا كان لا يزال حيًا، يمكنني فعل شيء حيال ذلك."

– "أنت؟"

الآن ضحك أرمين ضحكة عميقة من بطنه وأمسك بجانبيه بكلتا يديه مثل رجل عجوز يعاني من ألم في الظهر.

– "لن تخرج أبدًا من هذه الزنزانة حيًا، ناهيك عن الوصول لأي مكان قرب دار المسنين."

دار المسنين. جيد. العجوز لا يزال حيًا إذن.

قال تيل وهو يضع كل بيضه في سلة واحدة:

– "يمكنني قتله رغم ذلك."

إذا لم يعد أرمين مهتمًا بالانتقام، إذا كان السيكوباتيان في أسوأ السيناريوهات قد توصلا لمصالحة، فإن تلك السلة من البيض قد دُمرت.

ولارتياح تيل، سأل أرمين:

– "كيف؟"

– "لدي اتصالات. اتصالات ومال."

هز أرمين رأسه.

– "اتصالاتك لابد أنها تافهة إذا لم تستطع حتى تدبير غرفة منفردة لك هنا."

في لمح البصر، أمسك بيد تيل اليسرى ولوى أصابعه بحيث اضطر تيل للدوران تسعين درجة والسقوط على ركبتيه لتجنب كسرها.

– "توقف. انتظر، أقسم أنه صحيح. لدي هاتف محمول."

— "هراء!"

— "بلى لدي. متى تأتي الحافلة؟"

— "هاه؟"

— "حافلة المكتبة. متى تأتي؟"

— "هل تسخر مني؟"

— "لا، اتصالاتي خبأت هاتفًا محمولاً هناك. يمكنني أن أريك. ثم يمكننا إجراء مكالمة معًا ويمكن لوالدك..."

صرخ تيل. كان اثنان من أصابعه بزاوية غير طبيعية. مليمتر واحد إضافي وسينكسر كلاهما مثل أعواد الأسنان.

— "هاتف محمول؟ هنا في الجزيرة؟"

— "نعععععم."

— "ويعمل؟"

— "أقسم لك."

— "بجدية؟"

ارتخت قبضة أرمين قليلاً. همهم بتشكك، لكن بدا أنه يفكر فيما قيل.

كانت هذه فترة سماح أخرى لتيل، الذي لم يجرؤ تقريبًا على التنفس خوفًا من إيذاء نفسه بأدنى حركة لجسده.

— "نعم، نعم. حقًا. إنه يعمل."

— "همهم. الليلة سأعفو عنك، لكن غدًا ستعطيني المحمول."

قال تيل:

— "اتفقنا."

– "ومع ذلك سأكسر أصابعك."

تسارع نبض تيل وظهر المزيد من العرق على جبهته.

– "لا، لا. توقف! أرجوك. سينقلونني. إذا أُصبت غدًا سينقلونني. فكر في الأمر، هذا ليس منطقيًا."

لكن أرمين اكتفى بالقول، بابتسامة مسموعة:

– "لا أبالي. إنها مخاطرة تستحق العناء. سأخرجك خارج الزنزانة، يا قاتل الأطفال. واهدأ، أعني، إنهما اثنان فقط من أصل عشرة."

سمع تيل طقطقة جافة، تلاها توقف قصير ملأه فورًا صوت الألم الخالص، غير المفلتر.

النابع من أعماق روحه.

الفصل الرابع والعشرون

سيدا

نامت سيدا نومًا عميقًا، ولكن ليس بسبب الأدوية التي أُعطيت لها. حتى قبل وقتها في المستشفى كانت قادرة على الانزلاق إلى "عالم الأحلام" بضغطة زر. كان شيئًا اضطرت لتدريب نفسها عليه كطفلة لحجب الروائح والأصوات والصور التي كانت تتعرض لها عندما تكون مستيقظة في المقطورة. مقطورة صفراء بلون أظافر القدم استخدمتها والدتها كغرفة طعام، وغرفة جلوس، وغرفة نوم، و«غرفة ضيوف»، رغم أن الضيوف كانوا يبقون لفترة وجيزة فقط، لم تزد أبدًا عن ساعة، وغالبًا أقل من ذلك.

خلال النهار كانت سيدا قادرة على اللعب في الغابة، رغم أنه كان عليها الحذر من الانزلاق على الواقيات الذكرية أو البراز، لأنه لم يكن هناك مرحاض مناسب هنا في موقف السيارات على الطريق "بي 213". فقط "مرحاض متنقل" كانت رائحته كريهة جدًا حتى من مسافة بعيدة لدرجة أن السائقين فضلوا قضاء حاجتهم بين الأشجار.

البعض توقف حقًا هنا لأخذ قسط من الراحة، لكن معظمهم جاؤوا بسبب القلب الأحمر الوامض فوق باب المقطورة.

عندما يتأخر الوقت وتمل سيدا من التجمد في الخارج في الظلام، كانت تذهب للداخل وتنام تحت الطاولة بينما تستقبل أمها «الضيوف»

على السرير. عرض البعض دفع المزيد لجعل الطفلة ذات الثماني سنوات تشاهد، لكن الأم كانت دائمًا تطرد تلك النوعية من الرجال، مستخدمة قبضتيها أو رذاذ الفلفل إذا لزم الأمر. لم يلمس أي «ضيف» سيدا أو يتحرش بها أبدًا. على الأقل، ليس حسب علمها.

نامت سيدا كالحجر، ولهذا السبب الآن، بعد استيقاظها بفترة وجيزة في زنزانتها الانفرادية، لم تكن متأكدة من المدة التي قضتها يد الدكتور كاسوف داخل ملابسها الداخلية.

شهقت برعب وهي تسحب اللحاف مرة أخرى فوق ساقيها:

– "ماذا تريد بحق الجحيم؟"

مليئة بالاشمئزاز، زحفت إلى رأس السرير.

كان باب سجن علبة الأحذية هذا، حيث أُجبرت على قضاء الليل، مقفلاً من الداخل. كان الأمر وكأن كبير الأطباء قد نقل نفسه آنيًا إلى الغرفة.

قال كاسوف بصوته المقزز والناشز:

– "لدي واحد جديد لكِ."

تقلصت معدتها. كانوا قد اتفقوا على اثنين في الأسبوع، ثلاثة كحد أقصى. كانت تعرف أنها متأخرة في الدفع. مما يعني أن فترة مهلتها كانت تنفد.

– "من؟"

على عكس زنزانات الرجال في الجناح المجاور، تلك الموجودة هنا في ممر النساء كانت تحتوي على حمامات فردية. أبقت سيدا ضوء المرآة فوق الحوض مضاءً حتى لا تشعر بالخوف عند استيقاظها. أحيانًا

كانت تعاني من مشاكل في التوجيه ولا تستطيع معرفة مكانها في الثواني القليلة الأولى. الضوء الذي تسلل مائلاً عبر فجوة الباب ألقى بظلال داكنة على الجدران، مما جعل الدكتور كاسوف يبدو أضخم مما هو عليه بالفعل.

قال بصوته المتكسر:

— "غيدو ترامنيتز."

ترددت سيدا.

— "لماذا يبدو هذا الاسم مألوفًا جدًا؟"

— "لقد كان في الصحف كثيرًا مؤخرًا."

— "لحظة، ليس قاتل الأطفال؟"

طقطق كاسوف بلسانه وصنع وجهًا كما لو كانت سيدا طفلة عليه توبيخها لنطقها كلمة بذيئة.

— "كل فرد يستحق فرصة ثانية. هذا هو هدف هذه المؤسسة، أليس كذلك؟ لجعل أشخاص مثلك ومثله أفضل وإعادة دمجكم اجتماعيًا."

شعرت سيدا بموجة حرارة تسري في جسدها وتذكرت كلمات والدتها.

«الغضب مثل الماء يا سيدا. يريد أن يتدفق ويجد دائمًا طريقًا.»

في تلك اللحظة كان غضبها يجد طريقه كنهر جبلي جارف.

قالت:

— "لا تضعني في كفة واحدة مع شيء كهذا."

ضحك كاسوف وجلس على السرير بجانبها.

– "لا أعتقد أنه ينوي لعب الغولف معك يا عزيزتي. لديه طلبات خاصة أخرى."

نقرت على جانب رأسها.

– "لن أقترب منه. لابد أنك مجنون."

– "ستفعلين بالضبط ما أقوله لك، أيتها العاهرة الصغيرة."

ضمت سيدا يدها في قبضة، لكن قبل أن تتمكن حتى من رفع ذراعها، كان كاسوف يمسك بها بقوة قطعت تدفق الدم عنها.

هسهس فيها:

– "لا ترتكبي أي أخطاء يا حلوتي. أنتِ تعرفين العواقب."

بالكاد استطاعت سيدا التحكم في رغبتها في ضرب رأسها بأنفه الذي يشبه منقار الغراب.

فقط الغضب الذي شعرت به تجاه نفسها كان أعظم. ثلاثة أخطاء وضعتها في هذا الموقف المروع. الأول، في سن الرابعة عشرة، كان الوثوق بالفتى الذي أكد لها أنه لا يمكن إدمان الهيروين إلا إذا تم حقنه. الثاني كان اختيار أحد "ملائكة الجحيم" كقواد لها عندما اضطرت لترك وظيفتها في مكتبة "ستيغليتز" لأنها احتاجت لبيع جسدها لتمويل إدمانها. لكن الخطأ الثالث، الأكبر والأكثر حسمًا، كان كسر أقدم قاعدة في مهنتها: لا تثقي أبدًا بزبون.

في بيت الدعارة ذي السعر الثابت على حافة مطار شونيفيلد، وعد كاسوف بكل شيء تحت الشمس، وبالفعل كان الكثير مما قاله صحيحًا. نعم، لقد طور «مصدر دخل ثانويًا» وكان يزود معظم مستشفيات برلين بـ «خدمات العلاج الجنسي الخاصة»، كما أسماها.

ونعم، كان لديه المال والنفوذ لشراء حريتها من قوادها وإدخالها الجناح المغلق في وحدة الانسحاب. لكن هنا في الداخل، كان لديه أيضًا السلطة لوضعها تحت تأثير الأدوية، وتقييدها وتركها تتعفن في زنزانة عزل ما.

لذا أخذت سيدا نفسًا عميقًا وأذعنت لأمر كاسوف بطاعتها. في وقت ما سيأتي اليوم الذي يمكنها فيه رد الصاع لهذا الطائر الناعي والانتقام منه. في الوقت الحالي، ومع ذلك، كان هو من يمسك بكل الأوراق.

سألت سيدا، في محاولة يائسة أخيرة لتجنب الأمر برمته:

— "إذا كان ترامنيتز مهووسًا بالأطفال، فماذا يريد مني؟"

ابتسم كاسوف وهو يقرص حلمة ثدي سيدا الأيمن عبر قميص نومها:

— "قليلاً من التنوع!"

كانت قبضته قوية لدرجة أن الألم أرسل الدموع إلى عينيها وأطلق ذكرى أخرى لوالدتها.

«هناك أشياء لا تعتادين عليها أبدًا يا سيدا. مهما تكرر فعل الناس لها بك.»

— "موعدك في الرابعة مساءً، بعد غد. سآخذك إليه في المستوصف."

نظرت سيدا لأعلى نحو كاسوف وأومأت برأسها.

راقبها لفترة وتمكنت من الصمود أمام نظرات ابن عرس خاصته حتى زفر أخيرًا وقال:

— "عظيم. الآن أريدك أن تخبريني كيف سار الأمر مع باتريك وينتر. هل أخبرك بأي شيء عني؟"

الفصل الخامس والعشرون

تيل

لم يكن تيل يألف المكتب الذي كان فيه ولا موقف السيارات الذي كان يحدق به. لم يستطع حتى تذكر اسمه، لكن هذا كان يحدث كثيرًا عندما يحلم.

كذلك عند النوم، كان يدرك مرارًا أنه ليس مستيقظًا وأن كل ما يراه، ويشعر به، ويتذوقه، ويشمه، ويسمعه يحدث فقط داخل رأسه.

على سبيل المثال، الأسفلت المتلألئ لموقف السيارات، الذي لا يفترض أن تكون قادرًا على رؤيته – ناهيك عن شمه – من هذا الارتفاع. في الواقع كانت رائحة لطيفة نوعًا ما؛ ذكرته بالصيف والإجازات.

والموت.

رغم أن تيل لم يستطع قول السبب. حسب علمه لم يتعرض أبدًا لحادث سيارة، ولا حتى سقطة قوية عن دراجته. فلماذا جعله موقف السيارات المغبر يفكر في الجلد الشمعي، واللمعان الأزرق للجثث، والرائحة الحلوة والعفنة للحم يتعفن في الشمس؟

الشيء الوحيد الذي استطاع إيجاد تفسير له في تلك اللحظة هو لماذا هذه الحرارة التي لا تصدق، والتي كانت تملأ جسده تدريجيًا، كان مصدرها يده اليمنى. حاول تجنب تحريكها، رغم أنه في حلمه كان

يبحث عن طريقة لرفع تكييف الهواء أو فتح النافذة بطريقة ما، لكن ربما لم يكن ذلك ممكنًا في ناطحة السحاب هذه.

كان أرمين قد كسر إصبعين في يده اليمنى، وأخذ تيل هذه المعرفة معه في النوم المحموم الغارق في العرق الذي تمكن أخيرًا من السقوط فيه بعد الاستلقاء لفترة طويلة في عذاب.

كانت رغبته في الهروب من براثن المجنون عظيمة لدرجة أنه في عدة مناسبات شعر بالإغراء للصراخ طلبًا للمساعدة أو على الأقل إعطاء سايمون إشارة في إحدى جولاته الدورية. يريه أحد أصابعه الأرجوانية المتورمة والملتوية بشكل عبثي ويقول: هاي! انظر إلى هذا. هذا ما فعله ذلك المعتوه بي. لابد أنه ظنني شخصًا آخر. لا يمكنك تركي وحدي معه!

لكن ماذا همس أرمين؟ عندما كان تيل (الذي كان لحسن الحظ أعسر) على وشك ضرب باب الزنزانة بقبضته السليمة؟

— "أنت تعرف ماذا يفعلون بمسيئي معاملة الأطفال الذين يتعرضون للهجوم من قبل زملائهم النزلاء، أليس كذلك؟ لا يعزلون المهاجمين أبدًا، الضحايا فقط."

ضحك أرمين ووصف بتفصيل دقيق كم ستكون الحياة وحيدة وقذرة لتيل في الحبس الانفرادي. الكلمات التي بصقها أرمين تبعت تيل إلى حلمه. «مسيئو معاملة الأطفال» و«الحبس الانفرادي».

هل أساء باتريك وينتر حقًا معاملة طفل؟

سؤال لم يستطع الإجابة عليه، خاصة ليس في حلم كان يقف فيه بجانب نافذة وكأنه متسمر في مكانه، والناس والسيارات مثل الدمى

أسفله بطوابق عديدة. الشيء الوحيد القريب منه كان الرائحة الصمغية للأسفلت التي تملأ أنفه، رغم أن الناس يقولون دائمًا إنك لا تستطيع شم أي شيء في الأحلام. لكن الرائحة كانت مكثفة مثل تصميم تيل على تجنب عزله عن النزلاء الآخرين ولو ليوم واحد. مهما حدث. لن يتمكن من الصمود هنا لفترة أطول مما هو ضروري للغاية، والحبس الانفرادي سيمنعه من الاقتراب من ترامنيتز.

لذا لم يطلق الإنذار ولم يبلغ عن أرمين. انتظر حتى أصبح تنفس السيكوباتي تحته هادئًا ومنتظمًا. تجاهل تيل الفتح المنتظم للفتحة عندما جاء سايمون للقيام بفحوصاته، وكذلك غازات أرمين، ورغم حقيقة أن يده اليمنى شعرت وكأنها تتورم لتصبح بحجم يقطينة، فقد سقط أخيرًا في هذا الحلم المجنون الذي لم يكن فيه أي شيء منطقيًا سوى ألمه.

ولماذا، فجأة، استطاع رؤية هذا الاسم في كل مكان: «جوناس»؟

على لافتة النيون فوق سطح فندق "ريتز كارلتون". على القماش المشمع الهائل الذي يغطي السقالات مقابل مركز التسوق. كان حتى على اللافتة التي كانت طائرة صغيرة تحلق باتجاه "مبنى البلدية الأحمر" تجرها خلفها: جوناس.

يا له من اسم جميل.

أي مصير مروع لاقاه الصبي المسكين على يد والده؟

ماذا فعل باتريك ليكتسب أعداء مثل أرمين في المستشفى؟

ومن زود زميله في الزنزانة بالمعلومات من ملف محكمة باتريك وينتر؟

من يكره هذا الرجل لدرجة أنه يريد رؤيته يموت؟

حتى في حلمه كان تيل متأكدًا أنه في الحياة الواقعية سيعرف الإجابات على كل هذه الأسئلة. لكن في نومه اقترب تيل أكثر من النافذة، واستند إليها واستطاع سماع تلك الطقطقة الرهيبة مرة أخرى. كانت أعلى حتى من اللحظة التي انكسرت فيها أصابعه، لأن شيئًا أكبر بكثير من عظامه كان ينكسر الآن. أولاً رأى شقًا صغيرًا فقط، ثم تهشم لوح الزجاج بالكامل الذي كان كتفه يستند إليه. تفتت زجاج الأمان ودُفع في وجهه مثل قصاصات الورق الملون بفعل الرياح الساخنة كساونا والتي كانت تندفع الآن للداخل.

أغلق تيل عينيه المغلقتين بالفعل، ونتيجة لذلك رأى بوضوح أكبر كم كان مرتفعًا – مئات الأمتار فوق برلين – وكم كان العمق الذي يفغر فاه تحته سحيقًا.

قال الرجل المسؤول عن كل هذا، والذي لم يخطر اسمه بباله الآن:

– "اقفز."

كان خوفه من السقوط عظيمًا لدرجة أن تيل تشبث بقوة بإطار النافذة. وكان ذلك خطأ.

في الحال انطلق الألم من يده المصابة إلى دماغه، مطلقًا نافورة من الشرر مثل منشار دائري يضرب معدنًا.

أمر الصوت مرة أخرى:

– "اقفز!"

وشعر وكأن الأرض بالأسفل تغريه سحريًا بالنزول. بالطبع كان خائفًا من التحطم على الشارع. لكن شيئًا ما بداخله كان يتطلع أيضًا

للخطوة الأخيرة الواعية. والسقوط الحر الذي لابد أن يكون مسكرًا. حتى اللحظة التي ينفجر فيها جسده.

في الأسفل. على الأسفلت الساخن. الذي كان يستطيع شمه بالفعل.

فجأة شعر تيل بدفعة. لا، ليست دفعة. شيء ما كان يهزه؛ الآن شخص ما كان يسحبه للأمام.

إلى الأعماق.

ولم يكن الرجل الذي استأجر أرمين وأراد التأكد من أن باتريك وينتر لن ينجو هذه الليلة. وهذا الرجل لم يكن يصرخ «اقفز!» أيضًا، بل العكس تمامًا: «لا!»

فاتحًا عينيه، رأى تيل وجه سايمون المضطرب، وهو يدفعه بكل قوته عائدًا إلى السرير العلوي، الذي كان على وشك القفز منه إلى الأرض، بعد أن تخبط في نومه.

قال الممرض المذعور عندما هدأ تيل وأدرك أين هو:

— "اللعنة!"

ثم تابع:

— "اللعنة، ما الذي حدث لديك، سيد وينتر؟"

الفصل السادس والعشرون

– "مجرد حادث؟"

لم تحاول البروفيسورة ثيا سينغر حتى إخفاء ارتيابها، بل رسمت على وجهها تعبيرًا يقول: «هل أبدو لك بهذا الغباء؟»؛ وهو تعبير عرفه تيل جيدًا في وجه أمه. فكلما اختلق عذرًا واهيًا لدرجاته السيئة، أو لضياع محفظته، أو لتأخره في العودة من حفلة، كانت تحدق فيه بالطريقة ذاتها: حاجبان مرفوعان، ذقن ملتصقة بالصدر، وشفتان انقبضتا لتصيرا خطًا دقيقًا.

قال تيل مكررًا ما أخبر به الطبيب المساعد قبل تصوير أصابعه بالأشعة ووضعها في الجبائر:

– "تعثرتُ في الظلام وسقطتُ بشكل أخرق بجانب المرحاض."

كان تيل يجلس قبالة سينغر وراء مكتبها. ورغم النمط المعماري المفتوح والواجهات الزجاجية للمبنى الجديد، كانت مصابيح المكتب والأنوار الجدارية تضيء بقوة، بعدما حولت سحب العاصفة سماء برلين إلى سواد قاتم. تابع قائلاً:

– "اصطدمت عيني بالمغسلة."

– "أوه، حقًا؟"

بعد إيقاظ تيل، اقتاده سايمون مباشرة إلى العيادة الواقعة في الطابق العلوي من الجناح الشرقي. ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر مصعد يُدار

بنظام المقاييس الحيوية، لا يتحرك إلا إذا أثبتَّ حقك في الدخول عبر مفتاح إلكتروني وفحص لقزحية العين.

سألت سينغر:

— "هل تحاول إقناعي، يا سيد وينتر، بأن كسورك وكدماتك لا علاقة لها بزميلك في الغرفة؟"

هز تيل رأسه، لكنه لم يجرؤ على النظر في عيني مديرة المستشفى، بل أبقى نظره معلقًا على قمة شجرة صفصاف باكية خلف نافذتها، كانت تتأرجح تحت وطأة المطر وكأنها ترسل له إشارة من الخارج:

لا! إياك أن تنطق بحرف! الزم الصمت!

كان هذا يشبه ما قاله له أرمين، فقرر تيل الاستماع ل حدسه.

— "لا، أبدًا. لقد كان مجرد حادث سخيف."

تنهدت سينغر، ودونت شيئًا في ملفه ثم قالت:

— "حسنًا، سأنقلك إلى غرفة أخرى على أي حال."

على الفور، تردد صدى صوت أرمين الأجش في عقل تيل مجددًا؛ ذلك الصوت الذي بدا وكأن صاحبه يحاول انتزاع القذارة من رئتيه مع كل جملة ينطق بها. كان آخر ما قاله له قبل أن يتسلق سريره:

لقد اشتريت لنفسك ليلة واحدة يا وينتر. إذا نُقلت إلى زنزانة أخرى غدًا ولم تسلمني الهاتف، فسأنتظر أول فرصة تذهب فيها لقضاء حاجتك، ثم سأشقك شقًا يجعلك تخرج أحشاءك مع فضلاتك.

ضربت رجمة من المطر النافذة وكأن أحدهم أفرغ دلوًا من الماء فوق الزجاج. ارتجف تيل. لثانية واحدة، راودته الرغبة في الاعتراض على نقله، لكن من جهة أخرى، كان أرمين سيعذبه سواء أعطاه الهاتف

أم لا، لذا فإن وضع مسافة وزمن بينه وبين ذلك المعتوه لن يضر. والمهم هو تجنب الحبس الانفرادي.

لذا قال:

– "كما ترين."

أخرجت سينغر صور الأشعة من ملف المريض الخاص بـتيل، والذي يحمل بالطبع اسم شخصيته المزيفة باتريك وينتر، وتنهدت قائلة:

– "من حسن الحظ أن الكسور ليست مضاعفة ولا تحتاج لعملية جراحية."

سأل تيل:

– "هل بسبب نقص الموظفين؟"

– "بل بسبب نقص الأسرة."

أشارت بإبهامها نحو النافذة خلفها دون أن تلتفت:

– "لقد غمرت مياه الأمطار الغزيرة طابق الحديقة في الجناح الغربي، لذا اضطررنا لإجلاء المرضى وتوزيعهم على الأجنحة الأخرى. وهذا هو السبب في أننا استثنيناك بالأمس ووضعناك في تلك الغرفة."

– "أفهم ذلك."

إذن، لم تكن الخطة الأصلية وضعه مع أرمين. وهذا يفسر رد فعل سايمون عندما تحقق عبر الهاتف من وجود تيل في الغرفة الصحيحة. والسؤال هو: مع من تحدث سايمون؟

تمنى تيل لو سأل سينغر عن المسؤول عن توزيع الأسرة، لكنه خشي أن يثير السؤال ريبتها. ولكن، إذا كانت مريضة مثل سيدا تعرف

أن أرمين هو عدوه، فهذا يوحي بأن الأمر متداول بين الموظفين أيضًا. يبدو أن هناك خصمًا يتعمد إبقاءه على مقربة من ذلك السيكوباتي. وإن لم يكن واهمًا، فقد كشف ذلك الخصم عن نفسه لتيل بالفعل؛ بل وهدده علانية أثناء زيارته لغرفة التدخل. وخلافًا لما حدث في حلمه، صار تيل الآن يتذكر اسم الدكتور كاسوف جيدًا.

— "سيد وينتر؟"

نظر تيل إلى البروفيسورة سينغر وأدرك أنه، من فرط استغراقه في تفكيره، لم يلاحظ أنها نهضت من خلف مكتبها. مدت يدها بورقة تحمل رقمًا.

— "يرجى التوجه إلى الصيدلية؛ لقد أُخطروا وسيعطونك شيئًا لتسكين الألم. إذا احتجت إلى مسكن أقوى، فاتصل بي مجددًا."

— "حسنًا."

أخذ الورقة بيده اليسرى السليمة. كان الألم في يده اليمنى لا يزال ينبض على إيقاع نبضه، وإن كان قد خفَّ مفعول المخدر الموضعي.

قالت الطبيبة:

— "كنت قد حددت هذا الوقت اليوم لجلسة فردية، لكننا لن نتمكن من ذلك قبل جلسة العلاج الجماعي في الثانية."

هز تيل كتفيه ونهض بدوره:

— "حسنة، أين ستعقد الجلسة؟"

— "هذه المرة فقط، ستكون في الردهة. نحتاج لقاعة المؤتمرات الكبيرة لاجتماع الموظفين. وسيحضر الدكتور وزنياك في نهاية الجلسة فقط، لذا لن يكمل الساعة كاملة."

قال تيل:

– "أفهم ذلك." وأدرك في الوقت ذاته أن الوقت ضيق جدًا للتواصل مع سكانيا قبل الجلسة. ومع ذلك، كان عليه أن يطرح عليه سؤالاً جوهريًا يتعلق ببقائه على قيد الحياة: ما الذي فعله وينتر بالضبط لابنه الصغير؟ ولماذا، رغم ذلك، استطاع التجول في حضانة وإشعال النار في نفسه كشعلة بشرية؟

سألت سينغر بعدما ظل واقفًا هناك بتردد وصمت:

– "هل هناك شيء آخر؟"

– "آه.. ذكرتِ بالأمس حافلة المكتبة."

هزت سينغر رأسها:

– "أعتذر، لن تأتي في الوقت الحالي. الأمر خطير جدًا."

أشارت مجددًا إلى النافذة، وشعر تيل بموجة حرارة تصعد بداخله، تشبه تلك التي شعر بها بالأمس عندما عجز عن رؤية مخرج من زنزانته مع أرمين. بدأ يتعلم ببطء أن أعظم مخاوفه يسبقها هذا الشعور المفاجئ بالاحتراق الداخلي.

بدون المكتبة لن أتمكن من الوصول إلى هاتفي. وبدون هاتفي، أنا منقطع عن العالم الخارجي.

هذا ناهيك عن رد الفعل العنيف المتوقع من أرمين إذا حاول مراوغته. لأول مرة، فكر تيل بجدية في إجهاض المهمة. أي جنون غير مدروس دفعه إلى هنا؟ لقد حذره سكانيا من أنه يستهين بالمشكلة. وبسبب فكرته الحمقاء هذه، أدرك أنه شخص عاقل محبوس مع ثلة من المختلين، واحد منهم على الأقل يريده ميتًا، لأي سبب كان.

أضافت سينغر:

– "في هذا الجو، لا يوجد مخرج أيضاً في الوقت الحالي. أخبرنا المجلس الاستشاري صباح اليوم أن شركة التأمين ستخلي مسؤوليتها إذا قُتل أي شخص بسبب غصن شجرة ساقط. لهذا دعونا للاجتماع الطارئ اليوم؛ فالعاصفة ستزداد سوءًا."

سأل تيل بنبرة بدت مضطربة بعض الشيء بالنسبة لسؤال تافه:

– "إذن كيف أحصل على كتاب؟"

– "أوه، هذه ليست مشكلة. الحافلة في مرآب مغطى؛ ولا يزال بإمكاننا الوصول إليها. إذا أخبرتني بالعنوان، فسأطلبه لغرفتك."

ابتسمت وتابعت: "هذا بافتراض أنه متوفر لدينا بالطبع."

أوه، إنه متوفر بكل تأكيد. خزانة الكتب الثالثة، الرف الثاني. خلف كتب الإنجيل مباشرة.

بلع تيل ريقه وحك مؤخرة رأسه بيده اليسرى بحركة لا إرادية. هل يخاطر؟ ماذا لو فتح الشخص الذي سيوصل الكتاب صفحاته؟ ماذا لو أصدر الهاتف صوتاً أثناء حمله أو سقط وارتطم بالأرض؟ ثم أدرك أنه لا يستطيع تفسير كيف يعرف بوجود كتاب في الرف الثاني انزلق إلى الخلف.

– "أود أن أحضر الكتاب من الحافلة بنفسي إذا كان ذلك ممكناً."

– "ولكن لماذا؟"

– "أحب رائحة الكتب؛ فهي تهدئني." قال ذلك وهي ليست كذبة تماماً. "بما أنكِ قلتِ إن الحافلة لا يزال من الممكن الوصول إليها، ألا يمكنكِ فتحها لي؟"

بدأت أصابع سينغر تعزف على ملف باتريك وينتر كبيانو غير مرئي، ولم تبدِ ما تظنه في اقتراحه. سألت:

– "هل هناك كتاب معين في ذهنك؟"

سمع تيل نفسه يقول لأنه لم يملك خياراً آخر:

– "جيمس جويس."

كان بحاجة للحديث مع سكانيا ومعرفة هوية الشخص الذي انتحل شخصيته هنا. وكان عليه كسب الوقت مع أرمين وإطلاعه على الهاتف على الأقل. لهذا أضاف:

– "رواية (أوليس)."

إذا كانت سينغر قد صُدمت من اختياره لهذا العمل الكلاسيكي، فلم يظهر عليها ذلك.

– "حسنًا، سأتحقق من الأمر وأخبرك."

شكرها تيل، وبينما كان يتجه نحو الباب، نادت سينغر خلفه:

– "بالمناسبة، جلسة الكيماوي المقررة لك في الثالثة والنصف بعد الظهر."

توقف تيل عاجزًا عن الحركة. تبددت الحرارة الداخلية فجأة، ووصل ذعره إلى حالة بدنية أخرى؛ شعر بالحمى والبرد في آن واحد، كأنها نوبة ارتعاش تسبق الانفجار.

– "ماذا؟"

ابتسمت سينغر وأجابته بنبرة توحي بأنها غير متأكدة إن كان المريض يمازحها أم لا:

– "بالطبع سنواصل العلاج من المرحلة التي توقفت عندها قبل الحادث."

يا إلهي، لا. لم يكن باتريك وينتر مجرد حطام نفسي فحسب. وكأنها تؤكد ما يدور في خلده، قالت سينغر:

– "دعنا نقل إنك مع كل ما حدث، نسيت إصابتك بالسرطان يا سيد وينتر."

الفصل السابع والعشرون

ترامنيتز

انتظر ترامنيتز حتى وصف الرجل ذو البطن الضخم الذي يرتدي "الشبشب" زوجته المخادعة بـ"العاهرة الغبية" في منتصف الشارع، ثم أطفأ التلفاز ومعه البرنامج التافه الذي كان يشاهده. أدار رأسه ورسم ابتسامة ذئبية لزائرته غير المتوقعة.

وقال للمرأة الرشيقة ذات الشعر الأشقر القصير، التي كانت تتمايل فوق أرضية اللينوليوم بحذائها ذي الكعب العالي:

— "أهلاً يا سيدة فولهفايل."

— "أهلاً يا سيد ترامنيتز، كيف حالك؟"

— "بخير. لم أتوقع رؤيتكِ في وقت قريب كهذا."

قالت محامي الدفاع الخاصة به:

— "بالنظر للظروف، كان من السهل نسبياً تأمين موعد." اقتربت من السرير حيث كان ترامنيتز يشاهد التلفاز منذ وقت الإفطار بوضعية نصف مستلقية.

وبينما كان يحدق بوقاحة في فتحة صدر فستانها، تغلبت عليه الخيالات —وليست المرة الأولى— عما قد يكون عليه الأمر لو أجبرها على قطع أحد حلمتيها وأكله.

قالت المرأة التي أدت أداءً ممتازاً في قاعة المحكمة:

– "لقد خرجت للتو من عملية جراحية خطيرة."

لولا بيا فولهفايل، لما انتهى به الأمر هنا في "البيت الأبيض"، بل في سجن تيغيل، حيث لا يتعاطفون هناك مع أصحاب الميول الجنسية مثله كما يفعل هؤلاء الثرثارون في وحدة الطب النفسي. ومن بين أمور أخرى، كانت قد نصحته كلما خضع للاستجواب بأن يذكر ذلك الشيء داخل رأسه الذي يعطيه الأوامر. لا عجب أن أتعابها بالساعة كانت من بين الأعلى في مهنتها، لكن بيا فولهفايل كانت تستحق كل سنت.

انحنت بيا نحوه وهمست في أذنه وهي تترك يدها تتجول تحت الغطاء:

– "بطبيعة الحال، عليّ أن أتحقق بنفسي من حالتك الصحية، وأتأكد من أن كل شيء يعمل كما يجب."

أطلق ترامنيتز أنيناً عندما أمسكت بعضوه.

قالت وهي تضع إصبعين على ذقنه وتوجه رأسه ليرجع لمواجهتها عندما حاول الالتفات نحو الباب:

– "لا تقلق يا وسيم. مشاورات المحامي وموكله مقدسة، ولا يُسمح لأحد بمقاطعة حديثنا."

قبلته، وفتحت شفتيها وانزلقت بلسانها داخل فمه. وبينما كانت تقلد مواء قطة، خطر لترامنيتز —وليس للمرة الأولى— أنها بحاجة للحبس أكثر منه بمراحل. أي امرأة عاقلة تقع في حب قاتل متسلسل؟ لقد سمع بالطبع عن هؤلاء النساء المضطربات اللواتي يعتقدن أن رجلاً مثله يحتاج فقط للقليل من الحب والحنان الذي لم ينله من أمه،

وفجأة! سيعود للطريق المستقيم ولن يسلخ جلد رضيع آخر في حياته. يا له من هراء.

كان لدى بيا عقدة المنقذ أيضاً؛ فقد أخبرته كيف وقعت في حبه خلال لقائهما الأول، تلك البقرة الغبية. وفي الحقيقة، لم تكن محاميته المرأة الوحيدة التي توددت إليه؛ فكل أسبوع يتلقى رسائل من عاهرات مجنونات، بعضهن لا يبدون سيئات المظهر.

كذب قائلاً:

— "أوه يا بيا، لا تعرفين كم أنتِ جيدة لي. بدونكِ، لن أتمكن من تحمل كل هذا."

ابتسمت وقالت:

— "أنت رقيق جداً. أدرك كم نحتاج لبعضنا البعض."

حاول جذبها نحوه قائلاً:

— "خاصة الآن. تعالي هنا، أحتاج لأن أكون قريباً منكِ. لقد افتقدت الممارسة."

ضحكت كفتاة مدرسة خجولة، وهو ما كان ترامنيتز يفضله من حيث السن. كان من الجنون كيف يمكن لنساء قويات ومستقلات وناجحات أن يتحولن إلى إناث خاضعات في حضور رجال مثله.

همست بيا وهي تضغط بلطف على خصيتيه:

— "سأعتني بكِ بعمق شديد قريباً. لكن علينا استغلال الوقت لمناقشة أمر مهم يا حبيبي."

تنهد ترامنيتز وقد استبدت به الرغبة تماماً. ولحسن حظه، كان قد طلب "بائعة هوى" من طبيب القسم المرتشي، وكان من المقرر أن

تزوره غداً. سيتمكن من الصمود حتى ذلك الحين، خاصة وأن العدوى قد تركت جسده واهناً بعض الشيء؛ فرغم المضادات الحيوية، كان يتصبب عرقاً كخنزير عند أدنى مجهود، وهو أمر كان يمقته بشدة.

قال:

– "لقد أجريتُ بعض البحث حول الدكتور فولكر فريدر."

التمعت عينا ترامنيتز وسأل:

– "وماذا وجدتِ؟"

كان قد طالب فوراً بالاتصال بمحاميته بعد زيارة الجراح. وعبر الهاتف، أخبرها بما قاله ذلك النذل عن تعمده ترك جسم غريب داخل جسده أثناء العملية.

قالت بيا:

– "لا تضطر للاعتراف بأي شيء، إنه يخادع ليس إلا."

أجاب ترامنيتز بينما تحركت يده لا إرادياً نحو الضمادة على عنقه:

– "هذا ما أظنه أيضاً."

لم يكن هناك شيء بداخله. ومع ذلك.. هل كان يتوهم أم أن ندبة العملية تنبض بقوة أكبر مما كانت عليه بالأمس؟

تابعت بيا:

– "الرجل يائس، فقد انقطع عن حضور اجتماعات (مدمني الخمر المجهولين) منذ أشهر، وبالتأكيد عاد للشرب مجدداً. مسألة وقت فقط قبل أن يلقى شخص آخر حتفه تحت مشرطه."

قال ترامنيتز وهو يمسح حبة عرق عن جبينه:

– "أنا واثق من صحة كلامك."

هل الجو حار حقاً هنا أم أن حالته تسوء مجدداً؟

تابع قائلاً:

– "لكن الحقيقة هي أنني أصبت بتسمم في الدم بعد العملية. ماذا لو أصابني بالعدوى عمداً؟ إذا كان فيروساً أو ميكروباً، فبإمكانه تكرار ذلك مراراً وتكراراً."

– "هل أقدم طلباً لنقلك إلى مصحة أخرى؟"

هز ترامنيتز رأسه معترضاً:

– "ماذا؟ إلى مؤسسة متهالكة بطابع السبعينيات؟ مستحيل. لدي هنا قناة اتصال مثالية متمثلة في كاسوف، ولن أقامر بفقدان ذلك."

تنهدت بيا وقالت:

– "كان عليك أن تستمع إليّ يا حبيبي، وألا تستفز أحداً." وأشارت إلى الطاولة الجانبية حيث كانت دمية (لوك سكاي ووكر) تستقر قبل العملية: "هل كان عليك حقاً أن تثير غيظ الجميع؟"

أجاب بابتسامة عريضة بينما كانت تداعب جسده تحت الأغطية:

– "أنتِ لا تتركين لي مجالاً للمرح أبداً." ثم سأل: "هل تذكرتِ كتابي؟"

أجابت:

– "بالطبع." وأخرجت المحامية مجلداً بنياً صغيراً من حقيبتها، كان مغلقاً من الجانب بشريط.

– "أنتِ الأفضل!"

مرر ترامنيتز أصابعه بمودة على غلاف الكتاب الناعم دون أن يفك الشريط.

سألته:

– "هل أنت متأكد أنك تريد الاحتفاظ به هنا؟"

حتى الآن، كان ترامنيتز يكتب فقط في حضورها، وكانت بيا تأخذ المذكرات معها بعد كل زيارة لكي لا تُكتشف في المستشفى.

أجابها:

– "لا أظن أنهم سيفتشون غرفتي. هنا في العيادة، الفحوصات ليست بصرامة الجناح عالي التأمين. حتى إنني أستطيع التحرك بحرية هنا إذا أردت، تماماً كما في القسم المفتوح." وأشار ترامنيتز إلى القضبان على النوافذ وتابع: "لكن من الواضح أن المداخل والمخارج مؤمنة هنا كأي مكان آخر."

– "حسناً، لن أتمكن من العودة قبل ثلاثة أيام. لا تفعل أي شيء أحمق حتى ذلك الحين!" ثم أزاحت شعرها عن وجهها المحتقن وأضافت: "أوه، هناك شيء آخر.. لقد توطدت صلتنا أكثر الآن."

انقبضت معدته توجساً من أخبار سيئة وسأل:

– "ماذا تقصدين؟"

أجابته بيا وهي تمنحه قبلة طويلة وعميقة قبل أن تبتعد مجدداً:

– "أعتقد أنك تفهم ما أعنيه. لقد نجحت مغامرتنا في غرفة الاجتماعات. أنا حامل. وأقسم لك، ستخرج من هنا قبل موعد ولادة الطفل على أبعد تقدير!"

الفصل الثامن والعشرون

تيل

كان أصدقاء تيل الجدد يُلقبون بـ: "عديمة الأسنان"، و"بلا سروال"، و"الأبتر".

كانوا جميعاً يجلسون في القاعة الكبيرة ذات القبة في الردهة، ليس على الأرائك المريحة للأسف، بل على كراسي قابلة للطي رُتبت في نصف دائرة مواجهة للنوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف والمطلة على المنتزه.

كانت "عديمة الأسنان" هي المرأة الوحيدة هناك، لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، لكنها تبدو وكأنها خرجت لتوها إلى تقاعد مبكر. لقد شاهد تيل ما يكفي من البرامج التلفزيونية حول مدمني "الكريستال ميث" ليخمن سبب هذا التدهور الجسدي. كانت تجلس بشكل مائل خلف "بلا سروال"، وهو رجل يصلح تماماً لأداء دور أرستقراطي غير تقليدي: ذقن مدببة، وشيب عند الصدغين، وجبهة مجعدة. كان يرتدي بدلة رسمية مخططة، ينقصها تفصيل واحد صغير: السروال. على الأقل، استطاع تيل خلال العلاج الجماعي أن يريح نفسه من مشهد ساقي الرجل الهزيلتين والمشعرتين عبر النظر إلى مكان آخر؛ إلى الدكتور وزنياك مثلاً، قائد المجموعة الذي جلس وظهره للمنتزه، حيث كانت المصابيح الضخمة هي الأشياء الوحيدة التي لا ترفرف

كالأعلام تحت وطأة المطر المنهمر. كانت الريح التي تضرب من جهة البحيرة تحني الشجيرات والأشجار وكأنها مصنوعة من مطاط مرن، بينما تركت القطرات الضخمة أثرها على الزجاج المقوس لـ"البيت الأبيض" مثل المطر على زجاج سيارة مسرعة.

قال قائد العلاج:

— "إذا سمحتم لي، سأبدأ بنفسي. اسمي الدكتور كريستوف وزنياك، أنا طبيب مسؤول في مصحة شتاين كلينيك وأتولى إدارة جلسات العلاج الجماعي."

بدا قائد العلاج وكأنه استيقظ للتو من النوم؛ فشعره الخفيف غير الممشط يتدلى فوق أذنيه. وتابع:

— "بعضكم يعرفني من العلاج بالموسيقى في الغرفة رقم ٥، حيث كنا نستمع قبل قليل لـ(بيتهوفن)."

تحدث الطبيب بلكنة بولندية رخيمة، يتحدث الألمانية وكأنها لغته الأم لكنه لا ينكر جذوره. راح يمرر نظراته على كل فرد في المجموعة واحداً تلو الآخر.

كان "الأبتر" يجلس على يسار تيل، وكان يتحسس جرحه بيده اليمنى باستمرار، وكأنه يتأكد مما إذا كان ساعده الأيسر قد نبت مجدداً.

قال وزنياك:

— "اليوم لدينا وجه جديد بيننا، لذا أقترح أن يعرف كل منا نفسه بالدور."

أومأ وزنياك للرجل الجالس بجانبه، فبدأ "الأبتر" قائلاً بصوت خافت:

— "اسمي طارق بوده. كنت أدير محطة وقود، ربما يتذكرها بعضكم؛ كانت عند زاوية شارع (مومزن) وشارع (بليبترو)، لكن يوجد مكانها الآن مجمع سكني. نعم.. وأنا أعاني من اضطراب هوية سلامة الجسم و(الزينوميليا)."

منحه وزنياك ابتسامة تشجيع وأوضح للمجموعة:

— "للعلم، اضطراب هوية سلامة الجسم يعني أن المريض يشعر بأن أجزاءً معينة من جسده لا تنتمي إليه. هو يعتبرها كيانات غريبة ويشعر برغبة ملحة في التخلص منها. أليس كذلك يا سيد بوده؟"

فجأة قال القادم المتأخر، الذي لم يلحظ أحد وصوله، لدرجة أن الدكتور وزنياك نفسه جفل عندما ظهر الرجل فجأة من خلف شجرة عيد الميلاد:

— "لماذا لا تبدأ برأسك إذن؟"

شعر تيل برعب شديد عندما رأى من يكون ذلك الشخص الذي سحب كرسياً فارغاً وجلس خلفه.

سأل وزنياك بحنق:

— "سيد وولف، هل من الممكن أن تأتي ولو لمرة واحدة في موعدك؟ أنت تتمتع بعدة امتيازات في الجناح المفتوح، مثل حقيقة أنه يُسمح لك نهاراً بالتحرك بحرية في الغرف المتاحة، ولكن هذه الامتيازات يمكن سحبها في أي لحظة."

قال أرمين وهو يرسم ابتسامة "رأس الموت" ويغمز لـتيل الذي التفت إليه لوهلة:

— "مفهوم."

— "حسناً إذن، من سيواصل التعريف بنفسه؟"

ترك وزنياك نظراته تجول في الغرفة حتى استقرت على تيل.

— "أنت، ربما؟"

أومأ تيل برأسه، رغم أنه لم يتمنَّ شيئاً أكثر من الاختفاء من الوجود في تلك اللحظة. على الأقل لم يكن الأمر كما في اجتماعات (مدمني الخمر المجهولين) حيث يتعين عليك الوقوف.

بدأ بتردد وهو يمسك عينه المتورمة بيده المضمدة:

— "اسمي باتريك وينتر، أنا خبير تأمين..."

قاطعه أرمين من الخلف، رغم أنه لابد قد سمعه جيداً؛ فالصوت في الردهة كان في غاية الوضوح:

— "ماذا تعمل؟"

أوضح تيل:

— "خبير التأمين هو عالم رياضيات يعمل في قطاع التأمين، أقوم بحساب أقساط التأمين والمخاطر..."

أطلقت "عديمة الأسنان" صفيراً طويلاً من شفتيها وقالت بإعجاب:

— "يا للسيد العبقري!"

تمتم تيل بارتباك:

– "لا، لا، لم أكن لأقول ذلك." وتساءل في نفسه لماذا يثير وجود عالم رياضيات اهتمام المجموعة أكثر من شخص يسعى لتقطيع جسده إرباً.

أوضح وزنياك:

– "لقد شاهدنا فيلم (غود ويل هانتينغ) بالأمس. ومن الواضح أن أعضاء المجموعة لا يزالون متأثرين بقصة حارس المبنى الذي يتضح أنه عبقري رياضيات."

رائع.

كان تيل يعرف هذا الفيلم الكلاسيكي من بطولة (مات ديمون) و(روبن ويليامز).

قال بنبرة بدت وكأنه يقلل من شأن نفسه:

– "حسناً، قدراتي ليست مذهلة إلى هذا الحد."

لكن أرمين لم يتركه وشأنه:

– "يا رجل، أنت الوحيد بيننا الذي أتم دراسته الجامعية. بالنسبة لنا نحن (الأغبياء)، هذا وحده يضعك في فئة العباقرة. ما رأيك أن نجري اختباراً صغيراً؟"

هاه؟ التفت تيل مجدداً نحو أرمين، لكنه لم يلمح أي شر في عينيه. كان الرجل ممثلاً بارعاً لدرجة أنه استطاع التلاعب حتى بالدكتور وزنياك.

قال أرمين:

– "أرجوك يا دكتور وزنياك، أنت نفسك تقول كم هو مهم التفاعل داخل المجموعة. هل يمكنني أن أطلب من عالم الرياضيات الخاص بنا

حل لغز صغير؟ بالنسبة لمستوى ذكائه، سيكون الأمر مجرد لعبة أطفال."

قال "بلا سروال":

— "نعم، نعم، لغز." وبدا أن بقية المجموعة متحمسة أيضاً، وهم يهزون أطرافهم المبتورة أو يبتسمون بوجوه خالية من الأسنان.

تساءل تيل عما إذا كان عليه التظاهر بالإغماء أو الهروب صارخاً؛ ففي هذه الصحبة، ربما لن يثير الهروب صراخاً الكثير من الاستغراب.

قال وزنياك:

— "حسناً إذن، يجب أن أقول إنني متشوق بنفسي."

لم ينتظر أرمين دعوة ثانية، وقال متظاهراً بالود:

— "حسناً يا باتريك —هل يمكنني مناداتك باتريك؟— لنفترض أنك قدت سيارتك الجديدة لمسافة مائة كيلومتر بسرعة مائة كيلومتر في الساعة تماماً. لكن في طريق العودة لم تكن في عجلة من أمرك، فقدرت بنصف السرعة فقط، أي خمسين كيلومتراً في الساعة. ما هو متوسط سرعتك الإجمالية للرحلة كاملة؟"

كرر "الأبتر":

— "مائة كيلومتر في الساعة ذهاباً، وخمسون إياباً؟"

تذمرت "عديمة الأسنان":

— "هذا سهل للغاية؛ مائة زائد خمسين، مقسومة على اثنين، النتيجة خمسة وسبعون."

أصدر أرمين صوتاً يشبه طنين الخطأ في البرامج التلفزيونية. كان تخمين تيل الأول خاطئاً أيضاً، لكنه سرعان ما ابتسم بارتياح؛ ففي

خضم التوتر، كاد يغيب عن ذهنه أنه رأى هذا السؤال على الإنترنت من قبل.

أجاب تيل:

– "متوسط السرعة هو حوالي ستة وستين فاصلة ستة كيلومتر في الساعة."

نظر إليه الجميع وكأنه قد نفذ دافعه الأول وقفز صارخاً. فأوضح لهم:

– "بما أن طول الرحلة لم يتغير، فأنا أحتاج لضعف الوقت في طريق العودة، وهذا يؤثر على متوسط السرعة الإجمالي."

بدأ أرمين بالتصفيق، واستمر في ذلك حتى طلب منه وزنياك الهدوء، وتابعت المجموعة التعريف بنفسها مع المريض التالي.

عندما أوضحت "عديمة الأسنان" أن اسمها دوروثي وأنها كانت تعمل في صيدلية، لم يكن تيل يستمع إليها؛ فقد كان سعيداً فحسب لأنه أفلت من الفخ –في الوقت الحالي على الأقل– وكان يشكر حظه لأنه سُئل اللغز الرياضي الوحيد الذي يعرفه. وبينما كان ينتظر أن يعود نبض قلبه لمعدله الطبيعي، لم ينتبه إلى أن وزنياك كان يوجه إليه الكلام مجددًا.

– "أليس كذلك يا سيد وينتر؟"

– "آه.. عذراً، ماذا قلت؟"

– "كنت أقول كم هو رائع أن تعزف السيدة سبرينغر البيانو ببراعة مثلك."

مثلي؟

وافق تيل قائلاً:

– "نعم، نعم، رائع جداً."

– "أنت أعسر، أليس كذلك؟"

أكد تيل:

– "نعم." دون أن يدري إلى ماذا يرمي الطبيب.

ابتسم له وزنياك بتشجيع وقال:

– "عظيم، هذا يعني أنك لا تزال تستطيع استخدام يدك السليمة، ويمكنكما العزف معاً غداً صباحاً في جلسة العلاج بالموسيقى."

تمتم تيل:

– "آه.. لست متأكداً، أخشى أن إصابتي ستعيقني."

– "يا رجل، يا سيد وينتر، لا تكن متواضعاً هكذا. مكتوب في ملفك أنك فزت في صباك بجائزة (سيمفونيا الشباب) عن أدائك لسوناتا (فرانتس ليست) بمقام (سي) الصغير. لذا لن تواجه أي مشكلة مع مقطوعة (أباشيوناتا)، خاصة والسيدة سبرينغر تجلس بجانبك."

شعر تيل بالغثيان. نظر إلى يمينه نحو ألسنة اللهب المتراقصة في المدفأة وشعر بحرارة غريزية تجتاحه.

أجبر نفسه على القول:

– "بالطبع."

رغم أنه لا يعرف حتى أي المفاتيح يضغط ليعزف لحناً بسيطاً للأطفال.

غداً صباحاً؟

من ناحية، لم يكن لديه أدنى فكرة كيف سينجو هنا طوال هذه المدة وأرمين يراقب كل أنفاسه. ومن ناحية أخرى، كان هذا الوقت قليلاً جداً ليجد طريقه إلى ترامنيتز.

وبينما كان لا يزال يصارع للبحث عن كلمات، وعن وسيلة للتهرب من جلسة العلاج بالموسيقى، ظهر سايمون في المكان، حاملاً معه خبراً جيداً كنوع من التغيير.

قال للطبيب:

– "أعتذر بشدة عن المقاطعة يا دكتور وزنياك." وسلمه ورقة صغيرة. وبعدما غادر الحارس، لخص وزنياك الرسالة للمجموعة.

– "سيُسعد عشاق القراءة بيننا لسماع أن البروفيسورة سينغر قد قررت فتح حافلة المكتبة للمهتمين، وذلك في المرآب ابتداءً من الساعة الخامسة عصر اليوم."

ليس قبل الخامسة؟ يا إلهي! لماذا كل هذا التأخير؟

تساءل تيل عما إذا كانت الآثار الجانبية لأول جلسة علاج كيميائي ستتركه في حالة تسمح له بالبحث عن الهاتف المحمول المخصص للطوارئ في الحافلة.

الفصل التاسع والعشرون

سينغر

سألت:

– "هل أردت التحدث إليّ؟"

دخل كاسوف إلى مكتب سينغر تسبقه رائحة عطره الثقيلة والمنفرة، وتمنت المديرة لو أنها استطاعت تجنب الاثنين معاً.

قالت وهي تمد له ورقة عبر المكتب:

– "في الواقع، أردت فقط أن أعطيك شيئاً."

– "ما هذا؟"

– "تحذير كتابي."

فرك كاسوف طرف أنفه وضحك وكأنها ألقت نكتة:

– "عفواً؟"

كانت تتمنى لو منحته تحذيراً كتابياً آخر فوراً بسبب سلوكه المتغطرس والمزدري.

قال:

– "لابد أن هناك سوء تفاهم."

لوحت سينغر بيدها معترضة:

– "وفر أنفاسك. هل ستنكر بجدية أنك خالفت أوامري بالأمس عندما أخرجت باتريك وينتر من غرفة التدخل في الأزمات قبل الأوان؟"

هز كتفيه وفتح الرسالة.

– "لقد حان الوقت، وأنتِ كنتِ مشغولة."

– "مجرد كون الفيضان قد تطلب وجودي في مكان آخر لا يعطيك الحق في اتخاذ قرارات بمفردك. أنت تعرف مدى أهمية التواصل الأول بعد التخدير."

وكم أنت غير مؤهل لذلك، هكذا فكرت ولم تنطق، وإلا لكانت هي من سيواجه إجراءً تأديبياً لا هو.

تابعت قائلة:

– "علاوة على ذلك، يبدو أنك أعلنت الأمس يوماً للأبواب المفتوحة؛ فالممر المؤدي لمكاتبنا كان مفتوحاً، مما مكن (سيدا) من سرقة معطفي ومنح وينتر جولة دون مضايقة."

ابتسم كاسوف وقال:

– "زلة بسيطة." لكن سينغر لم تنتهِ بعد.

– "وما الذي دهاك بالأمس لتضع وينتر في غرفة واحدة مع وولف؟"

حاول اختلاق الأعذار دون أن يبدو مقنعاً أو نادماً:

– "أنتِ تعرفين مدى النقص في الأسرة الذي نعاني منه حالياً."

– "نعم، ولكنني أعرف أيضاً العداوة المستحكمة بين مرضانا."

رسم كاسوف ابتسامة ملتوية وقال بزهو:

– "أهذا كل شيء؟"

كان جفن سينغر الأيمن يرتجف غضباً. كانت تدرك أنها لا تستطيع فعل شيء تجاه كاسوف في الوقت الحالي؛ فإلى جانب دورها كمصحة

نفسية حكومية عالية التأمين، كانت شتاين كلينيك تستوعب أيضاً مرضى يعانون من أمراض خطيرة ولم يدانوا بأي جرائم، وكان كاسوف هو المسؤول عن هذا القسم الممول من القطاع الخاص. وبحكم صلاته بملاك المستشفى والتمويل الذي يوفره للمصحة كل عام، كان بإمكانه فعل ما يحلو له تقريباً. لكنها لن تسمح لهذا الوغد المغرور بالتمادي في إهانتها.

قالت وهي تدير الكمبيوتر المحمول على مكتبها لكي يرى كاسوف الشاشة:

— "لا، ليس هذا كل شيء. ألقِ نظرة على هذا."

— "وماذا في ذلك؟"

للوهلة الأولى، لم تكن صور اللقاء بين كاسوف ووينتر في غرفة التدخل توحي بأي شيء غير عادي؛ فقد كان طبيب القسم واقفاً بظهره للكاميرا، مما حجب وينتر تماماً تقريباً.

أوقفت سينغر الشريط وسألت:

— "ماذا تفعل هناك؟ ذراعاك في وضعية غريبة جداً، كأنك تمسك بشيء ما."

— "ماذا؟"

— "لا أدري، ولهذا أسألك. لو أردت التخمين، لقلت إنك كنت تمسك كاميرا عند مستوى بطنك وتلتقط صوراً للمريض."

— "خيالك واسع جداً يا سيدة سينغر."

حاولت أن تلاحق نظراته وقالت:

– "ربما، لكنني أيضاً أجيد قراءة الشخصيات. لم أطقك منذ اللحظة الأولى التي خطوت فيها عبر هذا الباب. ولولا وجود والدك في مجلسنا الاستشاري لكنتَ مطروداً من هنا منذ زمن بعيد. بالنسبة لي، أنت لست أكثر من ولد مدلل لم يحقق شيئاً بنفسه واعتمد دائماً على يد والديه التي تحميه. لكنني أقسم لك، في لحظة ما، لن يكون ذلك كافياً. سترتكب خطأً لن يكون أحد مستعداً للتستر عليه، وحينها سأمسك بك من خناقك."

دون أن يستأذن، تناول كاسوف قلماً ولوحة مشبكية من فوق مكتب سينغر. سألها بهدوء وهو يثبت رسالة التحذير التأديبية على اللوحة:

– "هل تعرفين ما الفرق بيننا؟"

تابع حديثه ببرود:

– "أنتِ تكلفين المستشفى المال بطرقك القديمة المتهالكة، بجلسات الحوار السخيفة، وبالعلاج الإبداعي والموسيقي. أما أنا، فأنا من يجلب المال."

حدق فيها والقلم واللوحة في يده، كرسام يتفحص موضوع لوحته قبل البدء، لكنه في الواقع رسم خطاً قطرياً شطب به نص الرسالة بالكامل، وشرع يكتب فوقه.

– "بفضل سلسلة تجارب الأدوية التي أنظمها بانتظام، يحقق هذا المكان أرباحاً. لن تتخلصي مني أبداً، وإذا كنتِ صادقة مع نفسك، فأنتِ لا ترغبين في ذلك أصلاً؛ لأنكِ لو نبذتِني، فستنبذين ميزانية المستشفى، وبالتالي ستنبذين نفسكِ في نهاية المطاف يا سيدة سينغر."

مع هذه الكلمات، أعاد اللوحة إليها وغادر المكتب دون أن يلقي تحية الوداع.

همست فور إغلاقه الباب:

– "وغد!"

ثم صرخت بأعلى صوتها عندما رأت الرسالة التي خربشها على ورقة التحذير:

– "يا لك من نذل!"

تباً لك!!!

كانت العبارة مكتوبة بخط عريض وبحروف كبيرة بجانب توقيعها مباشرة، مع ثلاث علامات تعجب.

في أي مؤسسة أخرى، كان هذا ليكفي لطرده فوراً، لكن كاسوف كان محقاً؛ فبإمكانها صياغة ما تشاء من رسائل التحذير والشكاوى، لكن الكفة كانت تميل لصالحه في النهاية، والدليل هو تلك الإهانة البذيئة التي تركها لها.

السبب الوحيد الذي منع سينغر من ضرب المكتب بغضب أعمى، أو قذف المزهريات الموجودة على رفوفها أرضاً، هو أن كاسوف ترك لها شيئاً آخر مع تلك اللوحة.

ترك لها إجابة.

لقد كشفه غروره.

أعادت سينغر تشغيل التسجيل مرة أخرى، وراقبت حركة ذراعي كاسوف للمرة المائة، والآن تأكدت من شكوكها: لو كان كاسوف

يخربش على اللوحة وظهره للكاميرا، لبدت حركته تماماً كما ظهرت في التسجيل.

لقد تواصلتَ مع وينتر. أريته شيئاً ليقرأه لأنك لم تستطع البوح به علانية.

الآن عرفت سينغر. بل وخمنت أن كاسوف هدد وينتر؛ فتكتمه أمام الكاميرا لا يحمل أي معنى آخر.

لم تكن سينغر تعرف بماذا هدد وينتر بالضبط، لكنها كانت واثقة بأنها ستكتشف ذلك قريباً جداً.

الفصل الثلاثون

تيل

– "لقد فكرتُ في الأمر مجدداً."

قالها "الأبتر" فجأة وهو جالس بجانبه. كان المقعد الجلدي الوثير الذي يستلقي عليه تيل مريحاً لدرجة أنه كاد يغرق في النوم.

لولا تلك الإبرة المحقونة في ثنية ذراعه، والتي يتسلل عبرها السم إلى جسده ببطء، لتخيل أنه يغفو في غرفة الاسترخاء بمركز للتدليك؛ فالأضواء خافتة، والستائر الكريمية مغلقة، وشمعة معطرة تنشر أريج البخور في المكان. كانت الموسيقى الكلاسيكية تنساب بهدوء من مكبرات الصوت في السقف، تماماً كما تنساب الأدوية المثبطة للخلايا من الكيس المعلق إلى أوردته.

قال طارق بوده –الملقب بـ"الأبتر"– والذي كان يخضع للعلاج بالحقن الوريدي منذ أن أحضره سايمون قبل عشرين دقيقة:

– "من الأفضل ألا أقطع قدمي."

أجابه تيل باختصار، آملاً أن يفهم "الأبتر" أنه لا يرغب في تبادل أطراف الحديث:

– "حسناً."

كان تيل يخشى أن يسأله المريض المهووس بتشويه الذات عن نوع السرطان الذي يعاني منه، إذ لا يمكنه الاستفسار دون المخاطرة بكشف

هويته الحقيقية. ولهذا السبب، لم يكن يعرف حتى الآن طبيعة المادة التي تُحقن في جسده لتدمير خلايا سرطانية يُفترض أنها تنهش بدنه.

تابع "الأبتر" هذيانـه مع نفسه:

– "لا فائدة من بتر القدم فحسب."

– "أحقاً تقول هذا؟"

– "يجب أن أتخلص من الساق بأكملها."

نظر تيل إلى يمينه، حيث كان "الأبتر" غارقاً في أوهامه. لم يكن كيس السائل الخاص به يحمل أي ملصق، لذا لم يستطع تيل معرفة ما إذا كان يخضع لعلاج كيماوي هو الآخر، أم أنه يتلقى مجرد فيتامينات. ولكن من نبرة صوته، بدا الأمر وكأنه يتجرع أدوية تغير حالته الذهنية.

فجأة، وجه "الأبتر" سؤالاً لا معنى له إلى تيل:

– "ماذا عنك؟ هل فكرتَ في الأمر؟"

– "في أي أمر؟"

– "هل استطعتَ توضيح تلك المسألة؟"

– "لا أفهم ما تقصد."

– "الموضوع الساخن.. المرضى غير القانونيين."

نظر تيل إلى يمينه مجدداً. كان "الأبتر" لا يزال يبدو وكأنه يتحدث وهو نائم.

سأله تيل:

– "عما تتحدث؟"

كانت الإجابة مقلقة أكثر من السؤال الذي بدأ هذا الحوار العبثي.

– "لا بأس.. لا بأس. أنا آسف، وأحترم خصوصيتك."

لم يجد تيل، الذي بات مقتنعاً بأن "الأبتر" تحت تأثير المخدر، في نفسه رغبة لمواصلة هذا الحوار الغريب. فتح سايمون باب غرفة العلاج واقترب منهما.

سأل وهو يزيل كيس المحلول الفارغ:

– "هل تشعر أنك بخير؟"

أحس تيل بألم طفيف عند سحب الإبرة، وتيقن أن بقعة زرقاء ستظهر في ثنية ذراعه في اليوم التالي.

قال سايمون:

– "أخشى أن عليك الانتظار لفترة أطول قليلاً يا سيد بوده."

ثم التفت إلى تيل قائلاً:

– "موعد حقنتك القادم بعد ثلاثة أيام يا سيد وينتر. ولكن دعنا الآن نبحث عن موعد آخر بعد ذلك، آاه.. اعذرني."

ألقى نظرة اعتذار على تيل وأخرج هاتفه المحمول الذي كان يهتز في جيب معطفه الأزرق.

– "معك سايمون.. نعم.. عذراً، ماذا؟ انتظري لحظة، لا أستطيع سماعكِ جيداً هنا يا سيدة سينغر."

أشار سايمون لـتيل بأنه سيعود بعد دقيقة، ثم وضع مخلفات العلاج فوق حاوية المهملات المناسبة بجانب الباب قبل أن يخرج إلى الممر.

كان قلب تيل يخفق في صدره ككرة تقفز بجنون. ورغم أنه لم يكن يشعر بالارتياح، إلا أنه لم يظن أن ذلك من الآثار الجانبية للكيماوي، بل كان نتاج توتره.

هل يجب أن أفعل؟

تساءل في نفسه وهو ينهض واقفاً.

ألقى نظرة خاطفة على "الأبتر" فتأكد أن عينيه لا تزالان مغلقتين. وأخبره حدسه أن هذه اللحظة هي "الآن أو أبداً"، وهي فرصة قد لا تتكرر قريباً في هذا المكان.

وهكذا، قرر تيل تنفيذ الخطة التي خطرت له بدافع الاندفاع.

أسرع نحو خزانة الأدراج بجانب الباب، حيث استقر صندوق بلاستيكي أصفر بجانب المغسلة تماماً. ولأن حاوية الإبر كانت ممتلئة عن آخرها، ظل الغطاء المصمم لحماية الممرضات وعمال النظافة من الوخز مفتوحاً جزئياً.

أدخل تيل يده في الداخل، فشعر بألم الوخز الحاد، ثم دس يده بسرعة في جيب بنطاله الرياضي. فعل ذلك في الوقت المناسب تماماً؛ إذ كان سايمون يفتح الباب عائداً.

ورغم أن الحارس فوجئ بأن مريضه يقف مستعداً للمغادرة، إلا أنه لم يلحظ اختفاء شيء جوهري من الغرفة. ربما تأكد سايمون من وجود القنية التي وضعها بإهمال فوق الصندوق البلاستيكي الممتد قبل تلقيه المكالمة، لكن ما فاته هو أن الإبرة الناتجة عن العلاج السابق لم تعد تبرز من الحاوية.

لقد أصبحت الآن في جيب بنطال تيل.

وهذا يعني أنه بات يمتلك سلاحاً.

الفصل الواحد والثلاثون

في مصحة «شتاين»، كانت القوانين تفرض قاعدة صارمة تُعرف بـ «المريض ومرافقه». تقتضي هذه القاعدة ألا يغادر أي مريض غرفته دون مرافقة، ويُحظر عليه تمامًا المشي في الحديقة بمفرده؛ فاحتمالية الهروب من معسكر اعتقال في كوريا الشمالية كانت — على الأرجح — أسهل من تجاوز الأسوار الخارجية لهذه المصحة.

اقتيد تيل بواسطة ممرض مفتول العضلات إلى مخرج موقف السيارات في الطابق الأرضي، وهناك بالفعل كانت تنتظر حافلة خضراء. ذكّره مشهدها بتلك الحافلات التي كان يستقلها في الرحلات المدرسية أيام طفولته: حافلة من طابق واحد تتسع لنحو خمسين راكبًا. الفارق الوحيد هنا هو أن النوافذ كانت مغطاة بطبقة سوداء عازلة؛ فلا يمكنك أن ترى ما بداخلها، ولا من بداخلها يرى الخارج.

قال الممرض وهو يُخرج علبة سجائر من جيب معطف المطر الذي يرتديه فوق ثوبه الطبي:

— "لديك عشر دقائق".

كانا يقفان في منطقة بدت وكأنها مخصصة لتسليم الأدوية والمعدات الطبية، لا لاستقبال المرضى. وفّرت لهما هذه المنطقة حماية مؤقتة من المطر الذي كان يهطل في الخارج بغزارة وعنف، حتى

خُيِّل لسامعه أن جدران المبنى تتعرض لقصف بالرمال. طغى ضجيج المطر حتى على هدير الطائرات التي كانت تقلع وتهبط في الجوار.

عندما فتح الممرض الباب الزجاجي ببصمة إصبعه، تحول الضجيج إلى صمم مطبق. شك تيل في قدرة الرجل على إشعال سيجارته وسط هذه العاصفة الهوجاء.

ورغم وجود سقف يظلل الممر، اضطر تيل للخوض في برك المياه للوصول إلى الحافلة. لم تكن الأرض قادرة على تصريف المياه بالسرعة التي تفرغها بها السحب، فراحت السيول تبحث عن مسارات أخرى؛ إذ يبدو أن المصارف المعتادة كانت مسدودة.

صاح الممرض عبر الريح:

— "عشر دقائق".

ثم أدخل رمزًا سريًا على جانب الحافلة، فانفتح باب السائق مصدرًا فحيحًا هيدروليكيًا.

ما إن صعد تيل إلى الداخل حتى أُغلق الباب خلفه.

ارتجف جسده.

وحيداً.

لأول مرة منذ ما بدا له دهرًا.

كان شعورًا مبهجًا، قشعريرة مريحة من ذلك النوع الذي يذكره بطفولته حين كان يهرب من الطقس السيئ، ويعود إلى دفء غرفته الوثير، متطلعًا لقراءة رواية مثيرة.

كانت الحافلة دافئة للغاية، واختلطت رائحة الكتب القديمة المحفزة بتلك الذكريات الجميلة لتزيدها ألقًا. مئات المجلدات ملأت الرفوف التي اصطفت على جانبي الممر بدلاً من المقاعد.

كتب واقعية ذات أغلفة صلبة، روايات رخيصة، أطالس، وروايات إثارة ذات أغلفة ورقية. مرر تيل إصبعه على كعوب الكتب وهو يتفحص العناوين تحت ضوء مصابيح الهالوجين.

عشر دقائق فقط؟ كان بوسعه قضاء ساعات هنا، ويفضل أن يكون ذلك مع كوب من القهوة الساخنة، جالسًا في الصف الخلفي — الوحيد الذي لم تُزَل مقاعده — ومسندًا رأسه إلى النافذة. هدير العاصفة في أذنه كان قريبًا جدًا من جهة، لكنه بعيد للغاية من جهة أخرى، تمامًا كتلك العوالم التي يمكنك دخولها عبر هذه الكتب.

الشيء الوحيد الذي عكّر صفو هذا الجو الحميم كان صوت النحيب.

كان الصوت قادمًا من مؤخرة الحافلة، حيث توجد عادةً الدرجات المؤدية إلى دورة المياه الداخلية.

نادى تيل وهو يقترب من صوت امرأة تحاول كبت دموعها:

— "مرحبًا؟"

ارتجف مرة أخرى، لكن القشعريرة هذه المرة كانت نذير خوف يتنامى.

تحسس طريقه ببطء نحو الأمام، وقبضت يده على الإبرة في جيبه، حتى اقترب بما يكفي لتبين هوية الشخص الجالس على درجات المخرج الخلفي.

– "سيدا؟"

استدارت المريضة التي خدعته لحظة وصوله. كانت عيناها الداكنتان متورمتين. بدت وكأنها دخلت للتو من الخارج تحت المطر؛ وجهها مبلل، وقطرات الماء تتساقط من ذقنها على صدرها.

سألها:

– "ما الخطب؟"

هزت رأسها وقالت وهي تنهض:

– "لا شيء، أنا بخير".

– "هل حبسوكِ هنا؟"

قالت سيدا وهي تكاد تبتسم:

– "لا، لا. مسموح لي بالتواجد هنا بمفردي. عندما أعمل، على الأقل".

نظر تيل حوله وقال:

– "إذن، هذا هو عملك؟"

أكدت ما سمعه سابقًا من الممرض:

– "كنت أعمل كأمينة مكتبة، نعم".

– "ولماذا أنتِ هنا؟"

– "هيا، أنت تعلم أننا معشر المرضى لا نحب الحديث عن ذلك".

– "ولا حتى عن سبب بكائك؟"

لدهشته، رفعت سيدا يدها ومسحت على رأسه. في البداية أراد تيل صدها، لكن اللمسة كانت رقيقة وحنونة لدرجة أنها أثارت ذكرى أخرى جميلة ومؤلمة في آن واحد بداخله.

ريكاردا.

منذ متى لم يلمسه أحد بهذه الطريقة؟

قطعت سيدا فجأة خيط الألفة الرفيع الذي ربط بينهما للحظة، وسألت:

– "خزانة الكتب الثالثة، الرف الثاني؟"

– "ماذا؟ نعم، هذا صحيح".

تذكر تيل أن سيدا تعمل لحساب سكانيا ومطلعة على نواياه وأهدافه. إن كان هناك من وشى به إلى الطبيب كاسوف بأنه يدعي الجنون، فهي المشتبه به الأول.

ابتعد عن سيدا وبحث عن خزانة الكتب، وكما وُعد، وجد الكتاب على الرف الثاني، خلف الأناجيل مباشرة.

جيمس جويس، أوليس.

بدا الوزن خفيفًا جدًا. وعندما هز المجلد الضخم، لم يتحرك شيء بداخله.

فتح تيل الكتاب وقلب صفحاته.

إلى أن وجد الهاتف النقال بعد الصفحة الرابعة والثمانين.

تأكد من أن سيدا لا تنظر في اتجاهه، ثم أخرج الهاتف من الكتاب وضغط على زر الاتصال السريع.

الفصل الثاني والثلاثون

– "الحمد لله".

– "تيل؟"

– "ومن غيري تظنه يملك هذا الهاتف؟"

جلس في الصف الخلفي، أبعد ما يكون عن سيدا، التي كانت تجلس الآن في مقعد السائق، تقلب صفحات مجلة وتستمع للموسيقى عبر سماعات الرأس. ورغم أنه لم يعتقد أنها قادرة على سماعه، إلا أنه كان يهمس.

سأله سكانيا:

– "ما الأمر؟ كيف حالك؟"

– "لستُ بخير. بحق الجحيم، أي هوية منحتني إياها؟ من أكون أنا؟"

– "صوتك لا يبدو بخير يا تيل".

– "ولا أشعر أنني بخير أيضًا. لأكون صادقًا، أشعر بسوء لم أعهده من قبل، ولم أظن أنه ممكن بعد اختطاف ماكس".

– "اهدأ. بروية وبطء. أخبرني بالضبط ما الخطب".

كثف أنفاس تيل الثقيلة الضباب على النافذة المغطاة بالفيلم الأسود. رسم بإصبعه علامة استفهام على التكاثف وتنهد.

– "لا أعرف من أين أبدأ".

– "شيئًا فشيئًا".

هزت هبة ريح عنيفة الحافلة، واستعاد تيل اللحظات الأولى بعد دخوله المصحة.

– "ظننت أنه يجب عليّ أن أعطيهم شيئًا يجعلهم يصدقون أنني فقدت عقلي حقًا. لذا أخبرتهم أنني ابتلعت قنبلة".

قال سكانيا، بنبرة خلت من الرعب أو حتى الدهشة:

– "حسنًا".

– "المشكلة هي أنني لم أقنع سوى بعض الموظفين بأنني قد أكون خطيرًا. أعطوني مهدئًا، لكن بمجرد أن استيقظت في زنزانة العزل، زارني طبيب يُدعى كاسوف وقال لي في وجهي إنه يعتقد أنني أدعي الجنون".

– "مثير للاهتمام".

استشاط تيل غضبًا:

– "أعتقد في الواقع أنه أمر خطير للغاية. لأن هذا المدعو كاسوف يريد إسكاتي لسبب ما. لقد تم حبسي مع سيكوباتي عنيف يُدعى أرمين وولف".

– "ألم تحصل على زنزانة بمفردك؟ هذا غير معتاد".

– "نعم. الرواية الرسمية تقول إن أحد الأجنحة غارق بالمياه وهناك نقص في الأسرّة. لكنني أقسم لك أن كسر إصبعي كان خطأ كاسوف هذا، لأنه تركني مع أرمين".

بدا سكانيا مصدومًا قليلاً الآن:

– "فعل ماذا؟"

– "أراد كسر المزيد أيضًا. تقول سيدا إن الرجل يريد قتلي حتى".

– "إذن قابلت سيدا؟ جيد".

هز تيل رأسه بعنف وشعر بالكدمة تحت عينه تبدأ بالخفقان ألمًا.

– "لا شيء جيد. إنها مجنونة تمامًا هي الأخرى؛ إنها مريضة، أيها الغبي. ولم تعد تقود حافلة المكتبة، لأن الأراضي غارقة بالمياه".

ألقى نظرة خاطفة على سيدا، التي لم ترفع نظرها حتى عند ذكر اسمها.

– "إذن كيف حصلت على الهاتف؟"

– "قصة طويلة. أفضل أن تخبرني في جلد من أعيش هنا. كما ترى، يبدو أنك منحتني أسوأ غطاء ممكن".

بدا سكانيا منزعجًا وهو يجيب:

– "أنا آسف. إذا كنت تريد إدخال مريض بسرعة إلى مصحة شتاين، فالخيارات محدودة للأسف".

– "أعرف ذلك. لكن هل كان لا بد أن أكون عازف بيانو، ومتحرشًا بالأطفال موهوبًا في الرياضيات، ومصابًا بورم في المخ؟"

– "أعد ما قلته؟"

– "لقد سمعتني".

ساد صمت. سمع تيل تشويشًا جويًا عبر الخط، وكأن الرياح تعصف الآن في الأثير أيضًا، ثم قال سكانيا ساخطًا:

– "هذا... هذا هراء. باتريك وينتر ليس متحرشًا بالأطفال. ولا أعلم شيئًا عن أي ورم".

رفع تيل صوته:

– "معلوماتك سيئة إذن. لقد خضعت للتو لأول جلسة علاج كيماوي. أنا أسمم نفسي هنا يا صاحبي".

في تلك اللحظة، نظرت سيدا إلى الخلف نحو تيل، وأومأت له برأسها، ثم نقرت على ساعة وهمية في معصمها.

نعم. الدقائق العشر أوشكت على الانتهاء. أراد سكانيا إنهاء المحادثة أيضًا. وليس هذا فحسب.

– "حسنًا، سنوقف هذا الأمر. سأخرجك من هناك".

– "توقف، انتظر!"

– "لا! لا انتظار. انتهى الأمر هنا والآن. فورًا. تباً. كيف يمكنني أن أتركك ترقد بجوار ترامنيتز في العيادة، ويدك مكسورة وسموم السرطان تجري في دمك؟"

تيل، الذي كان يهم بالوقوف، جلس مرة أخرى.

– "ماذا قلت للتو؟"

استجاب سكانيا لطلب تيل وكرر ما قاله. وعند سماع كلمة «عيادة»، قاطعه تيل.

– "كيف عرفت ذلك؟"

– "أنت أخبرتني بنفسك عن الأصابع المكسورة والكيماوي. أين عساك تكون غير هناك؟"

لوى تيل الجزء العلوي من جسده جانبًا مثل تلميذ يحاول منع جاره من الغش، ثم غطى يده اليسرى وهو يحمل الهاتف بيده اليمنى المصابة، وهمس:

– "سؤالي هو كيف عرفت أن ترامنيتز في العيادة. كان يجب أن يعود إلى زنزانته منذ وقت طويل".

أوضح سكانيا:

– "ذكروا ذلك في الراديو هذا الصباح. يبدو أنه أصيب بتسمم في الدم بعد الجراحة. إنهم قلقون بشأن المتطلبات الأمنية حتى يتم نقله مرة أخرى. يبدو أنه يمكنك التحرك بحرية كبيرة في العيادة".

قال تيل متوسلاً تقريبًا:

– "أعطني مزيدًا من الوقت يا أوليفر".

– "ليتمكنوا من قتلك هناك؟ لن أسمح بإيذائك أكثر من ذلك. لقد أصبحت عبئًا حقيقيًا".

تحدث تيل بسرعة أكبر الآن:

– "لن تصل الأمور إلى هذا الحد، أعدك. الليلة سأكون بمفردي في زنزانة جديدة. لا شيء يمكن أن يحدث لي هناك. وخلال النهار يمكنني الاعتناء بنفسي. أعطني يومين إضافيين. إذا لم أكتشف شيئًا بحلول ذلك الوقت، سنلغي كل شيء".

ملأ صوت حفيف فجوة الصمت في المحادثة مرة أخرى، لكن الرياح هذه المرة جاءت من الخارج عبر باب السائق الذي فُتح.

قال صهره أخيرًا:

– "أربع وعشرون ساعة يا تيل. لديك يوم واحد".

– "شكرًا. لن أحتاج لفترة أطول لاكتشاف الحقيقة".

دمدم سكانيا:

– "همم. لكن من فضلك لا تغلق الخط بعد. زوجتك تريد التحدث إليك".

في تلك اللحظة فقط، وبعد فوات الأوان، أدرك تيل أن شخصًا آخر كان في الحافلة، شخصًا كان يستمع – منذ متى؟ – وهو الآن يقترب منه وعلى وجهه تكشيرة غاضبة.

الفصل الثالث والثلاثون

سخر كاسوف متقمصًا نبرة، ربما قاصدًا بها تقليد أسلوب رجل مثلي بشكل مبتذل:

— "أوليس. إذن، سيد وينتر دودة كتب، ويقرأ الأدب الرفيع أيضًا. جيمس جويس. من كان ليظن؟ هل لي أن أرى؟"

انتزع النسخة الجلدية الخاصة وكأنه يمزقها من بين يدي تيل.

وبينما كان كاسوف يطأطأ رأسه ليشق طريقه نحو المقاعد الخلفية، دس تيل الهاتف في جيب بنطاله، رغم أنه لم يكن واثقًا من أن الطبيب المتشكك لم يلمحه بالفعل.

على أي حال، لم يكن لديه وقت لإعادة الكتاب إلى الرف.

سأل كاسوف، وعزز كل من البريق الساخر في عينيه وغموض سؤاله شكوك تيل في أن الطبيب يلعب معه لعبة القط والفأر:

— "هل تستمتع بالمحتوى؟"

ما الذي يعرفه هذا الوغد عني؟

نظر تيل أمامه إلى سيدا التي كانت تقف، مثل كاسوف، في الممر وتهز رأسها بصمت، وكأنها تحاول أن تقول لتيل: «ليس لدي أي فكرة عما ينوي فعله أيضًا».

أجاب تيل على سؤال كاسوف:

— "لم أقرأ الكتاب بعد".

انبعث طنين عميق من أحشاء الحافلة. لابد أن نظام التدفئة قد بدأ بالعمل.

سأل كاسوف وهو يهز المجلد بكلتا يديه كطفل يحاول تخمين محتويات هدية عيد الميلاد:

— "أفترض أنك تنوي أخذه معك إلى زنزانتك؟"

قال تيل، وهو يصلي ألا تكون ريكاردا قد أغلقت الخط بعد:

— "ما زلت أفكر في الأمر".

وأن لا يخطر ببال كاسوف فتح الكتاب.

سأله على أمل تشتيت انتباه الطبيب:

— "ماذا تريد مني؟"

أجاب كاسوف بابتسامة ساخرة، دون أن يبذل أدنى جهد لإخفاء كذبه:

— "أردت الاطمئنان على يدك".

أشار إلى ضمادة الإصبع الزرقاء الفاتحة ثم إلى عين تيل المتورمة:

— "سمعت أنك كنت سيئ الحظ الليلة الماضية".

رد تيل باستفزاز:

— "نعم. شخص ما ارتكب خطأ".

كلانا يعرف جيداً أنك تعمدت حبسي مع أرمين. السؤال هو: لماذا؟

حاول تيل بذل قصارى جهده لتجنب النظر إلى الكتاب الذي استمر الطبيب في العبث بغلافه، لكن لحسن الحظ دون النظر إلى الداخل. وإلا فقد يكتشف التجويف بين الصفحات. المخبأ السري.

وعندها سيقوم بتفتيشي.

سأل كاسوف وتجمدت تعابير وجهه:

– "شخص ما؟ أخشى أن شخصًا معينًا قد يؤذي نفسه بشكل أخطر إذا لم يبقِ فمه مغلقًا".

ابتسم مرة أخرى وأضاف:

– "هل هذا مفهوم؟"

لا. لكنني أخشى أن باتريك وينتر الحقيقي سيكون مدركًا للظروف ويعرف سبب عداوتك له هنا. ولهذا سأبقي فمي مغلقًا.

أومأ تيل برأسه وحاول أن يبدو خاضعًا قدر الإمكان، وهو ما نجح فيه فقط حتى تخلت عنه أنفاسه ورجاحة عقله.

لأن كاسوف فتح الكتاب.

وبنظرة جانبية سادية، فتح الغلاف ببطء شديد يبعث على العذاب، وكأن وزنه طن من الرصاص.

قرع قلب تيل قفصه الصدري مهددًا بتحطيمه.

وإذا كان الطبيب قد تفاجأ بخفة وزن هذا الكتاب الضخم، فقد اكتشف السبب الآن.

مسد الصفحات قبل أن يقلبها بسرعة عبر الكتاب.

استمر في التقليب.

حتى وجد مخبأ الهاتف الفارغ.

الفصل الرابع والثلاثون

لم يرف لـ كاسوف جفن.

لم يغضب ولم يرفع صوته.

حتى أنه لم يمسك بذراع تيل ليخرجه، وهو ما جعل «المريض» يتوقع للحظة أن يتم تفتيشه هنا في الحافلة. لن يجد الطبيب الهاتف المحمول فحسب، بل الحقنة أيضًا.

ظل الطبيب هادئًا. بدا مسترخيًا ظاهريًا. لكن وقوفه هناك — وكتاب أوليس مفتوح بين يديه، والمخبأ مكشوف — أشع برودة جليدية من حوله.

كان الأمر وكأن كاسوف لا يزفر ثاني أكسيد الكربون، بل مادة مبردة تخفض درجة الحرارة داخل الحافلة.

صرخ تيل في أفكاره: يا إلهي، لا!

سينقطع اتصاله الوحيد بالعالم الخارجي إذا اضطر لتسليم الهاتف.

فكر تيل للحظة في استخدام الإبرة كسلاح ضد كاسوف، ولكن ما الذي سيحقق ذلك سوى حبسه في زنزانة انفرادية؟ هذا في أفضل السيناريوهات.

على الأرجح سيُطرد من المستشفى، ومن المفترض أن تتصل سينغر بالشرطة. لم يعرف تيل أي القوانين قد خرقها بالفعل حتى دون محاولة التغلب على كاسوف. لابد أنها عديدة.

تساءل حينها عما إذا كانت سيدا، التي لا تزال تقف متصلبة كتمثال في الممر، ستتعرض للعقاب أيضًا؛ إذ من المؤكد أنها لاحظت أن تيل كان يتحدث في الهاتف بوجودها.

عندما رفع كاسوف نظره، ولاحظ تيل لأول مرة أن حاجبيه يلتفان نحو صدغيه مثل الشوارب، شعر بالغثيان.

هل ستنتهي الأمور هكذا؟

تبًا. لم يقطع شوطًا طويلاً، لكنه نجح في دخول المستشفى. نجا من الليلة الماضية، وإن كان بكدمات. لقد تغلب على عقبات كبيرة وكان واثقًا من أنه سيجد طريقه إلى ترامنيتز.

لو كان لدي المزيد من الوقت فقط.

هل سيُحرم الآن من توديع ابنه للأبد بسبب وغد كهذا؟

هل ذهب كل شيء سدى؟

بدأ تيل حديثه دون أن يعرف ما يريد قوله:

— "أستطيع أن أشرح لك".

لم تكن لديه خطة بديلة في حال انكشف أمره.

في الأساس، لم تكن لديه خطة على الإطلاق سوى الحصول على مذكرات ترامنيتز، وهو ما بدا، عند التفكير فيه، مشروعًا يائسًا إن لم يكن ميؤوسًا منه.

قال كاسوف، وشعر تيل بغثيان أشد:

— "لست مهتمًا".

الآن سيكتشف على الأرجح الحساب الذي يريد الطبيب تصفيته مع باتريك وينتر.

أو معي، إذا اكتشف لسبب ما من أكون حقًا.

أراد تيل أن يقول: كنت أتساءل أيضًا لماذا الكتاب تالف هكذا، لكن قبل أن يتمكن من فتح شفتيه، تركته كلمات كاسوف يترنح من الصدمة. لأن ما قاله الطبيب – وما يمكن استنتاجه مما قاله – كان غير مفهوم بالمرة، وبالتالي مثيرًا للقلق الشديد.

– "لديك خمس دقائق أخرى".

ابتسم كاسوف وأغلق الكتاب.

ثم قال: "استمتع"، وناول تيل الكتاب، ونزل من الحافلة دون أن يلتفت خلفه أو يودع سيدا.

الفصل الخامس والثلاثون

– "ريكاردا؟"

لم يأتِ رد، لكنه استطاع تمييزها من أنفاسها. أو على الأقل خُيِّل إليه أنه يعرفها لتلك الدرجة. بعد كل هذه السنوات.

لا تزال هناك.

إذن هي على الخط. يا له من حظ أنها لم تغلق الهاتف. ربما سمعت الحديث المتبادل بينه وبين كاسوف. وفهمت المأزق الذي كان فيه. مأزق نجا منه تيل دون أن يعرف لماذا أطلقه الطبيب من قبضته.

لم يكن لديه تفسير لعدم تفتيش كاسوف له بحثًا عن المهربات. تصرف الطبيب أخافه تحديدًا لأنه كان غير قابل للتفسير، بل وعبثيًا. لكنه كان أكثر خوفًا مما ستقوله ريكاردا.

همس قائلاً، وهو يعني كل كلمة:

– "أنا آسف يا عزيزتي".

آسف لعدم إخبارها بما كان يفعله. للإقدام على شيء جنوني كهذا. لسماحه لـ ماكس بالذهاب إلى منزل الجيران.

– "أخبركِ شقيقك بمكاني إذن؟"

– "نعم".

كلمة واحدة، مخنوقة بالدموع. قصيرة جدًا. ثلاثة أحرف كانت أقل بكثير مما ينبغي. لم يستطع تيل التنبؤ بما سيلحق ذلك. تفهم أم رفض؟ موافقة أم نقد؟ حب أم... كراهية؟

– "لم يكن عليه فعل ذلك. لم أرد أن تقلقي".

قالت ريكاردا:

– "إنه أخي".

كان ذلك أكثر قليلاً – جملة كاملة على الأقل – ومع ذلك لم يتمكن تيل من قياس الحالة العاطفية لزوجته. حتى أخرجته أخيرًا من عذابه بقولها:

– "أنا فخورة جدًا بك!"

نظر إلى سقف الحافلة المغطى بالقماش الرمادي ومسح الدموع من عينيه. ثم بدأ يبكي بحرقة أكبر.

اجتاح الخوف والراحة جسده، ومضى وقت قبل أن يتمكن من التحدث مرة أخرى.

كرر قائلاً:

– "أنا آسف".

– "لا، أنا الآسفة. أعرف أنني صرخت في وجهك. نعتك بالفاشل لأنك استسلمت ولم تفعل شيئًا. لكن، كما ترى، لم أكن أعرف ما يمكن فعله".

– "أنا أتفهم ذلك".

أسند رأسه إلى النافذة، ممتنًا لكل كلمة من كلمات زوجته.

حتى لو كانت قد صبت عليه الشتائم، لكان الأمر مقبولاً. لأن ذلك لا يزال أفضل من أن يُسلب طفله ويُترك وحيدًا. حديثها معه بهذه المودة ومحاولتها شرح سلوكها كان أكثر مما تجرأ على الحلم به.

قالت ريكاردا:

– "كنت غاضبة. مليئة بالكراهية. تجاه الوحش الذي سلبنا كل شيء. لم يكن ملموسًا، لكن غضبي احتاج إلى قناة للتصريف. لم أستطع أن أكون مثلك وأجلس في المنزل، أقرأ كل الصحف وأبحث في كل تقارير الإنترنت عن ماكس، وأتعفن من الداخل أثناء ذلك. كان عليّ أن أفعل شيئًا. بشكل نشط. أفعل شيئًا، أذهب إلى مكان ما. لكن ماذا؟ وإلى أين؟"

ترك تيل سؤالها دون إجابة. لقد مر وقت طويل جدًا منذ أن سمع ذلك الدفء والحب في صوت ريكاردا. لم يرد إفساد صدى كلماتها بتعليق.

– "لذا صببت غضبي عليك. رحلت، وأخذت إميليا معي. صببت غضبي عليك، أنا آسفة".

همس الآن:

– "سأصلح كل شيء".

ردت ريكاردا بحيوية ولكن دون توبيخ:

– "لا. لن تفعل. لا يمكنك ذلك. لن تكون الأمور بخير مرة أخرى أبدًا، لأنه لا شيء يمكن أن يعيد لنا ماكس".

– "أعرف".

– "لكن يمكنك إعادة التوازن".

أومأ تيل برأسه. كان يعرف ما تعنيه.

لقد زارهم الشر، متجسدًا في هيئة ترامنيتز في حديقة منزلهم الأمامية، وسلبهم الكثير من معنى حياتهم. كانت إميليا السبب الأوحد والأسمى لعدم وضع مسدس في أفواههم، لكن التوازن قد دُمر.

في كفة الموت استقر ثقل الألم المليء بالدماء والرصاص.

وفي كفة الحياة، مجرد ريشة مكسورة من السعادة.

وعد تيل قائلاً:

— "سأقتله".

وعندما قالت ريكاردا كم تحبه وتفتقده، أدرك أنها لم تكن تعني ذلك الحب النقي غير المشوب الذي قادهما إلى المذبح، وأن الأمور لن تعود أبدًا كما كانت من قبل.

لكنه عرف أيضًا أن شيئًا ما بينهما قد تغير للأفضل.

قالت ريكاردا:

— "اجعله يعاني".

ولأول مرة منذ دهر، استطاع تخيل ضمها بين ذراعيه مرة أخرى.

مجرد عناق، لا أكثر.

في وقت ما في المستقبل البعيد.

بمجرد أن ينجح في شق طريقه إلى ترامنيتز.

تحسست يده الإبرة في بنطاله الرياضي.

لأي سبب كان، منحه كاسوف، عدوه المحير، فرصة.

وسيكون قادرًا على استغلالها.

ومهما كان مسار عمله مؤلمًا، بعد هذه المكالمة الهاتفية، لم يعد لدى تيل أدنى شك في أنه سيتحمل العذابات التي تنتظره.

الفصل السادس والثلاثون

ما إن وطئت قدما تيل "المقصف" حتى خيم السكون على المكان؛ انقطعت الأحاديث وتوقفت قعقعة الأواني فجأة، وكأن الحاضرين الذين كانوا يحتسون قهوتهم يمتلكون "هوائيات" داخلية التقطت ذبذبات الوعيد المنبعثة منه.

كان في الغرفة ستة مرضى، لكن لا أثر للحراس أو الممرضين أو حتى الأطباء. اقتربت الساعة من السادسة مساءً، ولم تظهر بوادر العشاء بعد، كما أن طعم القهوة المقطرة في الأواني الحافظة للحرارة لم يكن مغرياً لدرجة تجعل النزلاء يتهافتون عليها.

لذا، لم يبذل تيل جهداً كبيراً ليرصد أرمين وولف. كان يجلس بظهر منحني —وهي سمة غالباً ما تلازم طوال القامة— ممسكاً بكوب ضخم، ومنهمكاً في قراءة إحدى تلك الصحف التي لا تتعدى محتوياتها العناوين الصارخة والصور الضخمة.

بدا أرمين وكأنه الوحيد الذي لم يعر تيل أدنى اهتمام، متظاهراً بعدم ملاحظة وجوده حتى اللحظة الأخيرة.

قال تيل وهو يحدق فيه من أعلى:

— "أهلاً بك."

رفع أرمين رأسه، ورسم على وجهه تعبيراً ساخراً وهو يضع يده فوق عينيه وكأن ضوء الشمس قد أعماه. سأل ببرود:

– "أين الهاتف؟"

فأجابه تيل:

– "لا يوجد هاتف."

في الحقيقة، كان قد تركه في الحافلة؛ فالهاتف داخل الكتاب أكثر أماناً منه في زنزانة تفتقر لأي مخبأ.

– "إذن أنت في عداد الأموات."

– "بل أنت." قالها تيل وهو يطعنه.

قفز أرمين صارخاً، رغم أن الوخزة في أعلى ذراعه كانت مباغتة أكثر منها مؤلمة.

– "ما هذا الهراء...؟"

سدد أرمين قبضة قوية نحو تيل، لكنه —وربما تذكر وجود الكاميرات في السقف— اكتفى بمسكه من قميصه الرياضي. صرخ:

– "ماذا فعلت؟"

– "إنها إبرة."

أمسك بيدي تيل وعصر أصابعه حتى انتزع المحقنة. قال وكأنه لا يصدق ما حدث:

– "لقد وقعتَ على وثيقة إعدامك يا وينتر."

التفت أرمين، الذي يفوق تيل برأس كامل، بحيث لا تراه الكاميرا إلا من ظهره؛ لا بد أنه تلقى دروساً من كاسوف. وعلى أي حال، وضع الإبرة أمام عيني تيل مباشرة.

– "في أول فرصة تسنح لي، سأغرس هذا الشيء في عينك لتستقر في دماغك، أيها الأحمق."

دفعه أرمين جانباً وهمَّ بالجلوس مجدداً، حين قال تيل بصوت خافت:

– "أنا مصاب بالإيدز."

تلاشت الألوان من وجه أرمين:

– "ماذا؟"

– "وأنت الآن مصاب به أيضاً."

انتظر تيل حتى هبَّ أرمين واقفاً وأمسك بكرسيه، ثم استدار وبدأ العد التنازلي من عشرة وهو يتجه نحو المخرج.

عند الرقم ثمانية، كان قد قطع خطوتين نحو الباب.

عند الرقم سبعة، شعر بأنفاس تلهث خلف عنقه.

وعند الرقم ستة ونصف تقريباً، هوى الكرسي على جمجمته فجعلها حطاماً.

الفصل السابع والثلاثون

سينغر

قالت البروفيسورة سينغر وهي تتفحص صور الرنين المغناطيسي على شاشتها:

– "كسر في قاعدة الجمجمة الأذني مع تصدع في العظم الصدغي."

قال سايمون، الذي استدعته لمكتبها في ساعة متأخرة وكان لا يزال متأثراً بما رآه:

– "كان المكان يشبه ساحة معركة. لقد انزلقتُ فوق دماء وينتر. هل كان ذلك السائل الخارج من أنفه هو سائل الدماغ؟"

هزت سينغر رأسها قائلة:

– "حسبما أرى هنا، لم يعانِ من أي نزيف داخلي ثانوي، ولا تمزق في غشاء الدماغ الصلب. لقد اكتفى الدكتور فريدر بترميم الضرر باستخدام لاصق العظام."

تبدلت ملامح سايمون إلى حزن عميق، زفر بضيق وبدا مصدوماً:

– "هل سيكون من الأفضل لكِ أن أقدم استقالتي؟"

حدقت فيه سينغر، التي كانت تدلك مؤخرة عنقها لتخفيف التوتر، وكأنه يسألها عن حالة الطقس على كوكب المريخ.

– "ما الذي دفعك لهذا الظن؟"

تنهد قائلاً:

– "إنه خطئي؛ أنا من سمح لـوينتر بالحصول على الإبرة. لم يكن لِيحدث هذا لو لم أكن مهملاً."

راقبت سينغر سايمون وهو يحك إبهامه بسبابته بتوتر. وكعادتها دائماً، أذهلها إحساسه العالي بالمسؤولية ورهافة حسه. عندما وظفت هذا اللاجئ السنغالي، كان بالكاد ينطق كلمة ألمانية واحدة، لكن ذلك لم يمنعه من بناء رابطة عاطفية مع المرضى أسرع من زملائه الألمان، ببساطة لأنه كان ينتبه لأدق الإيماءات وتغيرات الملامح، كما أن تعاطفه القوي مكنه من رصد أخفى المشاعر. لكن هذه المرة، خاب حدسه حين ظن أن وجهها القلق وصوتها المتهدج هما مقدمات لإعلان فصله من العمل.

– "كلنا نرتكب الأخطاء، وأخشى أنني سأضطر لكتابة تقرير بهذا الشأن. لكن آخر ما أفكر فيه هو طردك. بل على العكس، لقد كنت دوماً مستشاراً ناصحاً، وأنا الآن أحتاج نصيحتك أكثر من أي وقت مضى."

نظر إليها سايمون بحذر، وعندما أدرك جديتها، ابتسم ابتسامة عريضة جداً. كانت هذه سمة أخرى تميز حارسها الأفضل؛ فبعد ارتكاب خطأ ما، لا يقضي أيامه غارقاً في لوم الذات، بل يستعيد نشاطه فور سماع خبر طيب.

– "كيف يمكنني مساعدتكِ؟"

أغلقت سينغر حاسوبها المحمول، وأشارت إلى كومتي الملفات بجانب مكتبها:

– "هل ترى هذا الجبل؟ هذه هي الوثائق التي جُمعت عن وينتر."

صفر سايمون تعجباً:

– "كل هذا؟"

– "قرأتُ خلال الأيام والليالي الماضية كل ما نملكه عن وينتر؛ تقارير طبية، محاضر محاكمات، وإفادات شهود." تنهدت ونظرت في عينيه مباشرة: "لكنني لا أزال عاجزة عن فهم شخصيته."

– "هذا حالي مع معظم المرضى هنا."

بادلته سينغر الابتسامة:

– "نعم، أعرف. ربما لم أصغِ الأمر جيداً، لكن ما الذي يخطط له هذا الرجل؟"

– "أنتِ تسألينني أنا؟"

نهضت واتجهت نحو النافذة. منذ أيام لم تعد بحاجة لإغلاق الستائر؛ فشمس نوفمبر الضعيفة التي تطل على برلين عادة ما يستبدلها الضوء الصناعي بعد الغداء مباشرة. والآن، قبيل منتصف الليل، انطفأت حتى مصابيح الحديقة، فصارت تحدق في فجوة مظلمة ممطرة لا تعكس سوى صورتها وصورة مكتبها من الداخل.

قالت وهي تضغط بكفها على الزجاج:

– "أود حقاً معرفة ما يخطط له."

سرى برد النافذة إلى ذراعها بالكامل. شعرت برغبة عارمة في فتحها وفك رباط شعرها وإخراج رأسها في المطر الذي يضرب المبنى بعنف. لكن حتى ذلك لن يهدئ العاصفة المستعرة في رأسي.

– "وينتر سألني عن ترامنيتز. هل تجد تفسيراً لذلك؟"

التفتت نحو سايمون الذي كان يحدق بقلق في يديه الضخمتين فوق حجره.

– "لا.. لا أعرف."

– "لكن لديك شك، أليس كذلك؟"

رفع نظره إليها وقال:

– "لقد رأيتِ بنفسكِ تسجيلات المقصف، وسمعتِ شهادات العيان. يبدو حقاً أن وينتر هو من استدرج الهجوم."

أومأت سينغر برأسها:

– "ليس هذا فحسب، لقد أعطى ظهره لـوولف. فحصتُ حركة شفتيه عن قرب، ويبدو وكأنه كان يقوم بعدٍ تنازلي."

تمتم سايمون:

– "عد تنازلي؟ كان يعرف ما سيحدث."

سمعت سينغر دوي رعد بعيد، وانتظرت حتى تلاشى ثم قالت:

– "على أقل تقدير، كان وينتر يتوقع الهجوم. لقد تقبَّل تلك الإصابات عن وعي."

لقد نال تلك الجراح عمداً.

– "والآن هو في العيادة، تماماً مثل ترامنيتز الذي سأل عنه قبل وقت قصير."

– "ماذا يعني هذا؟"

تبادلت نظرة غامضة مع سايمون:

– "لا أدري. لكنني أخشى أننا هذه المرة يجب أن نكون أكثر حذراً من أي وقت مضى، وإلا فسنواجه جميعاً مأزقاً حقيقياً."

الفصل الثامن والثلاثون

تيل

مرة أخرى، كانت رائحة القار المحترق هي ما ذكّره بالجحيم على الأرض؛ ذلك المكان الذي يعرف حراسه اسمه عن ظهر قلب، فقد دخله مراراً. ومرة أخرى، كان يرى في منامه موقف سيارات تحت شمس الصيف اللاهبة، يرقبه من مسافة آمنة مفترضة، محلقاً فوق أرصفة برلين بعدة طوابق. لكن السيارة كانت عنصراً جديداً في حلمه؛ سيارة دفع رباعي سوداء بسقف لامع يعكس أفق ناطحات السحاب الزجاجية. كانت المركبة الوحيدة في ذلك الموقف الضخم المهجور.

شعر تيل بألم عميق يتصاعد نحوه مع الهواء المتماوج، حاول في حلمه الابتعاد عن النافذة، فلا بد أنه حرك كتفه في السرير، وربما رأسه أيضاً، إذ سرعان ما أعاده ذلك "المفك" الذي ينخر جمجمته إلى النوم قسراً.

استمر الأمر على هذا المنوال لفترة.

سواد.. ألم.. حرارة.. قار.. ألم.. سواد.

ظل تيل يتأرجح في حلقة مفرغة بين استيقاظ معذب ونوم خدرته المسكنات، حتى استبد به الرعب من البقاء في هذه الحالة البرزخية للأبد، فاستجمع كل قوته ليفتح عينيه عنوة.

كان ذلك خطأً.. خطأً فادحاً.

كان الضوء الخافت المنبعث من مصباح السقف كافياً لتنهال الدموع من عينيه. أطبق جفنيه فوراً، لكنه ارتكب الخطأ التالي؛ حين حاول مسح الدموع المتبقية من زوايا عينيه، شعر أولاً بوخز خفيف في أصابعه المكسورة، تبعته صدمة تشبه ضربة مضرب بيسبول حين لمس الضمادة على رأسه.

هذه المرة، لم يكن الأمر مجرد تمثيلية.

هذه المرة، كان مصاباً بجروح بالغة. كان الألم شديداً لدرجة أنه أيقن أن جمجمته ستنقسم إلى شطرين لو فكَّ تلك الضمادة التي بدت كأنها الشيء الوحيد الذي يمسك رأسه من الانهيار. جعلته هذه الفكرة يشعر بالغثيان. كان يود أن يتقيأ من شدة الألم، لولا يقينه بأن ذلك سيزيد حالته سوءاً، فحاول كبت غثيانه.

النجدة، نادى في أعماق تفكيره، وتذكر أن المستشفيات عادة ما تضع زراً أحمر بجانب السرير لاستدعاء الممرضة، وطلب شاحنة محملة بالمسكنات، "المورفين" إن أمكن. هذا بافتراض أنه في العيادة!

بما أنه لا يزال مغمض العينين، لم يستطع التأكد. ولكن أين كان يمكن أن يقتادوه غير ذلك؟ لم يسعفه ذهنه بتذكر التفاصيل، سوى أنه استفز أرمين في المقصف وهو يعلم يقيناً أنه سينتهي به المطاف إما ميتاً أو في العناية المركزة. ولأنه لا يزال يشعر بكل صنوف العذاب الأرضي، افترض أنه لم يغادر الحياة الدنيا بعد. رغم أنه لم يكن متأكداً من هذا أيضاً.

ربما كان الانتحار بلا جدوى.. ماذا لو كنا جميعاً مخطئين، والألم لا ينتهي بالموت؟

دفعه هذا الخاطر المرعب للقيام بمحاولة ثانية. هذه المرة فتح جفنيه ببطء شديد، وكأنه يشاهد فيلماً بالتصوير البطيء. لم يمنعه حذره من فزع آخر جعله يرتجف مجدداً؛ فرغم ومضات الألم، استطاع رصد عدة أشياء في آن واحد. كان في غرفة بيضاء، مستلقياً تحت ملاءة منشاة في سرير مستشفى يعلوه مقبض. ورأى ذلك الظل الذي أفزعه بجانب سريره وهو يمر بجوار الخزانة المدمجة ويتسلل بهدوء خارج الباب المفتوح.

بُحَّ صوت تيل وهو ينادي الظل ذو الانحناءات الأنثوية:

— "مهلاً..."

كان يأمل أن تعود الممرضة وتعطيه بعض المسكنات. لم يرتكب خطأ محاولة الجلوس، بل اكتفى بلف رأسه قليلاً نحو الباب. اعترضت رؤيته حافة معدنية في مجال بصره المشوش، واستغرق وقتاً ليدرك أنها الطاولة المتحركة التابعة لخزانة السرير. واستغرق وقتاً أطول ليميز الجسم الذي يشبه الطرد الموجود فوقها.

وعندما رأى أخيراً نسخة مجلدة من رواية "أوليس" لـجيمس جويس فوق طاولته، أدرك أيضاً هوية الظل الذي رآه يتسلل خارج الغرفة.

— "سيدا."

نطق اسمها بصوت أعلى قليلاً هذه المرة، لكن دون جدوى. مد يده اليسرى نحو الكتاب، وهو ما نجح فيه بسهولة نسبية، وفتح الغلاف؛ اضطر لإغلاق عينيه مجدداً بسبب الألم، لكن حاسة اللمس لديه كانت تعمل بكفاءة، فتأكد أن الهاتف المحمول لا يزال في مكانه الصحيح.

لقد أحضرت لي سيدا هاتفي! فكر في الأمر بامتنان ممزوج بالقلق. هل كانت تعرف ما بداخل الكتاب؟ أم أنها أرادت فقط تزويده بمادة للقراءة رأته يتصفحها طويلاً في الحافلة؟ لا، لا توجد مصادفات بهذا الحجم.

كان الدافع الأول لـتيل هو الاستسلام للتعب والعودة للنوم فوراً. والدافع الثاني هو الاتصال بـسكانيا. لكن كلاهما كان محفوفاً بالمخاطر؛ فماذا لو دخل شخص ما واكتشف الهاتف؟ سواء وهو نائم أو وهو يستخدمه؟ لا، عليه الانتظار حتى يستعيد صفاء ذهنه بالمعنى الحرفي للكلمة، وحتى يعرف أين ومتى سيظل دون إزعاج ولكم من الوقت. كان عليه إخفاء الهاتف فوراً، والكتاب أيضاً إن أمكن، ولكن كيف سيفعل ذلك؟

أين أضعه؟

ربما من الأفضل أن يجعل سيدا تعيده إلى الحافلة. إذا كانت لا تزال في العيادة، فلن يضره التحدث معها على الأقل؛ فهي صلة وصله الوحيدة هنا، رغم تحذير سكانيا من أنها لا تُؤتمن.

لكن يبدو أنها تستطيع الدخول لجميع الأجنحة والأقسام. فربما تعرف مكان ترامنيتز؟

شحذ التوتر حواس تيل. ورغم أنه كان لا يزال يشعر وكأنه حاول إيقاف قطار مسرع برأسه، إلا أن دفقة "الأدرينالين" خففت من غثيانه، مما منحه القوة ليزيح الملاءة عنه دون أن يتقيأ. في تلك اللحظة، رأى أن من الأفضل عدم ترك الكتاب والهاتف ملقيين هكذا، فوضعهما في الدرج العلوي لخزانة سريره.

ثم، وهو يضغط على أسنانه، أمسك بالمقبض فوق السرير وسحب نفسه للأعلى. شعر بشيء داخل رأسه ينزلق من جهة إلى أخرى، وانزلق قميص نومه الرمادي فوق ركبتيه حين دفع ساقيه خارج السرير.
وبمجرد أن لامست أصابع قدميه الحافية الأرض، اجتاحه البرد. حاول عبثاً إيقاف الرعشة. ومع كل خطوة يخطوها نحو الباب، كانت قشعريرة الحمى تزداد حدة.

لحسن الحظ كانت الغرفة صغيرة، فاستطاع تيل إسناد نفسه أولاً على السرير، ثم على كرسي، وأخيراً على مقابض الخزانة. لاحظ بذهول أن غرفة المستشفى تحتوي على حمام خاص بها. ألم تقل سينغر شيئاً عن نقص الأسرة؟ والآن هو يرقد هنا في غرفة منفردة مريحة.

نظر مجدداً نحو النافذة في محاولة يائسة لتقدير الوقت. لم يكن الوقت ليلاً على أي حال، لكن هذا كل ما استطاع استنتاجه من مراقبة الزجاج الملطخ بالمطر. وبالنظر للضوء الباهت القاتم في الخارج، فقد يكون الوقت في أي ساعة بين الفجر والغروب. يوم خريفي شتوي نمطي في برلين، مع مطر غزير. هل كان يتوهم، أم أن رائحة الرطوبة والعفن بدأت تفوح هنا؟

حتى مقبض الباب كان ملمسه لزجاً. ضغط عليه، لكنه لم يفتح.

مغلق بالطبع.

لكن مهلاً. تذكر بشكل غامض أن اللوائح في العيادة كانت أكثر مرونة منها في الأجنحة المغلقة. ربما كان الباب ثقيلاً فحسب، أو أنه هو من كان واهناً جداً. وبإنهاك تام ورعشة شديدة، اتكأ بظهره على الباب.. وكاد يسقط في الممر.

أيها الأحمق.

لقد كان يسحب الباب، بينما هو يفتح للخارج بوضوح؛ فهذا يسمح للموظفين بفتح الباب حتى لو انهار المريض خلفه مباشرة.

كان الممر خالياً تماماً، وكافح تيل للبقاء واقفاً، وكاد ينهار على أرضية "اللينوليوم" الصلبة رغم وجود المقابض المخصصة للكراسي المتحركة على طول الجدران. لم يكن هناك ما يحميه من ومضات الألم خلف عينيه التي تضرب مع كل خطوة؛ فقد تراجع مفعول المسكنات بشكل حاد. شعر برأسه كأنه قدر يغلي يحاول غطاؤه الانثناء لأن الألم لا يجد مخرجاً.

ولكن مهما كان الألم شديداً، فإنه لا يُقارن بالتعذيب النفسي الذي عاناه تيل منذ اختفاء ماكس ولا يزال يمزقه حتى الآن.

ماكس!

مجرد التفكير في ابنه ساعده على كبت صرخاته وتجنب تنبيه طاقم المستشفى. عض تيل قبضته السليمة واكتفى بأنين خافت. انتظر حتى تلاشت أسوأ ومضات الألم لتصبح مجرد ظلال تومض أمام شبكية عينه، ثم بدأ يجر قدماً خلف الأخرى متجهاً نحو الممر الجانبي الصغير حيث غرفته، متجاوزاً باباً مغلقاً آخر نحو الممر الرئيسي الذي يتقاطع معه.

وفي نهاية ذلك الممر، رأى شيئاً جعل قلبه يخفق بشدة.

عربة رفوف.

من ذلك النوع الذي تراه في المستشفيات لتقديم الطعام، لكن هذه كانت نحيفة، بارتفاع الخصر، ومملوءة بالكتب.

كاد تيل يصرخ: "سيدا!"

زميلته المريضة لا تزال في العيادة، ويبدو أنها توصل كتب المكتبة للمرضى مباشرة. كان يتصبب عرقاً غزيراً حين وصل أخيراً للعربة عند زاوية تقاطع الممرات. كان تيل يقف على بعد متر ونصف فقط من باب مفتوح جزئياً، يحمل الرقم ٢١٧، وتحته لوحة صغيرة تقول: «السعة القصوى: مريض واحد».

بما أنه لم يرَ سيدا، افترض أنها دخلت الغرفة المنفردة. تساءل إن كان مراقباً، فبحث عن كاميرات في السقف لكنه لم يرَ أياً منها. ومع ذلك، لمح شخصين في نهاية الممر البعيدة، يقفان بجانب المصاعد المؤمنة حيوياً. في البداية لم يستطع تيل تمييز من يتحدث هناك، ولكن عندما نجح أخيراً في تركيز عينيه الدامعتين قليلاً، لم يرغب في شيء سوى الهرب.

هناك وقف الرجل الذي عذبه وقتله في خياله مئات المرات.

وفي النهاية استطاع منع نفسه من تدمير فرصته الوحيدة فوراً؛ فقد احتاج لإرادة خارقة ليتجنب الصراخ وإطلاق كل اليأس المكبوت داخله. ظل صامتاً وساكناً كتمثال، ولذا كان كاسوف هو من تحرك أولاً؛ التفت نحو تيل، وتبعه ترامنيتز بعد قليل، وكأن الاثنين شكّا في وجود مراقب سري لهما.

الفصل التاسع والثلاثون

ترامنيتز

سأل ترامنيتز باستغراب:

– "ما الخطب؟"

فقد توقف كاسوف عن الكلام فجأة في منتصف الجملة واستدار.

أجاب الطبيب بنبرة غامضة:

– "لا أدري."

تبع ترامنيتز نظراته نحو الممر، لكنه لم يستطع تمييز شيء؛ فالممر كان خالياً باستثناء عربة المكتبة.

– "خُيل إليَّ أنني رأيت أحداً."

تمتم ترامنيتز بابتسامة ذئبية وهو يتحسس ما بين ساقيه:

– "سيدا؟"

هز كاسوف رأسه معترضاً:

– "لا، تلك العاهرة لم تغادر غرفتك. شعرتُ فقط أن شخصاً ما دخل."

سأل ترامنيتز بحدة:

– "إلى غرفتي؟" فقد وعده ذلك الأحمق بأنه سيستمتع بتلك "الساقطة" دون إزعاج. "ظننتُ أن الجميع في الاجتماع."

– "هم كذلك بالفعل."

لقد دعا كاسوف لاجتماع عام ثانٍ حول موضوع "ارتفاع منسوب المياه والفيضانات" بعد أن كاد أحد أنابيب الصرف في الجناح الجنوبي ينفجر خلال الليل. وباستثناء ممرض واحد كان في "غرفة المناوبة"، كان جميع الموظفين في ذلك الوقت مجتمعين في الردهة. ومعظم المرضى كانوا بالفعل في مبانٍ أخرى، ولهذا كان الطابق تحت تصرف ترامنيتز تماماً. باستثناء ذلك الرجل مهشم الرأس، لكن حسب كلام كاسوف، لم يكن في حالة تسمح له بمغادرة فراشه.

– "ألم ترتب الأمور لكي لا يزعجنا أحد، وتتأكد من أن الممرض لن يغادر غرفة المناوبة إلا في حالة الطوارئ؟"

فأجابه كاسوف:

– "بلى، بالطبع. هل كنتُ لأتجول معك بهذه الحرية لولا ذلك؟ ولكن لزيادة الأمان، افعل ما تشاء معها في الحمام؛ فلا يمكن لأحد أن يقتحم عليك المكان هناك."

ابتسم الطبيب مجدداً، وهي ابتسامة تليق برجل جعله ترامنيتز أثرى بألفين وخمسمائة يورو. كانت بيا قد نقلت "الدخل الإضافي" للطبيب المرتشي إلى منزله شخصياً، رغم أنها افترضت أنها تدفع لكاسوف مقابل تحسين ظروف السجن وطعام أفضل وفترات أطول في الهواء الطلق. قد تكون بيا امرأة متسامحة جداً، لكنها بالتأكيد لن تزود ترامنيتز ببائعات الهوى.

سأل ترامنيتز مستأنفاً حديثهما:

– "هل هناك شيء آخر تود إخباري به؟"

– "أنك ستتمتع بخدماتي مجاناً لمدة شهر."

عقد ترامنيتز حاجبيه:

– "لم أفهم."

– "سأزودك بكل ما تحتاجه؛ كوكايين، عاهرات، أفلام إباحية."

– "ولن أضطر لدفع شيء؟"

– "لا."

سأل ترامنيتز:

– "إذن ما المقابل؟ أين الخدعة؟"

– "ابحث في مخبئك."

كان كاسوف قد أراه أفضل مكان لإخفاء المذكرات عن الأعين المتطفلة.

– "لقد وضعتُ شيئاً هناك."

سأل ترامنيتز بريبة:

– "ما هو؟"

– "سترى بنفسك. استخدمه."

– "في ماذا؟"

خفض كاسوف صوته إلى الهمس، مما جعل الأمر برمته مريباً جداً بالنسبة لترامنيتز. لو صادفهما أحد، فكيف سيبرر هذا الهمس كحوار طبيعي بين طبيب ومريضه؟

– "لتحلَّ لي مشكلة."

آها.. بدأنا نقترب من الحقيقة.

– "وهل لهذه المشكلة اسم؟"

– "باتريك وينتر."

– "الرجل الذي يسكن بعد غرفتين؟"

قال كاسوف:

– "سمعتُ من مصادري الخاصة أنه سمح بتهشيم رأسه فقط لكي يقترب منك."

– "وسمعتُ أنا أيضاً من مصادري الخاصة أنك أعطيتَ زميله في الزنزانة وثائق مزورة تصف كيف قتل وينتر ابنه."

ابتسم كاسوف:

– "ولماذا قد أفعل شيئاً كهذا؟"

– "لتجعل ذلك الرجل يجن جنونه ويتخلص لك من قاتل الأطفال. ولكن يبدو أن ذلك لم ينجح، ولهذا تلجأ إليَّ الآن. أأنا محق؟"

– "لا تعليق."

– "هذا في حد ذاته إجابة. إذن عرفتُ ما تخطط له يا دكتور. ولكن ماذا يريد باتريك وينتر هذا مني؟"

تجمدت ابتسامة كاسوف:

– "لو كنتُ مكانك لما ضيعتُ الكثير من الوقت في هذا السؤال. فقط حل المشكلة بالطريقة التي تراها مناسبة."

تريد مني أن أضعه في حضَّانة وأغرسه بمقصات الحديقة؟

ابتسم ترامنيتز وتحسس عضوه الذي انتصب مجدداً من فوق سرواله:

– "حسنًا، سأفكر في الأمر. لكن أولاً عليَّ الاهتمام بتلك العاهرة الآسيوية. آمل أن تكون سيدا قوية الاحتمال."

حذره كاسوف:

– "إياك وإصابات ظاهرة!"

لكن ترامنيتز كان قد تركه واقفاً هناك، متظاهراً بأنه لم يعد يفهم همسات الطبيب.

الفصل الأربعون

تيل

حدقت سيدا فيه بعينين جاحظتين وفم مفتوح؛ صرخ تعبير وجهها: «ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟»

كان تيل يود أن يسألها السؤال نفسه، لولا انشغاله بتلك الإبر الملتهبة التي تحاول طعن حدقتيه من الداخل منذ دخوله الغرفة.

هست قائلة:

– "اخرج الآن!"

ارتكب تيل خطأين؛ أومأ برأسه ثم حاول الاستدارة نحو الباب الذي تسلل منه للتو. شعر بدوار مفاجئ وفقد توازنه. ترنح للأمام فاستند على سيدا التي اندفعت نحوه، وشعر بأن عظمة ترقوتها نحيلة لدرجة مذهلة فخشي أن يكسرها. لكن سيدا تمكنت من سنده حتى السرير، حيث جلس.

صرخت من بين أسنانها:

– "يجب أن تخرج من هنا فوراً!"

لم يترك الارتجاف في صوتها مجالاً للشك في أن خوفها كان عظيماً بقدر ألمه. مما كانت خائفة؟ ولماذا كانت عيناها المذعورتان تلتفتان باستمرار نحو الباب؟

قال بصوت بالكاد يُسمع:

– "لا أستطيع." ليس بينما ترامنيتز لا يزال في الخارج.

يجب أن أختبئ هنا حتى يرحل مجدداً. لستُ في حالة تسمح لي باستجوابه بعد. أحتاج لاستعادة قوتي وصفاء ذهني أولاً حتى...

ومع هذا الشتات من الأفكار، بدا وكأن الزمن قد تجمد. رمش تيل بعينيه، أو هكذا خُيل إليه، ثم تمكن أخيراً من تحريك شفتيه. سأل السؤال الوحيد الضروري لتأكيد الحدس الذي شعر به للتو:

– "غرفة من هذه؟" تمتم بها، ثم أردف: "ولماذا أنتِ هنا؟"

كانت تضع أحمر شفاه قاني القتامة، وقميصها مفتوح من الأعلى.

– "عليك الذهاب الآن!"

– "من يسكن هنا؟" أصرَّ تيل على الإجابة.

قلبت سيدا عينيها بطريقة لو فعلها تيل لفقد وعيه فوراً.

– "ترامنيتز، والآن..."

يا إلهي.

– "...اخرج!"

لقد لجأ إلى وكر السيكوباتي.

ماذا لو رآني في الممر؟ فكر في الأمر دون أن يدرك أنه نطق الكلمات بصوت غير مفهوم.

أنا في فخ.

لقد حقق الهدف الذي لم يعد يؤمن بإمكانية تحقيقه، ولكن في الوقت الخطأ تماماً. لن يتمكن من كسب ثقة ترامنيتز إذا وجده الأخير متسللاً في غرفته. ولا يمكنه انتزاع الحقيقة منه ضرباً؛ فاللعنة، مجرد المشي جعله على حافة الإغماء.

إذن، ما العمل؟

سمع صوت خطوات تقترب من الخارج؛ صرير نعال مطاطية فوق أرضية "اللينوليوم".

شتمت سيدا بصوت مكتوم:

– "تباً."

أمرت تيل بالنهوض عن السرير، ودفعته نحو النافذة؛ بعيداً عن الفراش. ضغط تيل على أسنانه وتدحرج بدلاً من النهوض. تشبث بالإطار المعدني وانزلق إلى الأرض، وهو يود الصراخ بعلو صوته كحيوان جريح.

انفتح قميص نومه، المربوط بوهن من الخلف، عندما ارتطمت مؤخرته بالأرض. سمع سيدا تهس:

– "ابتعد عن هناك!"

فزحف نحو الخزانة بجانب السرير. تسلل برد الجدار الذي اتكأ عليه بين السرير والخزانة إلى عموده الفقري مثل سم مشل للأعصاب.

بدأ تيل يرتجف مجدداً، وهمست سيدا:

– "لا تحرك عضلة واحدة!"

فعلت ذلك في الوقت المناسب تماماً، إذ اقتحم ترامنيتز الغرفة صائحاً:

– "لماذا لم تتعري بعد؟"

الفصل الواحد والأربعون

بدت جميع الأصوات التي سمعها تيل من تلك اللحظة فصاعدًا وكأنها تصل إليه عبر سماعات عازلة للضجيج وضعت فوق أذنيه. أمر ترامنيتز سيدا بالدخول إلى الحمام، وبدا أن الباب السميك المكسو بالبلاستيك ينطبق تمامًا على الأرضية، فلا يسمح بمرور إلا الأصوات المنخفضة جدًا أو العالية بشكل استثنائي. وحتى هذه الأصوات كانت مكتومة بضغط يشبه ضغط أعماق المحيط في أذني تيل، والذي بات الآن يصاحب صداعه.

لذا، لم يكن بوسعه سوى التخمين عما يدور بين سيدا وترامنيتز في الداخل. لكن ما كانت ترتديه سيدا، مقترنًا بترحيب ترامنيتز الوقح والمبتذل — الذي نطق به بثقة من لا يخشى شيئًا — جعل سبب انتظار المريض في غرفته واضحًا. كان السبب الذي جاءت هي من أجله جليًا.

لكن هل يعقل أن تُسلم سيدا نفسها لهذا الوحش؟

بمحض إرادتها؟

عرف تيل من فيلم وثائقي شاهده سابقًا أن الجنس مقابل المال (وماذا عساه يكون غير ذلك؟) متاح في كل سجون الدولة تقريبًا. لذا، فمن المحتمل جدًا أن يكون متاحًا هنا في مصحة «شتاين» أيضًا.

هل لهذا السبب حذره سكانيا من سيدا؟ لأنه اعتقد أنها، كبائعة هوى، ليست جديرة بالثقة؟

وما دور كاسوف في كل هذا؟

تململت معدة تيل مصدرة صوتًا مسموعًا.

للمفارقة، كان جسده يطالبه بالذهاب إلى المكان الوحيد الذي لا يستطيع دخوله الآن. كان بحاجة ماسة للتقيؤ.

يجب أن أخرج من هنا.

لكن لو وقف الآن (والله وحده يعلم كيف سأفعل ذلك)، فإنه يخشى أن يتقيأ على الأرض.

رفع تيل نظره نحو الطاولة الجانبية ولعن سطحها الأملس الخالي من الحواف. كانت الصينية عالية جدًا، ولا يوجد شيء يمكنه التشبث به لرفع نفسه. باستثناء...

الأدراج!

كانت الخزانة ذات العجلات تحتوي على ثلاثة أدراج. فتح الدرج السفلي: كان فارغًا.

كل ما يحتاجه هو شيء يستند إليه. لسوء الحظ، تبين أن الدرج غير مناسب. فما إن وضع يده اليسرى عليه حتى بدأت الطاولة تتدحرج إلى الجانب. والأسوأ من ذلك، أنه أصبح مهددًا بالسقوط. سقطت مجلة وزجاجتا مياه على الأرض. ولحسن الحظ، كانت الزجاجتان من البلاستيك وبالكاد أصدرتا صوتًا.

ومع ذلك، حبس تيل أنفاسه، مرتعدًا من فكرة أن يخرج ترامنيتز مندفعًا من الحمام ويجده جاثيًا خلف سريره.

لكن كل ما سمعه كان همهمة حيوانية عميقة.

و... هل كان يتخيل الأمر، أم أن سيدا كانت تئن الآن؟

دفع تيل الطاولة الجانبية نحو الجدار لكي لا تتدحرج أبعد، وحاول مرة أخرى. وضع يده داخل الدرج للاستناد، وحاول رفع نفسه. لكن النتيجة كانت عكسية.

سمع أولاً قاع الدرج ينحني، ثم شعر بيده تخترق طبقة الخشب الرقيقة.

تبًا!

عض على شفته، وأخرج يده اليسرى، التي لم تكن مصابة لحسن الحظ، وتفقد أصابعه... ثم رأى ذلك:

الورق.

التغليف.

الكتاب البني ذو الشريط، الذي كشف عنه بخرقه للتو في مخبئه أسفل القاع المزدوج للدرج.

لم يكن الحظ حليف الشيطان وحده.

بل المجانين أيضًا.

عرف تيل فورًا ما هذا الشيء. المبالغة في تقدير قدراته جعلت منه مريضًا مزيفًا. وكسر في جمجمته قربه من الوحش. والحظ سلمه اليوميات.

جرح نفسه بحافة من الخشب المضغوط بينما كان يمزق القاع المزدوج أكثر، وهو أمر شاق بيد واحدة. لم يكترث للدم على أصابعه.

أخرج تيل الكتاب وفك الشريط الأسود ليتمكن من فتح اليوميات. بدت مختلفة عما تخيله. أقل استهلاكًا، بطريقة ما.

وفي الواقع، لم تكن الكتابة تغطي حتى عشرة بالمائة من الصفحات، كما اكتشف تيل عندما فتحها.

إذا كان ترامنيتز قد خصص مفكرة لكل ضحية من ضحاياه، فإن تيل يحمل الآن المجلد الأخير لهذا السيكوباتي المريض السادي. وهو ما أكدته الجملة الأولى المكتوبة بخط جميل ومنمق يتماشى مع مظهر ترامنيتز الجذاب.

الكلمات المكتوبة بالحبر الأسود دمرت آخر ذرة من إيمان تيل بإله رحيم.

اليوم أخبرني الصبي الموجود في الحضّانة باسمه. كان فمه مليئًا بالدم لدرجة أنني بالكاد استطعت فهمه. لكنني شبه متأكد أنه قال إن اسمه ماكس.

الفصل الثاني والأربعون

صرخة. لم تصدر منه. كان ليصرخ بألمه العاطفي بصوت أعلى بكثير مما فعلته سيدا تعبيرًا عن ألمها الجسدي في الحمام.

انطلقت صرخته نحو الداخل؛ كان ينهار وينفجر من الداخل تحت وطأة اليأس.

كانت يدا تيل ترتجفان؛ ودموع الحزن والمعاناة تنهمر على وجهه.

لقد وصل إلى هدفه. بين يديه ليس فقط الدليل على جريمة ترامنيتز، بل ربما وصف مفصل للساعات الأخيرة من حياة ابنه. شيء لن يسلمه أبدًا حتى يعرف بيقين ما حدث لـ ماكس. وأين جسده.

هل عانى طويلاً؟

هل قتله ترامنيتز للمتعة ووفق خطة مدروسة؟

أم بتهور لأنه ضاق ذرعًا بـ «أنينه» في النهاية، مثل ذلك القاتل المتسلسل الذي سمع تيل عنه ذات مرة في بودكاست؟

يا إلهي!

ربما ستهرب ريكاردا من الحقيقة. ستغلق أذنيها، وتغادر الغرفة، رافضة أن تسمع، أو أن تعرف كيف انتهت حياة ماكس.

لكن تيل؟

هز رأسه، مستعدًا لمواجهة الألم الذي سيستحضره هذا الأمر. كان بحاجة إلى أسوأ اليقينيات، حتى لو خنقت آخر وميض للأمل.

لأن تيل كان بحاجة لتوديع ماكس، لم تكن هناك طريقة لإعادة اليوميات الآن.

لكنه لم يستطع قراءتها هنا أيضًا.

منذ متى وسيدا مشغولة معه؟

عندما نظر باتجاه الحمام، شعر أن الزمن، الذي توقف لحظة قراءته لاسم ابنه، قد انطلق الآن مسرعًا كسهم.

كان هدفه الأول إعادة الطاولة إلى مكانها وإغلاق الدرج حتى لا يلاحظ ترامنيتز فورًا أن شيئًا ما مفقود عندما يعود إلى السرير. وبينما كان يفعل ذلك، لمح تيل شيئًا معدنيًا صغيرًا ولامعًا في الدرج، شيء لا مكان له بالتأكيد في غرفة مستشفى لمريض نفسي.

دون تفكير ثانٍ، التقط تيل شفرة الحلاقة التي كانت مخبأة في التجويف السري أسفل اليوميات.

ثم فعل ما كان يظنه مستحيلاً قبل ثوانٍ قليلة، لكن اكتشاف اليوميات بث فيه حياة جديدة. كان غضبه تجاه ترامنيتز طاغيًا لدرجة أن غريزته دفعته لاقتحام الحمام وتهشيم رأس الوحش على حوض الغسيل. مرة تلو الأخرى حتى تسبح أسنانه البيضاء في حساء من العظام والدم في الحوض، وتظهر المادة الرمادية لمخه من خلال شقوق جمجمته.

لكن دفعة القوة المعجزة تلك كانت تكفي بالكاد للزحف إلى الباب على أطرافه الأربعة. تجاهل طاحونة الألم الصدئة التي تدور داخل رأسه وهو ينهض على قدميه، وسقط أخيرًا مع الباب إلى الممر.

فارغ.

لا روح في المكان.

يا للحظ!

أحكمت يده السليمة قبضتها على اليوميات التي دس فيها شفرة الحلاقة. إذا حالفه الحظ، قد ينجح في العودة إلى غرفته قبل أن ينهار من الإعياء ويختنق بقيئه بعد فقدان الوعي.

لم يكد تيل يتجاوز الزاوية.

وبينما كان على وشك المرور بعربة كتب سيدا، سمع بابًا يُفتح خلفه وشخصًا ينادي اسمه المستعار.

الفصل الثالث والأربعون

– "باتريك وينتر؟ ما الذي يحدث هنا؟"

دس تيل اليوميات تحت قميص نومه واستدار، مبقيًا ذراعيه معقودتين حول بطنه للإمساك بالكتاب.

همس وجذعه منحني للأمام من الألم:

– "أنا... لقد ضللت طريقي فقط".

قال الممرض وهو يتحرك نحوه بسرعة:

– "أستطيع رؤية ذلك".

كان أطول من تيل برأس، بشعر داكن وحاجبين أنثويين مقوسين للأعلى، مما أضفى عليه تعبيرًا ودودًا، ولكنه متفاجئ بشكل دائم.

تحدث أيضًا كالشلال المتدفق:

– "لكن لماذا؟ لماذا لست في سريرك حيث يجب أن تكون؟ يا إلهي! أنا وحدي هنا في الجناح وكان ينبغي أن أكون في غرفة التمريض، كما تعلم، تحسبًا لأي طارئ. لو لم أحتج لاستخدام الحمام لما رأيتك يا سيد وينتر".

مد يده إليه.

قال تيل بصدق:

– "أرجوك، أحتاج شيئًا لمكافحة الألم".

– "أستطيع تخيل ذلك. كنت سأطلب الشيء نفسه لو كنت في حالتك. لماذا بحق السماء لم تضغط الزر بجانب السرير؟ أمور كهذه قد تنتهي بشكل سيئ. كان لدي مريض ذات مرة أخطأ الباب ووجد نفسه فجأة واقفًا في الخارج. في منتصف الليل، في يناير؛ كانت الحرارة اثنتي عشرة درجة تحت الصفر. ليس هنا بالطبع، كان ذلك في «يوهانس شتيفت»، لكنه لم يكن يرتدي أكثر مما ترتديه أنت الآن. هل ستتمكن من المشي أم أحضر نقالة؟"

تجنب تيل إبداء أي رد فعل. صر على أسنانه وواصل السير برباطة جأش، خطوة بخطوة، عائدًا إلى غرفته.

وعده الممرض بمجرد أن استلقى تيل في السرير:

– "انتظر، سأعود فورًا بحقنة لجعلك تنام. شيء رائع سيكنس الألم ويأخذك إلى حيث تشاء أحلامك. ربما قصر «البلاي بوي»، رغم أنني أتصور أنه أصبح موحشًا قليلاً منذ وفاة هيو هيفنر".

حتى وهو يغادر الغرفة، لم يتوقف الممرض عن الحديث، وتضاءلت كلماته شيئًا فشيئًا.

على عكس المطرقة الآلية التي تضرب تحت جمجمة تيل.

بآخر ما تبقى من قواه، استغل تيل الفرصة لوضع اليوميات وشفرة الحلاقة بجانب الكتاب المفرغ في درج طاولته الجانبية. ثم غاص رأسه المبلل بالعرق في الوسادة وبدأت أسنانه تصطك.

تصاعدت استجابته للإرهاق الحاد لتتحول إلى نوبة صرع كاملة، لم تتمكن حتى الحقنة التي أعطاه إياها الممرض من السيطرة عليها فورًا. مضى وقت طويل بعد الحقنة قبل أن يهدأ ارتجاف تيل وتستقر دقات

قلبه وأنفاسه. غادرت البرودة جسده بنفس الوتيرة التي سحب بها وحش الألم مخالبه التي غرسها في دماغه.

كان تيل ليبكي فرحًا من زوال الألم لولا أنه سقط في النوم مباشرة.

ورغم أنه شعر بالبؤس عندما استعاد وعيه، إلا أن الأمر لم يكن سيئًا بقدر المرة الأخيرة التي استيقظ فيها.

يا للمسيح! أيًا كان ما أعطاه إياه الممرض، فقد كان مفعوله قويًا. ولا يزال ساريًا.

وبينما كان صداع تيل قد حجب كل إدراكه الحسي من قبل، استطاع الآن الشعور بيده المصابة تنبض مرة أخرى وشم رائحة أنفاسه الكريهة، وكان سعيدًا بذلك.

أخيرًا، لم يعد يشعر وكأنه مصاب بدوار البحر ومضطر لخوض الجولة الثانية عشرة في قتال قفص. ومع ذلك، لم يثق تمامًا في هذه الحالة السلمية، فبعد أن رمش قليلاً، آثر إبقاء عينيه مغلقتين رغم أن الغرفة كانت معتمة بشكل مريح، يضيئها فقط ضوء ليلي خافت يشير إلى الصباح الباكر أو المساء، حسب المدة التي قضاها نائمًا.

في المرة التالية التي تجرأ فيها على فتح عينيه بالكامل، رأى الكتاب على طاولته الجانبية.

أوليس.

عمل عقله ببطء، لكن بوضوح. ساوره هاجس مشؤوم حول ما يعنيه عدم وجود الكتاب في الدرج.

فتح تيل الدرج فورًا وتحسس بحثًا عن اليوميات. قبضت يده على الفراغ.

في الوقت ذاته سمع الصوت. عن يمينه.

– "هل تبحث عن هذا؟"

استدار تيل إلى الجانب، ليرى أنه ترامنيتز بالفعل، جالسًا على كرسي الزوار بجانب السرير، وعلى شفتيه ابتسامة ودودة.

واليوميات المفتوحة في حجره.

الفصل الرابع والأربعون

– "لا بد لي من القول، أجدك غير مهذب إلى حد ما. تدخل غرفتي دون إذن بينما أكون مشغولاً. أعني، ليس لدي شيء ضد الزوار، لكننا لم نتعارف بعد، أليس كذلك؟"

ابتلع تيل ريقه بصعوبة وتساءل كيف يمكن للشر أن يبدو بريئًا هكذا. أمامه جلس شاب بابتسامة لطيفة يبدو ودودًا ومتزنًا. لا شيء، ولا حتى وميض في عينيه، يفضح أفكاره المظلمة.

كيف يمكنك تحذير أطفالك من منحط كهذا؟ سادي منحرف بعينين بريئتين وتجاعيد ضحك مرحة. حتى اللاصق الطبي بعد الجراحة على رقبته بدا وكأنه إكسسوار موضة. باستثناء شحوب المستشفى الطفيف، لم يكن هناك في ترامنيتز ما يوحي بأنه كان مريضًا بشكل خطير قبل أيام قليلة.

سأل ترامنيتز وهو ينحني للأمام باهتمام:

– "من أنت؟"

تسلل هدير محرك طائرة تستعد للهبوط مكتومًا عبر النافذة.

نظر تيل إلى الباب، غير متأكد مما إذا كان يريد أن يأتي ممرض لمساعدته ويطرد ترامنيتز، فقد لا تتاح له فرصة أفضل لمعرفة الحقيقة. ممزقًا من الداخل بين كراهية أشد مما شعر به طوال حياته والخوف من

عدم قدرته على كبحها وإفساد كل شيء، لاذ بالصمت. ابتسم قاتل الأطفال وقال:

— "لا تقلق. لن يقاطعنا أحد. لقد اشترى لنا كاسوف بعض الوقت. إذن، ما اسمك؟"

— "باتريك وينتر".

— "وأنت تكون..."

— "أنا..."

فكر تيل بسرعة واتبع ومضة إلهام:

— "أنا معجب".

ضحك ترامنيتز بحرارة:

— "نعم، بالطبع أنت كذلك".

— "لا، حقًا. قرأت الكثير عنك. وشاهدتك على التلفاز. أردت مقابلتك شخصيًا".

لو كانت هناك حياة بعد الموت وكان بإمكان ماكس متابعة هذه المحادثة كشبح، تمنى تيل أن يستطيع ابنه قراءة أفكاره ومعرفة مدى صعوبة قول هذه الكذبة عليه. وكم كان الجهد هائلاً لمنع نفسه من القفز من السرير بصرخة وتحطيم وجه ترامنيتز الجميل. أو على الأقل المحاولة.

— "أنا معجب بك. بجرائمك. أريد أن أكون مثلك".

قال ترامنيتز بقهقهة وهو يزيح خصلة شقراء عن جبينه:

— "وتعتقد أن تحطيم كرسي فوق رأسك سيساعد في ذلك؟"

– "كانت فرصتي الوحيدة لرؤيتك. نحن لسنا في نفس الجناح. أنا لست في مستواك. لذا كان عليّ أن أنقل إلى العيادة".

– "كان عليك".

– "نعم. يمكننا التحرك بحرية أكبر هنا. والدردشة. كما نفعل الآن. لم يكن ذلك ممكنًا بخلاف ذلك".

كرر ترامنيتز:

– "الدردشة. سرقة يوميات شخص ما هي شكل غريب من الدردشة".

رفع تيل يده معتذرًا:

– "عثرت عليها بالصدفة".

– "اقتحمت خزانتي بالصدفة؟"

– "أقسم لك، لقد تعثرت. ثم قرأت الجملة الأولى. واو، إنها مذهلة. العالم بأسره يريد أن يعرف ماذا فعلت بماكس. أنا آسف، لم أستطع المقاومة".

في الصمت الذي تلا ذلك، وقف ترامنيتز وتوجه إلى النافذة، حيث ضغط زرًا على الجدار. ومع طنين خفيف، ارتفعت الستارة الكهربائية وأصبحت الغرفة أكثر إشراقًا قليلاً.

سأل ترامنيتز وهو يحدق في ضباب الصباح العالق بين أشجار الحديقة:

– "هل تعرف ما الذي أفكر فيه؟"

رغم أن المطر قد توقف بوضوح، إلا أن الغيوم المنخفضة كانت تنذر بمزيد من الطوفان.

التفت إلى تيل وقال:

– "أعتقد أنك تخبرني بكومة من الهراء. وهل تعرف لماذا أعتقد ذلك؟ لأنني أشمها. رائحة خوفك. رائحتها أسوأ من إسهال عجوز في حفاضة منفجرة. لكن لا تقلق".

عاد ترامنيتز إلى كرسي الزوار، وجلس مرة أخرى وابتسم:

– "أنا أحب ذلك".

ألقى على تيل نظرة فاحصة وأضاف:

– "أنا أعشق الخوف ورائحته. إنه أحد الأشياء القليلة جدًا التي تثيرني".

قبض تيل يده اليسرى وشعر بالغثيان وهو يدعي:

– "انظر، أنت مثلي الأعلى. بالطبع سأكون متوترًا في حضرتك".

أمال ترامنيتز رأسه. نظر إليه بشك مع تلميح لابتسامة ماكرة:

– "إذن أنت تقول الحقيقة؟"

– "نعم".

تمكن تيل من الإيماء برأسه دون أن يشعر بالألم داخل رأسه. إما أن الأدوية لا تزال تعمل أو أن خوفه من ترامنيتز كان يمحو أي شعور سلبي آخر من وعيه.

قال ترامنيتز وهو يفرك ذقنه بتفكير:

– "همم. هذا يعني أن كاسوف يكذب".

هز تيل كتفيه:

– "لا أعرف ما قاله لك الطبيب الكبير".

– "يقول إنك تدعي ذلك. أنت فقط تلعب دورًا. لست من تدعي أنك هو".

– "هذا غير صحيح".

– "لماذا يجب أن أصدقك بدلاً من الطبيب؟ لم تجعل نفسك تبدو جديرًا بالثقة تمامًا باقتحام غرفتي".

قال تيل محاولاً اصطناع تعبير مذنب:

– "أعرف".

– "ربما لست معجبًا على الإطلاق، بل مخبر؟"

– "ماذا؟ لا، أنا لا أتجسس عليك".

– "مع من كنت تتحدث في الحافلة إذن؟"

تظاهر تيل بعدم فهم مغزى سؤال ترامنيتز:

– "عفوًا؟"

– "سمعك كاسوف تتحدث في حافلة المكتبة. يبدو أنك قلت: «لن أحتاج لفترة أطول لاكتشاف الحقيقة»".

– "هذا..."

– "كذبة أخرى؟ إذن لم تكن تتحدث مع نفسك في الحافلة؟"

لا. كنت على الهاتف.

– "حسنًا، إذا كنت تقول الحقيقة، فقد بدأت أقلق حقًا بشأن عزيزنا الدكتور كاسوف. من الواضح أن دماغه لا يعمل بشكل أفضل من أدمغة مرضاه. ما رأيك؟"

ابتلع تيل ريقه.

– "إنه يعتقد أنك تلاحقه".

– "ماذا؟"

– "يظن أنك كشفت تجارة الدعارة التي يديرها، مكسبه الجانبي اللطيف. هل تخطط للوشاية به للبروفيسور سينغر؟"

– "ماذا؟ لا. لا أهتم لأمر كاسوف".

– "حسنًا، هو يرى الأمر بشكل مختلف تمامًا. ربما هو مجرد مصاب بالبارانويا؛ ففي النهاية هناك الكثير على المحك بالنسبة له. دخله الجانبي".

– "ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه".

– "حقًا؟"

كلما طال أمد هذا الاستجواب، بدا أن ترامنيتز يستمتع به أكثر.

– "حسنًا، بما أننا أصبحنا معارف جيدين الآن، يمكنني إخبارك".

ضحك وأكمل:

– "نحن نتحدث عن ملايين اليوروهات من أموال الأبحاث التي يغدقها الاتحاد الأوروبي على شركات الأدوية. هذا بافتراض أن مصنعي الأدوية يمكنهم إثبات أن أدويتهم الجديدة باهظة الثمن مفيدة بطريقة ما. وهنا يأتي دور طبيبنا الكبير".

– "كيف؟"

– "يتأكد كاسوف من أن الأدوية تعمل. إنه يوفر لعلماء الأدوية فئران التجارب البشرية التي يحتاجونها".

من أين يجد أشخاصًا يسمحون طواعية بحبسهم في وحدة الطب النفسي؟ كان السؤال على طرف لسان تيل، لكنه في انفعاله لم يرَ سخرية الموقف. ثم أجاب ترامنيتز على السؤال قبل أن يتمكن تيل من طرحه.

– "يقوم كاسوف بتهريب العاهرات إلى المستشفى ويختلق لهن قصصًا مناسبة عن أمراض عقلية. تلك الفاجرة سيدا، على سبيل المثال، تأخذ حبوبًا لاضطراب ثنائي القطب لا تعاني منه في الواقع. الشيء الوحيد الذي تعاني منه هو أنها حساسة للغاية عندما تضاجعها بقوة".

شعر تيل بموجة حرارة تسري في جسده، فأزاح الغطاء عنه.

– "يهرب كاسوف مرضى أصحاء لإجراء تجارب دوائية غير قانونية؟"

فكرة عبقرية، من حيث المبدأ. عندما تنتهي الاختبارات، يصبح المرضى خاليين من الأعراض التي لم يعانوا منها أبدًا. وتحصل صناعة الأدوية على الدليل على أن أموال الأبحاث التي تقدموا بطلب للحصول عليها قد وضعت في مكانها الصحيح.

– "ثم يدعهم يمارسون الدعارة أيضًا لتعظيم أرباحه؟"

أثنى عليه ترامنيتز:

– "مقنع للغاية. قد يصدق المرء حقًا أنك تسمع كل هذا لأول مرة".

– "كيف تعرف عن هذا الأمر؟"

– "محاميتي. مثلت كاسوف في قضية مشابهة مع صاحب عمله السابق".

– "إذن هي لا تهتم كثيرًا بسرية الموكل؟"

– "ليس أثناء الجنس".

بعد كل الأشياء الغريبة التي سمعها، لم يفاجئ هذا التعليق تيل بشكل خاص. لكن شيئًا آخر حيره.

– "لماذا تخبرني بهذا؟"

– "لأعرف أيًا منكما يحاول خداعي".

قال تيل واضعًا يده على صدره:

– "لست أنا، أقسم لك".

– "همم".

تحسس ترامنيتز جيب بنطاله الرياضي وعندما فتح أصابعه، ظهرت شفرة الحلاقة التي وجدها تيل في التجويف السري.

– "أعطاني كاسوف هذه لأجلك".

– "لأفعل ماذا؟"

قلب ترامنيتز عينيه:

– "لمجرد أننا في مستشفى للمجانين، لا يعني أن تبالغ بأسئلتك الغبية. بالتأكيد لم يطلب مني كاسوف حلاقة زغب مؤخرتك".

وضع تيل يده بشكل غريزي على ذقنه، ثم أرجح ساقيه خارج السرير، وهو ما ندم عليه فورًا. أطلقت الحركة ومضة ألم انطلقت بين عينيه.

– "اسمع، أنت ترتكب خطأ. كاسوف يرتكب خطأ. لا أعرف ما الذي يجعله يفكر في ذلك ولماذا يستهدفني. لكن لا داعي لأن تفعل لي أي شيء. انظر إلي. أنا هنا فقط لأكون قريبًا منك".

وقف ولم يشعر بأنه مكشوف هكذا منذ زمن طويل. نصف عارٍ، حافي القدمين، يرتدي قميص نوم فقط.

قال ترامنيتز مفكرًا وهو ينهض من كرسيه أيضًا:

— "همم. لا أدري. كاسوف لم يخدعني من قبل. لكن أنت؟ لقد راقبتني، وتنصت عليّ، وسرقت مني. كيف يمكنني التأكد من أنك رغم كل هذا، أنت من تدعي: باتريك وينتر، أكبر معجبي؟"

نقر ترامنيتز على ذقنه بوضعية المفكر الساخر:

— "آه. لدي فكرة. خذ".

اقترب لدرجة أن تيل استطاع شم رائحة شامبو الليمون اللاذع الخاصة بترامنيتز.

مد يومياته تحت أنف تيل.

بدأ تيل بالتلعثم:

— "ماذا، ماذا تريد مني أن أفعل؟"

— "اقرأ".

— "لماذا؟"

فتح ترامنيتز الكتاب الرفيع.

سبحت الحروف الصغيرة المكتوبة بخط اليد على الصفحات غير المسطرة أمام عيني تيل.

— "حسنًا، المعجبون يحبون معرفة كل شيء عن مثلهم الأعلى، أليس كذلك؟ إذا كنت حقًا تعبدني بقدر ما تدعي، فإليك هذه القطعة الأتوبيوغرافية الشهية، يا باتريك. بالنسبة للأشخاص العقلاء، أي أولئك الذين يكرهونني بحق، يجب أن تكون الأوصاف هنا لا تطاق".

نقر ترامنيتز بإصبعه على القسم الذي يجب أن يبدأ منه تيل ووضع اليوميات في كلتا يديه.

– "قلت بنفسك إنك لم تستطع مقاومة قصة ماكس بيركوف. إذن، اقرأ. أنا حريص على معرفة رأيك في الساعات القليلة الأخيرة التي تمكنت من قضائها مع ذلك الشقي الصغير".

الفصل الخامس والأربعون

يوميات، ص 9

كان الجو باردًا، باردًا، باردًا. باردًا لدرجة تجمد البول داخل قضيبك، كما كان أبي ليقول. وكان الظلام يحل. ليس لدي أي فكرة عما كان يفعله الصبي الصغير هناك في الطريق. ففي النهاية، كنا في «بوكو» وليس في مجمع «ثيرموميتر»، حيث يسعد الآباء إذا فقدوا أحد أطفالهم المزعجين وهم يعدونهم في المساء.

لذا كانت مهمتي سهلة، رغم أن هذا الصبي الصغير لم يكن غبيًا. سألني بكل جدية: «ما هي كلمة السر؟». إذن علمه والداه الحريصان كالمروحيات ما يجب قوله إذا سأله رجل عند بوابة المدرسة إن كان يريد الذهاب لرؤية جرائه. لحسن الحظ، هناك كلمة سر عالمية وتدعى «روهيبنول». إنها تعمل مع كل الأطفال، خاصة إذا أعطيتها لهم بحقنة.

أومأ تيل برأسه دون أن يرفع نظره. كان قلقًا من أن يلاحظ ترامنيتز اشمئزازه بالفعل.

— "كيف يعجبك أسلوبي؟ لقد كتبتها مباشرة لنشرها ككتاب لاحقًا. محاميتي تتولى حقوق النشر حاليًا".

هذا انحراف، فكر تيل.

قال بصوت مسموع:

— "هذا رائع".

ضحك ترامنيتز بزهو:

– "حسنًا، لنعفِ أنفسنا من الثرثرة ونقفز مباشرة إلى الأجزاء الدسمة".

فرك السيكوباتي يديه بجدية تامة الآن. يدان قويتان، جيدتا التكوين، من النوع الذي تود أن يمتلكه مدلكك الخاص.

– "انتقل صفحة إلى القسم الثاني".

أراه تيل الكتاب والمكان المقابل:

– "هنا؟"

– "بالضبط. هناك حيث أتذكر محادثتنا الأولى. عندما استيقظ ماكس لأول مرة".

«أين أنا؟»

«في منزلك الجديد».

«أنا... أنا خائف».

لم يعرف القرد الصغير كم من المتعة منحتني تلك الكلمات. نعم، المخاط حول أنفه، وصدره الصغير يرتجف كلما تحدث – كانت تلك علامات مؤكدة. لكن الأمر مختلف دائمًا عندما يعترف مرضاي بذلك صراحة.

«ما، ما هذا الشيء؟»

«حضّانة. كان والدي يسميها دائمًا تريكسي. حتى يومنا هذا لا أعرف السبب. أنا لم أطلق اسمًا على الحضّانة».

«ما هي الحضّانة؟»

«إنها تمنحك الأمان، الدفء، الراحة. يمكنني الاعتناء بك جيدًا بداخلها».

«ماذا تعني؟»

قاطع ترامنيتز قراءة تيل المترددة مرة أخرى.

– "لست متأكدًا مما إذا كان ماكس يبكي بصوت عالٍ في هذه المرحلة لدرجة أنني بالكاد استطعت فهمه، أم أن ذلك كان لاحقًا، عندما بدأ العلاج. كتابة سجل من الذاكرة أصعب مما ظننت".

اضطر تيل للضغط على فكيه لمنع نفسه من الصراخ. ابتلع ريقه وأمل ألا يلاحظ ترامنيتز ارتعاش جفنيه. وخفقان شريانه السباتي تحت جلده.

بأمر من القاتل، واصل تيل القراءة.

«هل تريد الخروج من هناك؟»

«نعم».

«حسنًا، لا مشكلة. هل سمعت من قبل عن عناية الكنغر؟»

«كنغر؟»

«نعم، من هناك جاء الاسم. إنه مصطلح من طب حديثي الولادة وعلاج الأطفال الخُدَّج[2]. الأطفال الخُدَّج مميزون جدًا. يحتاجون كميات هائلة من الاهتمام. تمامًا مثلك، يا صديقي الصغير».

«هل ستأخذني إلى حديقة الحيوان؟»

[2] الأطفال الخُدَّج أو المولودون قبل أوانهم وهي صفة تُطلَق على الأطفال الذين يولدون قبل اكتمال مدة الحمل الطبيعية، أي قبل الأسبوع السابع والثلاثين من الحمل.

«لا، يا سخيف. عناية الكنغر تعني أن الآباء يخرجون أطفالهم أحيانًا من الحضّانة ويضعونهم على صدورهم العارية. فيشعرون وكأنهم صغار كنغر في الجراب. هذا الدفء مهم جدًا».

بينما كنت أقول هذا، خفضت الإضاءة. أصبح الظلام دامسًا تقريبًا كما في سينما إباحية. مثل وحدة حديثي الولادة في مستشفى فيرخوف. المزاج المناسب تمامًا.

خلعت ملابسي ببطء، وعندما أصبحت عاريًا فتحت الثقوب في جانب الحضّانة لأتمكن من تثبيت يدي ماكس وقدميه بأربطة الكابلات.

سألته: «هل نجربها؟». لم تكن هناك حاجة لإجابة. كل الأطفال يحبون العناق. على الأقل في ذلك العمر. لاحقًا فقط يصبحون عنيدين.

بالتأكيد، بعضهم غير متأكد ومحرج قليلاً، يشعرون بالخوف في بيئتهم الجديدة. ليسوا معتادين على الحصول على كل هذا الحب دفعة واحدة. أعني، لديهم آباء يتركونهم يخرجون وحدهم في الشارع حتى في الظلام. أنا أستخدم أربطة الكابلات حتى لا يؤذوا أنفسهم.

أخرجت ماكس من الحضّانة. كان ثقيلاً حقًا بالنسبة لعمره، لكن كانت تفوح منه رائحة خفيفة من شامبو الأطفال الذي غسلته به سابقًا وهو لا يزال نائمًا.

شامبو الأطفال والخوف يشكلان مزيجًا عطريًا رائعًا، كما أجد. يجب تعبئته وبيعه في كل متاجر الصحة والجمال.

أستطيع تذكر كيف كان ماكس يرتجف. البرودة خارج الحضّانة دائمًا ما تكون صدمة.

لكن في النهاية توقف عن الأنين واسترخى توتره. وبينما كنا نستلقي على الأريكة بجانب الحضّانة، جسده على جسدي، كلانا عاريين، تمامًا كما خلقنا الله، والدم ينبض بين فخذي، بدأت أغني فرحًا:

«ارقص لأبيك / يا ولدي الجميل...»

عند هذه النقطة انتهى النص. قلب تيل بضع صفحات أخرى، لكنها كانت كلها فارغة.

– "حسنًا، ما رأيك؟"

رفع تيل نظره، وبجهد خارق للطبيعة، تمالك نفسه وقال:

– "يا له من نص جميل، شاعري جدًا. تمنيت لو كنت هناك".

إحدى عشرة كلمة بصق بها مرة أخرى على قبر ابنه المجهول.

كان يود لو وضع يده على فمه أو عض شفته حتى النزيف ليتجنب قول هذه الكلمات. مثل «بلا ذراع»، أراد قطع لسانه، الذي شعر فجأة بأنه غريب داخل فمه، شريحة تلو الأخرى حتى لا يتمكن من إصدار أي صوت سوى صرخات ألم غير مفهومة.

لكن ذلك لم يكن ضروريًا. لم يستطع تيل إنكار مشاعره. كان جسده يخبر الحقيقة بالفعل. كان يرتجف، ويرتعد، ويرمش، ومع ذلك لم يستطع منع دمعة واحدة من الانفلات.

قال ترامنيتز وهو يمسك رأسه برفق ليمسح الدمعة:

– "يا للعجب. شككت في ذلك".

خفض تيل اليوميات، وبكى وعرف الحقيقة:

لقد فشلت. لم أنجح في الاختبار.

– "من أنت حقًا؟"

رغم أنه كان يعلم أيضًا أنه جسديًا ليس ندًا لترامنيتز، انتزع الملاءة من المرتبة وسحبها فوق رأس القاتل المصدوم. لفها مرة، ثم أخرى، كحبل حول دعامة في ميناء، وهو يسحب الرأس لأسفل. ثم ضرب ترامنيتز مباشرة في منتصف وجهه المغطى كشبح. وعند سماع صوت طقطقة، اعتقد أنه لا بد وقد كسر أنف الوحش.

هل كان ذلك الدم الذي يصبغ الملاءة بالأحمر؟

واصل ضربه.

لكن...

لماذا لم يكن الرجل يدافع عن نفسه؟

لماذا كان يضحك بهذه الحرارة تحت الملاءة مع كل ضربة تصيبه؟

الفصل السادس والأربعون

توقف تيل بيركوف، وقد أعجزه الألم في يده اليمنى التي كانت تتشبث بالملاءة بقوة؛ فقد انحلّت الضمادة، وشعر وكأن أرمين قد كسر أصابعه من جديد. لكن الأهم من ذلك، هو شعوره بعبثية الاستمرار في ضرب ترامنيتز. كان حدسه يخبره، وما إن أزاح الملاءة حتى تأكدت له الرؤية: لا يمكنك أن تخرج الشر من امرئ بالضرب. كان دم لزج يقطر من أنف ترامنيتز، صابغًا شفتيه وأسنانه وأسفل عنقه باللون الأحمر، لكن هذا لم يزعج المعتوه قط؛ بل على العكس، ظل يضحك وهو يهز رأسه كأبٍ يبدي تسامحه مع زلة ابنه الخرقاء.

— "إذن كان كاسوف محقًا.. أنت تتلاعب بنا."

تراجع تيل عنه، والملاءة الملطخة بالدماء تحت قدميه.

نعم، أنا أفعل. ولكن ليس بالطريقة التي تتخيلها.

قال ترامنيتز وهو يستنشق ما في أنفه، ثم بصق علقة دم لزجة وسأل:

— "اسمك ليس باتريك وينتر. من أنت بحق؟"

بما أن تيل قد كشف عن حقيقته بسلوكه المنفلت، لم يرَ جدوى من الاستمرار في الكذب.

بُحَّ صوته وهو يقول:

— "تيل.. اسمي تيل بيركوف."

ساد الصمت. وللحظة، بدا أن قاتل الأطفال قد فقد القدرة على النطق.

– "انتظر لحظة، أنت..؟"

تلت ذلك لحظة صدمة أخرى، لكن ترامنيتز لم يستطع كبح جماحه أكثر.

– "أتقول إنك والد ماكس؟"

أرجع السيكوباتي رأسه إلى الوراء وانفجر بضحكة مجلجلة انبعثت من أعماقه، ثم جلس على الفراش وصفق بيده على فخذه بقوة.

– "يا للهول! يا له من أمر مذهل!"

كانت ضحكته تنم عن بهجة غامرة ومقززة في آن واحد.

– "أرفع لك القبعة.. حقًا. أتقول إنك تسللت إلى هنا؟ لتقتلني؟"

هز تيل رأسه، ثم اضطر للإمساك بجانبيه من شدة الألم الذي أثاره هذا التحرك.

– "لا.. بل لأعرف الحقيقة."

همهم ترامنيتز قائلًا:

– "نعم، هذا منطقي. منطقي أكثر بكثير من قصة المعجب الغبي تلك. هذا على الأقل يفسر لماذا سمحت بدخولك هنا، بل ولماذا تركتهم يوسعونك ضربًا. وحده الأب يمكنه اللجوء إلى مثل هذه الوسائل اليائسة."

– "أين ماكس؟"

لم يعد لدى تيل رغبة في المواربة، لكن ترامنيتز لم يبالِ؛ فمن الواضح أنه يفضل إلقاء الأسئلة على الإجابة عنها.

– "لكن هذا لا يفسر لماذا يريد كاسوف قتلك. هل تحاول ببساطة إنقاذ جلدك؟ أعني، ما إن أخبرتك كيف يهرب كاسوف مرضى عقلاء تمامًا، حتى تظهر أنت كشخص آخر فعل الشيء نفسه."

نهض ترامنيتز عن الفراش وحشر تيل في زاوية الغرفة، بمجرد اقترابه منه.

– "أنا أقول الحقيقة."

– "هذا ما قلته قبل خمس دقائق، وكان كذبة."

– "أحتاج لرؤيته، لوداعه." سمع تيل نفسه يقول ذلك.

أومأ ترامنيتز برأسه، وأسنانه البيضاء تلمع في وجهه الملطخ بالدماء.

– "أفهمك.. حقًا أفهمك جيدًا. لكن خطتك هذه..."

لمس أنفه ونظر إلى اللون الأحمر على أطراف أصابعه.

– "هل تظن أن ضرب الرجل الذي يملك السر في أول فرصة متاحة كان أمرًا مدروسًا؟"

لا، كان خطأً. قلة صبر.

– "أخشى أنك بحاجة لإظهار قدر أكبر من الإقناع. كل مذكراتي الباقية موجودة هنا." قال ذلك وهو ينقر على رأسه. "لا أظن أن ضربة صغيرة على الرأس ستكون كافية لتجعلني أبوح لك بالمزيد. هاك، جرب بهذا."

وبذهول تام، ناول ترامنيتز تيل شفرة الحلاقة التي كان قد أخرجها من المخبأ السري مع المذكرات.

– "ماذا يفترض بي أن أفعل بها؟"

– "حسنًا، لو كنت مكانك –ولحسن حظي لست كذلك– لكنت قد ضربت وجهي بمرفقك ذلك مجددًا، ثم أمسكت بيدي وغرست شفرة الحلاقة تحت ظفري، هكذا."

ثم حول ترامنيتز كلماته إلى فعل، فأمسك يد تيل بقوة غاشمة.

– "اقتلعه."

– "ماذا؟"

– "الظفر. سمعتني جيدًا. من الجانب إن أمكن؛ فالأمر أبطأ وأكثر إيلامًا بكثير."

شعر تيل وكأن يده صُبت في الخرسانة؛ لم يستطع تحريكها ولا تحريك الشفرة فيها على الإطلاق.

– "أوه، لا تكن هكذا." قال ترامنيتز، ثم فعل ما لا يخطر على بال؛ لقد اقتلع الظفر بنفسه. مرر الشفرة تحت ظفره، ودفع نصلها في لحمه، واستخدمها كرافعة.

– "يا إلهي!"

– "أرأيت؟" قالها ببرود مذهل. "حسنًا، لم يؤلمني هذا قيد أنملة."

وبإصبعه المدمى، أشار ترامنيتز إلى الظفر المقتلع على الأرض.

– "في الواقع، أنا أكذب." قال ذلك بابتسامة. "شعرت بوخزة طفيفة. أعني أنني لست عديم الإحساس تمامًا، لكن شعوري بالألم ضئيل للغاية."

أعد قول ذلك مرة أخرى.

حدق فيه تيل غير مصدق، باحثًا عن تفسير علمي لكيفية عدم أنين هذا المجنون تحت هذا التعذيب الشديد.

لكن ترامنيتز هو من قدم التفسير.

– "أخبر طبيبي النفسي الأول والدتي أن هذا أمر شائع لدى المصابين بـ (اضطراب الشخصية الحدية). ولاحقًا تبين أن هناك خللًا في (المهاد) في دماغي، لكنني أراهن أنني أصيبك بالملل بهذه التفاصيل الطبية."

أمسك بذقن تيل وبقبضته الملطخة بالدماء، وصار يضغط عليها بالقوة نفسها التي كان يمسك بها يده.

– "عليك فقط أن تفهم أمرًا واحدًا مهمًا؛ أنا أحتاج لمحفزات شديدة لأشعر بأي شيء على الإطلاق."

ألهذا السبب تعذب الأطفال الصغار حتى الموت؟

– "على عكسك تمامًا يا تيل بيركوف؛ فكل ما يتطلبه الأمر هو دفعة صغيرة لتنهار تمامًا، أليس كذلك؟"

ومع هذه الكلمات، غرس ترامنيتز قبضته في جبهة تيل، فانفجر رأس الأخير ألمًا.

الفصل السابع والأربعون

عندما استعاد وعيه، تمنى لو أن ترامنيتز قد سدد له ضربة أخرى، بمطرقة ثقيلة مثلًا، ضربة قوية لدرجة تمنعه من الاستيقاظ مجددًا؛ كي لا يضطر للشعور بهذا الألم أبدًا. لم يكن هناك ما يضاهي هذه الدرجة من العذاب، سوى تخيل أن دماغه بالكامل عبارة عن ضرس عملاق حاول طبيب أسنان مجنون خلعه بكلابتين دون تخدير، لكنه انكسر في منتصف العملية، وباتت النهايات العصبية مكشوفة تغسلها أفكار حارقة.

أين ماكس؟

ماذا فعل ذلك الوغد به؟

لم يرحل ترامنيتز؛ بل على العكس، بدا وجوده، مثل ألم تيل، قد ازداد حدة. ويعود ذلك جزئيًا إلى استغلاله غياب تيل عن الوعي لغسل الدماء عن وجهه ويديه في الحمام. وبدا الآن منتعشًا، وكأنه صار أطول وأقوى. وقف بجانب السرير حيث كان تيل مستلقيًا مرة أخرى، وانحنى نحوه مقتربًا حتى كادت أفواههما تتلامس.

هسَّ قائلًا:

— "حسنًا، أيها القصير، لقد أقنعتني. سأتركك تعيش."

— "لماذا؟" نطق تيل بأول فكرة خطرت بباله.

لتواصل تعذيبي أنا أيضًا. هكذا فكر مجيبًا على سؤاله. كان ذلك منطقيًا؛ فهو يتلذذ بحزني.

— "لأنك أثرت فضولي."

ثم قام السيكوباتي بتقبيل جبهة تيل. وللحظة خاطفة، نجح الاشمئزاز في التغلب على صداع تيل.

فضول بشأن ماذا؟ عن مدى المعاناة التي يمكن أن يتحملها شخص واحد؟

نهض ترامنيتز وتراجع خطوة إلى الوراء، وقد شبك ذراعيه خلف ظهره وقطب حاجبيه.

— "علينا الإسراع. لقد بقيت هنا لفترة أطول مما ينبغي. سيقوم الطبيب بجولته اللعينة بعد خمس دقائق، ويجب أن أكون في غرفتي قبل ذلك. لنقل الآن، ولمرة واحدة، إنك لم تكن تكذب، وإنك حقًا تيل بيركوف، والد ماكس؛ ذلك الوغد الصغير الجميل الذي يلعب دور البطولة في مذكراتي الأخيرة."

شعر تيل بتقلصات شديدة في معدته.

— "إن كان الأمر كذلك، فقد قطعت شوطًا طويلًا. لقد تحملت الكثير لتصل إليّ. لكن السؤال الجوهري، السؤال الذي تصنع إجابته الفارق، هو: هل ستستمر حتى النهاية؟"

— "أنا.. أنا..." بدأ تيل يتلعثم مجددًا وكره نفسه لذلك. "لا أفهم."

هل يمكن لأحد أن يفهم؟ هل كان من الممكن يومًا استيعاب العمليات الفكرية لقاتل مريض؟ بالتأكيد ليس ومعك "مثقاب" ينخر داخل رأسك.

– "أجريتُ –لنسمِّها– (محادثة) مع شخص يدعى الدكتور فريدر."

اضطر تيل للتفكير في الأمر.

– "الجراح؟"

– "السكير، نعم. طلب مني معروفًا؛ أرادني أن أعترف بخطاياي. ليس في حقه هو."

– "في حق من إذن؟"

– "طلب مني أن أخبر الآباء بما فعلته بأطفالهم المفقودين. ودعني أصيغ الأمر هكذا.. كانت لديه حجج مقنعة أكثر منك لأمتثل لطلبه."

لمس ترامنيتز الضمادة التي تغطي جرح العملية في عنقه، وسأل تيل:

– "هل ستخبرني بما حدث لـ ماكس؟ عما فعلته به؟ أين يمكنني العثور على جثته؟ أستفعل ذلك طواعية؟"

ابتسم ترامنيتز مجددًا وقال:

– "بل أفضل من ذلك؛ لنلعب لعبة صغيرة. سأفترض أنك حقًا تيل بيركوف، والد ماكس. وفي المقابل أريدك أن تسأل نفسك: إلى أي مدى يمكن أن تذهب؟ ماذا ستفعل إذا أخبرتك هنا والآن أن هناك فرصة، ولو ضئيلة جدًا؟"

همس تيل:

– "فرصة ماذا؟"

– "حسنًا، ماذا تظن؟ فرصة أن ابنك لا يزال حيًا!"

الفصل الثامن والأربعون

فتح تيل فمه، لكنها كانت إيماءة بلا جدوى؛ فقد عجز عن إصدار أي صوت، سوى أنين ربما.

حي؟

لم تعد هذه الكلمة جزءًا من قاموسه، لا فيما يتعلق بابنه ولا حتى بنفسه. صارع هذا الشعور، وحاول منع سهم الأمل المسموم من اختراق وعيه بعمق، لكن النصال كانت قد علقت بالفعل.

إنه يكذب. بالطبع يكذب. يريد تعذيبك فحسب.

– "كيف يكون ذلك ممكنًا؟ لقد مر عام منذ أن.. ماكس..."

– "اختفى؟ هيي، لقد قلت إنه من غير المرجح أن يكون لا يزال حيًا. أنا لا أعرف؛ فأنا محبوس منذ فترة. لكن هناك فرصة ضئيلة للغاية بأنه لا يزال يتنفس."

اتجه ترامنيتز نحو النافذة، ومن هذا الطابق العلوي كانت لديه رؤية للعالم خلف حدود المستشفى، وسأل مجددًا:

– "إذن، إلى أي مدى قد تذهب لتعرف ما إذا كنت أقول الحقيقة؟ ولكن انتظر، قبل أن تقول أي شيء يا تيل بيركوف، والد ماكس، دعني أقدم لك نصيحة: لا تكذب عليّ!"

التفت نحو تيل، وقد اختفت كل ملامح الود من ذلك الوجه الوسيم.

– "إذا أدركت أنك تتلاعب بي مجددًا –وصدقني، أنا بارع في قراءة الآخرين– فحديثنا هنا قد انتهى. سأطلق جرس الإنذار وأري الأطباء ما فعلته بوجهي وظفري دون أدنى سبب."

بلع تيل ريقه بصعوبة.

– "يمكنك تخيل ما سيحدث حينها."

سيفصلون بيننا.

– "وستضيع أي فرصة لك في الاقتراب مني مرة أخرى."

للأبد.

لم يكن تيل متأكدًا إن كان ذلك سيعني الخلاص أم نهايته المحتومة. هل هناك أي جدوى من خوض هذه المحادثة؟ ألم يكن سكانيا محقًا عندما قال إن هذه الخطة الفاشلة منذ البداية لم تكن سوى مهمة انتحارية؟

سأل ترامنيتز:

– "إذن، ماذا ستفعل لتعرف ما حدث حقًا لابنك؟ إلى أي مدى قد تذهب؟"

قال تيل دون تردد:

– "أي شيء. سأضحي بحياتي."

– "أوه، لن يكون ذلك ضروريًا. هناك طريقة أبسط بكثير للوصول إلى الحقيقة."

– "وما الضمان لدي بأنك لا تكذب؟"

– "لا يوجد ضمان على الإطلاق. أعني، أنا لا أعرف إن كنت تقول الحقيقة أيضًا يا تيل بيركوف، والد ماكس."

– "حسنًا، ما هي الطريقة؟ ما الذي عليّ فعله لتخبرني بما حدث لابني؟"

– "لا، لا، لن أخبرك بأي شيء. سأريك."

– "ماذا تقصد؟"

– "سآخذك مباشرة إلى ابنك.. أو إلى ما تبقى منه."

تدفق الدم في عروق تيل بضغط عالٍ.

– "ماذا عليّ أن أفعل؟"

قال ترامنيتز وهو يرسم ابتسامة شيطانية:

– "ماذا تظن؟ أخرجني من هنا!"

الفصل التاسع والأربعون

ريكاردا

– "كيف عرفت؟"

– "ماذا؟"

– "أنني كنت أخطط لبيع تفاصيل زيارتي لك للصحافة؟"

كانت ريكاردا قد انتظرت غيديون في سيارتها خارج مطعم "البرغر" حتى انتهت نوبة عمل موظف الوجبات السريعة الذي يزعم امتلاك بصيرة نافذة. عندما خرج تحت المطر من مدخل الموظفين، كادت لا تتعرف عليه لأنه سحب قبعته الرياضية إلى الأسفل لتغطي رأسه. وفي طريقه إلى الشارع، كان على غيديون المرور بجانب قائمة الطعام المضيئة لخدمة السيارات، حيث يتوقف السائقون الجائعون للاختيار بين البطاطس المقلية وأجنحة الدجاج والبرغر وغيرها من الأطعمة الضارة بالقلب. وهنا اعترضت ريكاردا طريقه.

– "يمكنني أن أخبرك شيئًا عن موهبتي الغامضة، لكن الحقيقة أكثر بساطة بكثير."

ابتسم غيديون، الذي كان لا يزال يرتدي زي العمل تحت معطف المطر، بخجل. لم يبدُ عليه أدنى استغراب لرؤيتها مجددًا هنا تحت المطر المنهمر. أشار إلى مواقف السيارات على يمينه.

- "في اليوم الذي التقينا فيه، كانت هناك شاحنة تحمل لوحة أرقام من مدينة (كولونيا) متوقفة هناك. وعلى زجاجها ملصقات تمنحها حق الدخول إلى استوديوهات (RTL) و (WDR). لذا، لابد أن المركبة كانت تابعة لشركة إنتاج."

أزاحت ريكاردا خصلة شعر مبللة عن جبهتها. كان المطر يقرع مظلتها بقوة.

- "ليس الأمر كما تظن. أنا لست باحثة عن الشهرة."

اعترض غيديون قائلًا:

- "أنتِ لا تعرفين ما أظنه. على عكسي أنا؛ فأنا أستطيع قراءتك ككتاب مفتوح."

قالت ريكاردا:

- "أحقًا؟" وتبعته وهي تحرص على عدم الخطو في إحدى البرك المائية الكثيرة.

- "أي شخص متعاطف لديه تدريب أساسي في علم النفس يمكنه فعل ذلك."

- "وماذا تقرأ عندما تنظر إليّ إذن؟"

ألقى غيديون نظرة سريعة فوق كتفه.

- "أنتِ لستِ محطمة عاطفيًا فحسب، بل ماديًا أيضًا يا سيدة بيركوف. لقد أنفقتِ ثروة في البحث عن ماكس. محققون خصوصيون، إعلانات مبوبة على الإنترنت. والآن أنتِ وحدكِ لأن زوجك قد رحل."

فكرت ريكاردا أن كل ذلك كان في الصحف، لكنها عارضته قائلة:

- "زوجي لم.. يرحل."

سأل غيديون بفضول ودون أي سخرية:

– "لا؟ إذن أين هو الآن؟"

تلعثمت، ثم حاولت التملص:

– "كنت أحتاج لمساحة خاصة بي. لا أعرف أين هو في هذه اللحظة."

نظر إليها غيديون والمطر يبلل سرواله. كانا الشخصين الوحيدين هنا في المدخل المؤدي لسلسلة الوجبات السريعة.

– "وابنتكِ برعاية إحدى صديقاتكِ؟"

أجابت ريكاردا بصدق:

– "إنه رجل. لكن ليس الأمر كما تظن أيضًا. ليس لدي شريك جديد، إنه مجرد صديق مقرب."

قال غيديون دون التعليق على كلامها:

– "إذن أنتِ تفتقدين لشخصين في حياتكِ؛ زوجكِ وابنكِ. لكنكِ تريدين استعادة واحد منهما فقط، أليس كذلك؟"

– "إلى ماذا ترمي؟"

– "يجب عليكِ العثور على ولدكِ بأي ثمن، وإلا فلن تدفع شركة التأمين."

استغرق الأمر وقتًا حتى تستوعب ريكاردا مدى فظاعة هذا التلميح. وبحلول ذلك الوقت، كان غيديون قد سبقها ببضع خطوات، فاضطرت للإسراع للحاق به.

– "ما الذي يجعلك تظن ذلك؟"

– "لقد أبرمتِ بوليصة تأمين على الحياة. وهي لن تدفع قيمتها إلا إذا عُثر على الجثة."

ضحكت ريكاردا. كان من المفترض أن تكون ضحكة ساخرة تؤكد عبثية هذا الاقتراح، لكنها بدت هستيرية.

– "لا، أنت مخطئ. لا يوجد تأمين. أنا أحتاج للمال لأواصل البحث. لأدفع لك، مثلًا."

لوح بيده مستخفًا بالامر.

– "لن آخذ منكِ أي مال. أنا لا أستطيع مساعدتكِ."

وقف غيديون تحت سقف محطة حافلات مهجورة في شارع (كلاي ألي) وخلع قبعته. ومرة أخرى دهشت ريكاردا لمظهر الرجل الذي يبدو يافعًا بشكل غير متناسب مع شخص يدعي أنه رأى من العالم أكثر مما رآه معظم الناس.

سألت وهي تغلق مظلتها:

– "هل تقصد أنك لا تستطيع مساعدتي أم أنك لا تريد ذلك؟"

تحت السقف، صار صوت المطر يشبه وابلًا من الحصى. أجاب غيديون، الذي كان يتفحص جدول المواعيد، دون أن يلتفت.

– "كل الأشياء التي أشعر بها لا تبدو متسقة تمامًا. أنتِ، المال، زوجكِ. الآن، قد يكون ما تقولينه صحيحًا يا سيدة بيركوف، لكنني لا أستطيع التحقق؛ لأن هناك شيئًا ليس على ما يرام."

– "ما هو؟"

نظر إلى ساعته، ثم أجاب:

– "الأمر لا يتعلق بكِ أو بزوجكِ أو بابنكِ فحسب. هناك شخص آخر معني بالأمر."

فجأة، وجدت ريكاردا صعوبة في التنفس. وكأن المطر قد سحب كل الأكسجين من الهواء، وصار عليها أن تستنشق بعمق مرتين لتملأ رئتيها.

سألت:

– "هل تقصد المختطف؟"

هز كتفيه قائلًا:

– "ربما. عندما أحضرتِ لي صورة ماكس في المرة السابقة، رأيتُ شخصًا مريضًا بالقرب منه."

– "هل تقصد ذلك الوحش المريض الذي يحتجزه تحت سيطرته؟"

– "لا أستطيع الجزم. لكنني شعرتُ أنه قريبًا جدًا سيقودكِ هذا الشخص إلى ماكس."

التفت غيديون جانبًا ونظر إلى الشارع ليرى ما إذا كانت الحافلة القادمة تقترب، وبالفعل لمع شعاعان من الضوء في البعيد عبر الرذاذ. أمسكت ريكاردا بكتفه.

– "هل لا يزال ماكس حيًا؟"

هز رأسه قائلًا:

– "لا أعرف. كان الأمر خاطفًا جدًا."

أشارت بشكل عابر نحو سيارتها، وبالتالي نحو حقيبتها التي تركتها فيها.

– "لقد أحضرتُ الصورة معي اليوم مجددًا. وأشياء أخرى لعب بها ماكس. قطع (ليغو) و..."

تمكن غيديون من إعادة قبعته إلى رأسه وهو يهز رأسه معترضًا في الوقت نفسه.

– "ليس الليلة. لستُ في مزاج يسمح بذلك. أرجوكِ، لقد كانت نوبة عمل مرهقة حقًا."

اقتربت الحافلة الآن وصار صوتها مسموعًا؛ عملاق ديزل يزمجر بتهديد، يستعد لاختطاف محاورها.

أسرعت ريكاردا بالسؤال:

– "وفي المرة السابقة؟ هل رأيتَ أي شيء آخر؟"

– "شممتُ الرائحة أكثر مما رأيت."

– "ماذا؟"

– "دم.. طلقة. لا أستطيع وصف الأمر بطريقة أخرى، لكن عندما رأيتُ الصورة شعرتُ وكأن رصاصة تخترق رأس أحدهم."

– "رأس من؟"

شمَّ رائحة طلقة؟

كَبحت الحافلة مكابحها. تناثر الماء فوق الرصيف، لكن ذلك لم يزعج ريكاردا أو غيديون.

– "لا أعرف. فقط..." نظر في عينيها مباشرة. "سوف ترين ابنكِ مجددًا."

خفق قلبها بشدة.

سألت للمرة الثالثة:

– "هل لا يزال حيًا؟"

– "من الصعب القول.. مع كل هؤلاء الموتى. هناك شيء ما لا يزال ينبض هناك بالأسفل.. في القبو. ولكن ليس الجميع. حقًا لا أعرف إن كان ابنكِ من بينهم."

فتحت الحافلة أبوابها الهيدروليكية ومالت قليلًا نحو الرصيف ليسهل الركوب. ابتعد غيديون عن ريكاردا.

سألته وهي تحاول عبثًا الإمساك بيده لتمنعه من الرحيل:

– "وعندما أجد ماكس؟ ماذا سيحدث حينها؟"

مرر يده بتوتر عبر شعره.

– "حينها أراكِ بوضوح شديد في مخيلتي. أنتِ تبكين.. خلف باب مغلق."

– "أين؟ لماذا الباب مغلق؟ أين أنا؟"

أطلقت هذه الأسئلة وهو يصعد الحافلة. التفت غيديون نحوها للمرة الأخيرة ببطء. كادت الكلمات تبتلعها أصوات المطر تمامًا، لكنها نجحت في الوصول إلى مركز الخوف في دماغ ريكاردا.

قال:

– "في سجن."

أُغلقت الأبواب مجددًا وتحركت الحافلة، بينما سلبها ذلك التنبؤ المشؤوم أنفاسها وهي لا تزال واقفة هناك في محطة الحافلات.

الفصل الخمسون

تيل

– "مـ.. ماذا عليّ أن أفعل؟"

قال ترامنيتز:

– "لقد سمعتني. اتفاقنا بسيط للغاية؛ إذا أخرجتني من هنا سآخذك إلى ماكس. وكلما أسرعت في ذلك، زاد احتمال أن يكون ولدك لا يزال دافئًا."

أثارت كلمات القاتل رعشة في جسد تيل. فجأة شعر وكأن الغرفة بأكملها تتأرجح، وفكر في التشبث بالإطار المعدني للسرير ليمنع نفسه من السقوط، رغم علمه التام أن هذه الأحاسيس الحركية ليست سوى خيالات. لكن حديثه مع السيكوباتي كان سرياليًا بالقدر نفسه.

هل أنا حقًا في صدد عقد اتفاق مع قاتل؟

كلما استحضر لقاءه الأول مع ترامنيتز، كانت أفكاره تتخذ شكل كابوس محموم؛ صور مشتتة، تغلفها مشاعر قوية لا يمكن السيطرة عليها. ولكن حتى لو استطاع الاستعداد لهذا اللقاء بذهن صافٍ وتحليلي، لما كان ليتوقع هذا التطور أبدًا.

شهق قائلًا:

– "هذا عبث."

– "لماذا؟"

– "لأن.. لأن..." كانت هناك أسباب كثيرة جعلت تيل لا يعرف من أين يبدأ. وأخيرًا بدأ بشيء لابد أن يكون جليًا حتى لسيكوباتي: "نحن سجينان في جناح عالي التأمين. كيف لي أن أرتب خروجنا؟"

مط ترامنيتز شفته السفلية وهز كتفيه.

– "لقد تسللتَ إلى هنا. ولكن ليس بمفردك؛ فالأشخاص الذين ساعدوك لديهم صلات واضحة. أقنعهم باستخدام هذه الصلات من أجلي وسآخذك إلى ماكس."

سمع تيل كل كلمة بدقة.

تسللت. ليس بمفردك. ساعدوك. صلات.

فهم معانيها جيدًا. كانت الكلمات مثل دبابيس تثبت ملاحظة خيالية على لوحة إعلانات عقله. وعلى هذه اللوحة، كان الجزء الوحيد من عرض ترامنيتز الذي استقر في وعيه في النهاية؛ الجزء الوحيد الذي يهم: "وسآخذك إلى ماكس."

لهذا السبب كان هنا. لهذا السبب كان مستعدًا لتحمل كل شيء؛ الحقن، الضرب، الألم، الخوف. لماذا عليه الآن الاستماع لصوت العقل وهو لم يتبع حتى الآن سوى صوت اليأس؟

قال بصوت خافت وغريب:

– "حسنًا."

شعر وكأن الصوت لا ينتمي لجسده على الإطلاق. بل والأسوأ من ذلك، شعر وكأن عقله قد انفصل عن جسده، وأنه يشاهد نفسه وهو يعقد اتفاقًا مع قاتل أطفال على أمل يائس في أن يتمكن مرة أخرى من ضم طفله إلى صدره.

همس وهو يتجه نحو طاولة السرير:

— "سأحاول." وبيدين ترتجفان، التقط رواية "أوليس" وفتح المجلد الضخم من المنتصف.

شعر بالبرد وبدا أن درجة الحرارة داخل الغرفة قد انخفضت مجددًا عندما التفت نحو ترامنيتز.

— "أين هو؟"

— "أين ماذا؟"

— "هاتفي المحمول؟"

بدا ترامنيتز متفاجئًا.

— "هاتفك المحمول؟"

— "نعم، لابد أنك وجدته في الكتاب." قالها وهو ينقر على المجلد المجوف الذي أعلق بابه مجددًا.

في البداية ظن أنه رأى سحابة داكنة من عدم الفهم تظهر في عيني ترامنيتز، لكنه سمعه بعد ذلك يضحك. اتجه القاتل نحو جهاز التلفاز المعلق على الحائط، ووقف على أطراف أصابعه ليصل إلى أعلاه، وسحب جسمًا لابد أنه كان عالقًا بين الشاشة والحائط.

— "أتقصد هذا الشيء؟"

ماذا غيره؟

بشعور من الارتياح، قبض تيل بأصابعه على الهاتف الذي أعاده إليه ترامنيتز. شعر بأن الغطاء البلاستيكي مختلف، أضخم وأخشن، وكأن الهاتف قد تبدل منذ آخر مرة استخدمه فيها.

— "هل خبأته؟"

– "ظننتُ أنك لن ترغب في أن يجد أحد هذا الشيء بحوزتك."

– "لماذا لم تحتفظ به؟"

– "لأنني، على عكسك، لا أعرف من يمكنني الاتصال به لإخراجنا من هنا."

قال تيل:

– "ولا أنا."

– "همم، هذا ليس جيدًا."

عاد ترامنيتز نحوه، ووضع يده بلطف على كتف تيل وعصرها، وهو يسأله بصوت خافت ولكن بلهجة حازمة:

– "هل تريد حقًا العيش مع يقين بأن ابنك مات فقط لأنك لم تكن مقنعًا بما فيه الكفاية؟"

رفع ترامنيتز يده، لكن تيل شعر وكأن أصابعه قد تركت وسمًا على جلده من فوق قميص النوم.

– "أجرِ مكالمتك! استغل فرصتك!"

أي فرصة؟ كيف لي أن أرتب هذا الأمر بحق الجحيم؟

كانت أصابع تيل تتصبب عرقًا لدرجة خيل إليه أنه يشعر بالهاتف يذوب في يديه.

قال ترامنيتز:

– "أنا راحل. لقد بقيت هنا لفترة طويلة بالفعل."

انتظر تيل حتى غادر السيكوباتي غرفته، ثم وبدافع اليأس، اتخذ قراره وضغط على زر الاتصال السريع رقم واحد.

سكانيا.

الفصل الحادي والخمسون

رن الهاتف.

ست مرات، سبع مرات — كانت هذه محاولته الثالثة.

ترك تيل الهاتف يرن لثلاثين مرة على الأقل قبل أن ينقطع الخط فجأة.

ما هذا بحق الجحيم...

سكانيا، أين أنت؟

ولماذا أغلقت بريدك الصوتي؟

كان تيل ينوي أن يكون صريحًا معه. سيخبر سكانيا أن اليوميات موجودة بالفعل، وأن ترامنيتز يتباهى بمكان مخبأ قد يجدون فيه ماكس حيًا لا جثة هامدة. وأن الفرصة الوحيدة لكشف الحقيقة تكمن في ترتيب هروب القاتل من المستشفى، ولكن تحت مراقبة سرية.

إذا كان سكانيا قد نجح في تهريبه إلى الداخل، فلا بد أنه في وضع يسمح له بتنظيم المراقبة. الهروب سيكون في الواقع تحقيقًا سريًا.

كان تيل يعرف بالطبع كيف سيكون رد فعل صهره عندما يصل إليه أخيرًا. ومدى صعوبة أن يقطع شوطًا طويلاً في شرح خطته.

هل جننت تمامًا الآن؟

حقيقة أن صهره سيضطر للاعتراف رسميًا بتهريب تيل إلى مصحة «شتاين» كمريض مزيف جعلت تنفيذ هذه الخطة «مستحيلاً». الجواب

الوحيد الذي سيتلقاه هو: «سأخرجك من هناك الآن. لقد فقدت عقلك تمامًا».

خاصة أن مهلة الأربع وعشرين ساعة التي منحها إياه سكانيا قد انقضت منذ فترة طويلة، ولم يكن لديه أدنى فكرة عما يرتبه صهره خلف الكواليس.

لكن في هذه اللحظة، لم يحظَ تيل حتى بفرصة ليصرخ أحد في وجهه أو يوبخه. ببساطة، لم يكن سكانيا يجيب على هاتفه.

جرب الرقم الثاني المحفوظ، وهنا أصبحت الأمور أكثر غرابة.

هذا مستحيل.

«الرقم الذي طلبته غير موجود في الخدمة. يرجى مراجعة الاستعلامات».

لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا.

كان يحفظ رقم ريكاردا عن ظهر قلب. طلبه يدويًا، فكانت النتيجة ذاتها.

الرقم غير موجود؟

تملك زوجته رقم الهاتف البسيط هذا، الذي يمثل تنويعًا على تاريخ ميلادها، منذ أكثر من عشرين عامًا. منذ أول عقد هاتف لها، احتفظت به عبر كل تغيير لمزود الخدمة. لم تكن لتتخلى عنه طواعية بأي حال.

ومع ذلك.

«الرقم الذي طلبته غير موجود في الخدمة».

حدق تيل في هاتف النوكيا بذهول، ومرة أخرى شعر أن الجهاز يبدو مختلفًا. والآن أدرك أن...

بالطبع. لا بد أن ترامنيتز قد عبث به!

لم يعرف كيف، لكن هذا كان التفسير المنطقي الوحيد.

يحاول الوغد إرباكك، وزعزعة استقرارك؛ يريد أن يراك تعاني. إنه يغذي آمالاً غير واقعية، وفي محاولتك اليائسة لمعرفة الحقيقة، تقع في الفخ النفسي الذي نصبه.

كان تيل على وشك تجربة الرقم الثالث والأخير المحفوظ، دون أي أمل في الوصول إلى محاميته، عندما سمع صوتًا يمثل تهديدًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

كان قريبًا جدًا.

لم يكن قادمًا من الهاتف.

وكان يعود للبروفيسورة سينغر، التي دخلت غرفته وضبطته متلبسًا بالهاتف. سألت بشك:

– "ما الذي تفعله هناك؟"

الفصل الثاني والخمسون

– "إذن، اسمك الحقيقي هو تيل بيركوف؟"

كانا يجلسان إلى طاولة مستديرة في غرفة التمريض بالعيادة؛ طلبت السيدة سينغر من الموظفين أن يتركوها وحدها مع المريض.

أحضرته المديرة إلى هنا بعد أن كاد الأمر يتطور إلى عراك في غرفته.

رفض تيل بشكل قاطع تسليم الهاتف، حتى عندما هُدد بالتقييد، وأرادت سينغر تجنب تثبيت المريض بالقوة، ربما بسبب الحالة الجسدية المزرية التي كان عليها.

في النهاية توصلا إلى اتفاق يسلم بموجبه تيل الهاتف إذا أخذته سينغر إلى مكان به خط أرضي وسمحت له بإجراء مكالمة.

كان هذا السبب الوحيد الذي جعله يتبعها بهدوء، وإن كان يتألم، إلى غرفة التمريض في الجناح، التي بدت أقل تعقيمًا قليلاً من غرفة العلاج أو غرفة نوم المريض. في نظر سينغر، كان هذا هو المكان المناسب لحديث سري. لكن تيل لم يكن في مزاج لبناء ثقة متبادلة، ورفض أيضًا كوب القهوة وقطعة الكعك التي عرضتها عليه المديرة. كل ما أراده هو الهاتف الموجود في قاعدة الشحن على المكتب أمامه مباشرة. لكن قبل أن تسمح له سينغر باستخدامه، أرادت منه بشكل مفهوم الإجابة على بضعة أسئلة.

– "نعم. أنا لست باتريك وينتر. هذا مجرد غطاء. في الحقيقة لست خبيرًا اكتواريًا أيضًا، بل رجل إطفاء".

إذا كانت المديرة قد فوجئت بهذا، فلم تظهر ذلك. ربما كانت تخفي دهشتها خلف قناع الطبيبة النفسية المحترفة الذي تدربت على ارتدائه في محادثات المرضى الشائكة.

– "لماذا انتحلت اسمًا آخر؟"

تجنب نظراتها، ناظرًا بدلاً من ذلك إلى ديكور الغرفة. بذل الممرضون بعض الجهد لإضفاء البهجة على جو المستشفى الكئيب بحديقة حقيقية من النباتات المنزلية المورقة. على حافة النافذة الكبيرة وقفت نخلات وصبارات كثيرة لدرجة أنك بالكاد تستطيع رؤية القضبان خلفها.

قال تيل أخيرًا:

– "ليس مجرد اسم آخر. لقد انتحلت هوية باتريك وينتر بكل تفاصيلها".

– "لماذا؟"

– "أرجوك، سأخبرك بكل شيء حالما أتحدث مع زوجتي".

رغم أنه حاول الوصول إلى سكانيا أولاً، إلا أنه أدرك الآن أن ذلك كان الترتيب الخاطئ.

يجب أن تكون ريكاردا أول من يعلم بما اكتشفه هنا. وأن هناك فرصة لا تزال قائمة. إذا نجح في نقل وميض الأمل إليها، ستحارب زوجته كالأسد بجانبه لاكتشاف الحقيقة. على أي حال، كأم لماكس، يجب أن تكون أول من يعرف أي معلومة عنه، وأن تسمعها من فم تيل.

كبتت سينغر تنهيدة وقالت:

– "إذا لم تكن باتريك وينتر، فليس لدينا سجل ببيانات الاتصال الخاصة بزوجتك".

– "أحفظ الرقم عن ظهر قلب. أرجوكِ. جربيه!"

سرد تيل الأرقام.

لدهشته، فعلت سينغر ذلك بالفعل. رفعت الهاتف من قاعدته وطلبت الرقم. سمعه تيل يرن أربع مرات، ثم خفق قلبه بشدة عندما تم الاتصال.

كنت أعرف. تلاعب ترامنيتز بالهاتف المحمول.

كانت ريكاردا متاحة عبر الخط الأرضي للمستشفى.

– "مرحبًا؟ معك البروفيسورة سينغر من مصحة شتاين. مرحبًا. زوجك معي هنا. يريد التحدث إليك. نعم، نعم، أعرف. أنا آسفة".

لماذا كانت تعتذر؟

بينما كان لا يزال يفكر في اعتذار المديرة، مررت له الهاتف.

نحنح تيل. كان هناك طعم مر في فمه عندما ابتلع ريقه.

– "مرحبًا؟"

صمت.

أغلق عينيه وحجب سينغر وغرفة التمريض والمستشفى بأكمله عن وعيه. ركز تيل على أهم مكالمة هاتفية في حياته.

– "مرحبًا يا عزيزتي، هذا أنا".

– "أعرف".

بدت ريكاردا قلقة، وهو أمر مفهوم بالنظر إلى أن مديرة مستشفى للأمراض النفسية قد وصلتها بزوجها للتو.

— "لا تقلقي، كل شيء بخير، أنا بخير".

صمت مرة أخرى. بدا أن ريكاردا فقدت صوتها، وكان ذلك مفهومًا أيضًا.

— "أنا... لا أعرف من أين أبدأ. أعلم أن ما سأخبرك به الآن يبدو جنونيًا. أنا نفسي بالكاد أصدقه. بصراحة، أنا فقط أريد أن أصدقه".

— "أنا لا أفهم..."

قاطع صوت زوجته المبحوح قائلاً:

— "أعرف، ولا أنا. ليس لدي أدنى فكرة عن كيفية قول هذا بلطف، لذا سأقوله كما هو. لقد فعلتها. تواصلت مع ترامنيتز".

— "ترامنيتز؟ القاتل؟"

— "نعم، بالضبط. كما وعدت. وهو يقول..."

أغلق تيل جفنيه بقوة أكبر، لكنه لم يستطع منع دموع متفرقة من شق طريقها والانهمار على خديه.

— "يقول إن ابننا قد يكون لا يزال حيًا".

أنّت ريكاردا:

— "أرجوك..."

— "أعرف ما تفكرين فيه. إنه أمر مستبعد... لكن".

— "لماذا؟"

كلمة واحدة فقط، لكنها كانت كافية لزعزعة تيل. فتح عينيه مرة أخرى ورمش.

لم يكن ما قالته، بل كيف قالته.

لماذا؟

ببرود شديد، وعدوانية. بلهجة لاذعة تقريبًا.

– "عفوًا؟"

سألت بنفس البرود السابق:

– "لماذا تفعل هذا؟"

بدأ يتلعثم:

– "أنا... أريد اليقين يا عزيزتي. تحدثنا عن هذا. أنتِ أردتِ ذلك أيضًا".

حتى أنكِ أردتِ مني أن أجعله يعاني.

أنين آخر، هذه المرة أقل ألمًا. وأكثر انزعاجًا.

غاضب.

– "اسمعني. لقد أخبرت البروفيسورة سينغر بالفعل أنني لن أتحمل هذا بعد الآن. توقف!"

– "أتوقف؟"

– "نعم. اتركني بسلام. اتركنا بسلام. وإياك، إياك أن تتصل بي مرة أخرى يا باتريك".

ثم حدث الأسوأ. أغلقت الخط. كانت هناك نقرة قصيرة، عادلت بالنسبة لتيل صوت باب زنزانة يُوصد بقوة. أغلقت ريكاردا الهاتف في وجهه لسبب غير مفهوم بقدر مناداتها له بـ «باتريك».

لماذا نادتني باسمي المستعار؟

– "هل هناك شيء تريد إخباري به؟"

رفع تيل نظره. للحظة كان قد غاب عن ذهنه أنه ليس وحده، وأن المرأة، التي رآها عبر ستارة الدموع أمام عينيه وكأنها عبر عدسة ضبابية، تطالبه بدليل على ادعاءاته. دليل لم يستطع تزويدها به.

قال بعناد كطفل صغير يجيب على سؤال «لماذا» بـ «لأن»:

– "أنا تيل بيركوف".

صرحت سينغر بجدية:

– "زوجتك تنفي ذلك. تقول إن اسمك باتريك وينتر".

وإياك، إياك أن تتصل بي مرة أخرى يا باتريك.

– "هذا هو اسمي المستعار. انظري، لا أعرف ما الذي يجري هنا. لكنني عاقل تمامًا. لقد أدخلت نفسي هنا تحت ذريعة كاذبة فقط".

– "لماذا قد تفعل ذلك؟"

– "لأنني أردت الاقتراب من قاتل ابني".

– "ما اسم ابنك؟"

– "أي نوع من الأسئلة الغبية هذا؟ ألا تقرئين الصحف؟ ماكس. ألا تقرئين الصحف؟ اختُطف ماكس قبل عام".

– "ماكس بيركوف؟"

– "بالضبط. لماذا تقولين ذلك وكأنني أتحدث عن أطباق طائرة؟ أنتِ تعلمين جيدًا لماذا غيدو ترامنيتز مسجون هنا".

صححت له وكأن ذلك يحدث فرقًا:

– "يُعالج هنا".

المحبوس محبوس، ولا علاج لقتلة الأطفال.

– "لم يقتل طفلين فقط، اعترف بقتلهما. لقد اختطف وعذب وقتل ابني أيضًا". هل فعل؟ "لكنه يلتزم الصمت بشأن ماكس".

– "وأنت تريد اليقين؟"

– "نعم، بالطبع. أي أب لا يريد ذلك؟"

وإياك، إياك أن تتصل بي مرة أخرى يا باتريك.

– "إذن قمت بتهريب نفسك إلى هنا تحت ذرائع كاذبة؟"

– "نعم، الفكرة جاءت عندما سمعت أن ترامنيتز يكتب مذكراته. وتعرفين ماذا؟ إنه يفعل. أستطيع إثبات أن ماكس ضحيته".

– "بمساعدة المذكرات؟"

– "بالضبط. يجب أن تفتشي غرفته. هناك مخبأ سري في الطاولة الجانبية".

أو كان هناك. لقد دمرته.

– "مخبأ سري؟"

ها هي ذي مرة أخرى، نبرة الصوت التي جعلت سؤال سينغر يبدو وكأنها تتحدث إما لطفل صغير أو لشخص يعاني من الأوهام.

يا إلهي، أنا حقًا أبدو كمجنون.

– "حسنًا، أعرف أنك لا تصدقينني. أستطيع تفهم ذلك. أنا نفسي لم أكن لأصدق. لكن صهري سيؤكد كلامي. إنه شرطي. لقد حصل لي على هوية باتريك وينتر وهربني إلى هنا".

أخذت سينغر نفسًا عميقًا كمن يحاول تهدئة نفسه.

– "ما اسمه؟"

– "أوليفر سكانيا".

– "هل تعرف رقمه عن ظهر قلب أيضًا؟"

اضطر تيل لقول لا.

– "لكنه يعمل في القسم 44. اتصلي به في مركز شرطة تيمبلهوف – ستجدين الرقم بسهولة على الإنترنت. اطلبي أوليفر سكانيا".

هزت سينغر رأسها، لكنها قالت:

– "من الأفضل أن تفعل ذلك بنفسك".

مررت له الهاتف للمرة الثانية والأخيرة، بعد أن شغلت مكبر الصوت أولاً.

الفصل الثالث والخمسون

– "مرحبًا. معك تيل بيركوف. أود التحدث إلى أوليفر سكانيا، من فضلك".

– "بخصوص ماذا؟"

– "إنها مكالمة خاصة. المفتش سكانيا صهري".

– "يرجى الانتظار".

استُبدل الصوت النسائي الرصين على الخط بمقطوعة موسيقى كلاسيكية متكررة حتى جاء صوت رجل أكبر سنًا يبدو نافد الصبر ودخل في الموضوع مباشرة دون تقديم نفسه.

– "مرحبًا؟ هل قلت إنك تريد التحدث إلى المفتش سكانيا؟"

– "نعم".

– "إنه لم يعد يعمل هنا".

أوه.

تبًا. هل اكتشفوا أنه ساعدني؟

فقط عندما رد الرجل بسؤال أدرك تيل أنه لا بد وقد عبر عن قلقه بصوت عالٍ.

– "كيف ساعدك سكانيا؟"

قال تيل غاضبًا لأنه فتح فمه الكبير:

– "هذا لا يهم".

كان من المفهوم تمامًا أن يبدو الضابط مرتابًا ويطرح المزيد من الأسئلة مثل: "ما هو اسمك مرة أخرى؟"

— "باتريك... إيه، تيل بيركوف. اسمع، أحتاج بشكل عاجل للتحدث إلى صهري. هل ترك رقم هاتف؟"

— "أوليفر صهرك؟"

— "نعم".

— "وأنت لا تعلم؟"

بدا الضابط أكثر ارتيابًا. في الخلفية كانت هواتف أخرى ترن. أصوات. لوحات مفاتيح. نسيج صوتي صاخب لمكتب مفتوح.

— "ماذا لا أعلم؟"

طلب الضابط:

— "حولني إلى الطبيب".

— "ماذا؟"

— "أثناء محادثتنا تحققت من الرقم الذي تتصل منه ويبدو أنك في مستشفى للأمراض النفسية. هل هناك طبيب بالجوار؟"

نظر تيل إلى سينغر، التي أخذت الهاتف منه، وأطفأت وظيفة مكبر الصوت وعرفت نفسها للشرطي كمديرة لمصحة شتاين.

— "أنا آسفة إذا أزعجناك. كانت هذه المحادثة ضرورية لأسباب علاجية. سأتصل بك لاحقًا وأقدم شرحًا أكثر تفصيلاً".

ضرورية؟

لأسباب علاجية؟

نظر تيل حول غرفة الممرضات. تجولت عيناه عبر المتعلقات الشخصية للموظفين — كوب قهوة منتفخ، بطاقات بريدية على الثلاجة، الأحذية تحت المبرد — واستقرت على النباتات أمام النافذة ذات القضبان. فجأة شعر بخوف شديد.

خوف من أن يُحبس هنا إلى الأبد. وألا يكتشف الحقيقة أبدًا بشأن ماكس.

نظر إلى سينغر مرة أخرى، التي كانت تفرك عنقها وهي لا تزال على الهاتف.

يا إلهي، إنها لا تصدقني. تعتقد أنني باتريك وينتر حقًا.

— "حسنًا، أنا أفهم. لن يتكرر ذلك".

أغلقت سينغر الخط ونهضت واقفة.

قال تيل وهو ينهض أيضًا:

— "انتظري لحظة، يجب أن تسمعيني".

— "بالطبع، وسأفعل. غدًا لدينا جلسة طويلة إذا سمحت حالتك".

ضرب بقبضته على الطاولة وصاح:

— "لا. ليس غدًا. الآن! أنت لا تفهمين. هذه، هذه..."

قالت سينغر مكملة الجملة بدلاً منه، مما جعله يبدو أقل مصداقية:

— "مؤامرة؟"

— "لا أعرف ما يجري هنا. نحتاج للتواصل مع صهري — هو يستطيع شرح كل شيء".

— "لا أعتقد ذلك في الواقع، بعد ما أخبرني به الشرطي للتو".

نظر تيل إلى القضبان مرة أخرى، ثم إلى الطبيبة.

– "ماذا قال؟"

– "هل تريد حقًا أن تعرف؟"

– "بالطبع".

– "أوليفر سكانيا مات".

في لحظة واحدة جف حلقه، وكأنه ابتلع مدفأة.

نعق قائلاً:

– "مات؟"

– "نعم. عُثر عليه ميتًا في شقته بعد أن تغيب عن العمل. يبدو أنه أنهى حياته بيده".

الفصل الرابع والخمسون

لم يخدروه. لم تكن هناك حاجة لحقنة، أو سترة مجانين، أو حتى ممرض لإعادته إلى غرفته. ظل تيل هادئًا. ظاهريًا. لكنه داخليًا أراد تمزيق غرفة الممرضات. اقتلاع الثلاجة من مكانها وقلبها رأسًا على عقب، وقذف لوحة الإعلانات المليئة ببطاقات العطلات الغبية نحو الجدار المقابل. أراد التقاط إحدى النباتات، ويفضل الصبار ذو الأشواك الطويلة، وسحبه مباشرة عبر وجه سينغر الذي يظهر قلقًا زائفًا، ثم الركض صارخًا في الممر، حيث سيكون سايمون أو أحد الممرضين الآخرين بانتظاره بلا شك. ولم يكن ضبط النفس، أو العقل، أو الوعي بمدى عبثية هذا السلوك هو ما منعه، بل الإرهاق المحض والبسيط. شعر بالغثيان وكان رأسه يطن كرأس شخص يموت عطشًا. انهمرت الدموع من عينيه، وبدت كل خطوة في طريق العودة لغرفته، بمساعدة البروفيسورة سينغر، كعبء لا ينتهي.

حتى أفكاره تدفقت مثل وحل سميك وتمحورت بشكل أساسي حول سؤال واحد:

ما الذي يحدث هنا؟

ريكاردا تتبرأ منه. وسكانيا... مات؟

لم يكن أي من ذلك منطقيًا. لقد كان على الهاتف معه بالأمس فقط. فضلاً عن أنه لم يكن من النوع الذي ينتحر.

من ناحية أخرى، هل هناك نوع معين يفعل ذلك؟

أليس لدى الجميع نقطة انكسار؟ ينسون أنفسهم، يؤذون أنفسهم، يدمرون أنفسهم؟

يجعلون أنفسهم يُحتجزون.

الشيء الوحيد الذي لم يكن هناك شك فيه هو وضعه. لقد ناور بنفسه للدخول إلى سجن لا مهرب منه. وحيث كلما أصر بعناد على الحقيقة، بدا أكثر جنونًا في نظر الموظفين.

النتيجة كانت قاطعة. تيل في وضع ميئوس منه.

لم يستطع فهم السبب.

ما هي الخطة وراء هذه المؤامرة؟ من قد تكون له مصلحة في حرق الجسور خلفه لضمان بقائه محبوسًا للأبد؟

في بحثه عن إجابات، ظل سؤال واحد يطفو على السطح وكاد يفقده صوابه. هل كان ترامنيتز يقول الحقيقة؟ هل كان ماكس لا يزال حيًا حقًا في مكان ما هناك، يبكي، يتنفس، يعاني؟

ومن يعرف، غير ترامنيتز؟

أولئك الناس الذين يتبرأون منه ويتجاهلونه، ويتخلون عنه في هذا الجحيم الذي فرضه على نفسه؟

بعد أن ساعدته سينغر في العودة إلى السرير، تناول تيل طواعية مسكنًا للألم وحبة منومة وسقط في ثقب أسود خالٍ من الأحلام، استيقظ منه فزعًا عدة مرات. لدرجة أنه شعر وكأنه لم ينم لساعة متصلة، رغم أن الوقت كان قد تجاوز الظهيرة في اليوم التالي عندما أضاء النور السقفي ودخلت شخصيتان غرفته.

قال تيل بحلق جاف:

— "سيدا؟"

أول شيء رآه كان عربة المكتبة. كانت عيناه ملتصقتين من النوم، وكأنه مصاب بتهيج شديد في الملتحمة. وكان هذا أيضًا السبب في عدم ملاحظته للشخص الثاني، الذي أجاب الآن، بجانب سيدا وهي تغلق باب الغرفة.

— "ليس لدينا الكثير من الوقت".

جلس تيل ووجد شكوكه قد تأكدت. كان سايمون هو من دخل مع سيدا.

سأل بصوت بدا غريبًا حتى بالنسبة له:

— "ماذا تريدان؟"

ربما كان تأثير الحبة المنومة هو السبب في شعوره بأن لسانه قد تورم ليصبح ضعف حجمه. لكن ربما كان بحاجة ماسة لشرب شيء ما.

وكأن سايمون قرأ أفكاره، قال: "أحضرت لك بعض الماء"، ورفع وعاءً سعة خمسة لترات.

زجاجة كانت لتكفي، فكر تيل.

ثم رأى سايمون يلقي نظرة عصبية على ساعته، وأخيرًا أصبح الوضع سرياليًا تمامًا عندما همست سيدا:

— "أحتاج لمساعدتك".

أنا أحلم. أنا لست مستيقظًا.

لكن تيل لم يكن متأكدًا من ذلك لأن حواسه كانت حادة بشكل غير عادي، وهو شيء لم يختبره أبدًا في الأحلام. سمع صرير العجلات

عندما دفعت سيدا عربة مكتبتها لتقترب من سريره. شم عطرها الزهري الخفيف. رأى الشعيرات الدموية الحمراء في بياض عينيها الداكنتين الحزينتين.

— "مساعدة؟"

لو لم يكن تيل قلقًا من أن صداعه، الذي يغلي حاليًا على نار هادئة، قد يفور مرة أخرى، لانفجر ضاحكًا. الموقف لا يمكن أن يكون أكثر عبثية. ها هو ذا، محبوس ومصاب، عاجز عن انتشال نفسه من مأزقه، وهذه المرأة الرقيقة بوجهها الشاحب الذي يكاد يكون هشًا كالخزف تطلب منه المساعدة.

ألح سايمون مرة أخرى:

— "أرجوك. الوقت ينفد. خلال بضع ساعات سيبدؤون عملية النقل ولذا..."

قال تيل وهو ينقل نظره من سيدا إلى سايمون:

— "انتظر، أي نوع من النقل؟"

أشار الممرض إلى النافذة التي بدت وكأنها مغطاة بستارة أو حاجب، رغم أن الطقس الكئيب في الخارج هو ما جعل الرؤية مستحيلة في الواقع.

— "انفجرت عدة أنابيب مياه بسبب الفيضان، مما قيد الإمدادات للعيادة".

لذا أحضر الوعاء.

— "لا نزال نحاول حرفيًا إبقاء رؤوسنا فوق الماء بما لدينا من إمدادات. لكن لا يمكنك الاستحمام وخزانات المراحيض تحتاج لملئها

يدويًا بعد الشطف. لا يمكننا الاستمرار هكذا ولذا يتم نقل المرضى إلى مستشفيات أخرى".

سأل تيل بينما كانت سيدا تأخذ رواية جيمس جويس ـ التي أصبحت بلا فائدة الآن ـ من طاولته الجانبية وتعيدها إلى العربة:

– "إلى أين سأذهب؟"

سأله سايمون:

– "أنت؟ إلى لا مكان. حالتك ليست حرجة لدرجة تمنعنا من الاستمرار في رعايتك في الجناح الثالث. أساسًا أنت تحتاج فقط لسرير ومسكنات. وسيغنيك غسيل سريع حتى تعود الحمامات للعمل".

أغلق تيل عينيه للحظة وسأل:

– "ماذا عن ترامنيتز؟"

لم يرد سماع الإجابة.

– "نعم، سيتم نقله".

لا، لا. لا يمكن أن يحدث هذا. يجب ألا يحدث.

احتج قائلاً:

– "لكن لماذا؟ إنه في حالة ممتازة". على عكسي. "حتى أنني أجريت محادثة طويلة معه".

قالت سيدا، ومع ذكر اسمه المستعار نما يأسه مرة أخرى:

– "لهذا السبب تحديداً أنا هنا يا باتريك".

– "لا تناديني بهذا الاسم".

أزاحت خصلة شعر سوداء فاحمة خلف أذنها وقالت:

– "حسنًا، كما تشاء. لكن يمكننا التحدث بصراحة. لقد استجمعت شجاعتي أخيرًا ووثقت بسايمون. أخبرته أنك كنت في الغرفة عندما كنتُ مع ترامنيتز".

– "وماذا بعد؟"

ابتلعت سيدا ريقها.

– "هل ستشهد بذلك؟"

– "بماذا؟ أنك تعملين هنا كبائعة هوى؟"

خفضت عينيها خجلاً وقالت:

– "نعم، وليس ذلك فحسب... كنت آمل أن تؤكد أنني لا أفعل ذلك طواعية".

بدت سيدا فجأة بائسة تمامًا، وكأن ملابسها ليست وحدها التي كبرت عليها، بل الغرفة بأكملها. تدلت سترتها الرمادية من جسدها مثل عباءة، وبجوار الممرض مفتول العضلات بدت مثل دمية واهنة يتطلب منها حتى الكلام قدرًا هائلاً من القوة.

شعر تيل وكأنه يعرفها منذ فترة أطول بكثير من الأيام القليلة التي قضاها منذ دخوله، والتي تبادلا خلالها بضع كلمات فقط. قال بصوت خافت، وقد تملكه تعاطف عميق:

– "أعرف ما يفعله كاسوف بك".

أومأت سيدا وسحب سايمون نفسًا حادًا مسموعًا. صر على فكيه بقوة لدرجة أن عظام وجنتيه برزت بوضوح.

– "أنتِ عاقلة تمامًا يا سيدا. هربك كاسوف إلى الداخل ليجبرك على المشاركة في اختبار أدوية، يتقاضى مقابله مبالغ طائلة".

نظر إلى سايمون الذي تجمدت تعابيره.

– "أفترض أن هذا يدر بعض المال لهذا المستشفى أيضًا، ولهذا يتركونه يفلت بالكثير هنا. نعم؟ يغضون الطرف عندما يهدد المرضى، أو يحبسهم مع مجرمين عنيفين أو يجبرك على بيع جسدك".

سأل سايمون:

– "هل أخبرك ترامنيتز بكل ذلك؟"

– "نعم. إنه شاهد رئيسي. لا يجب أن تدعوه يرحل. ليس تحت أي ظرف".

– "أيدينا مكبلة. محاميته تصر على النقل بسبب «ظروف غير مقبولة» والقانون في صفها فعليًا. خاصة أن ترامنيتز، لسبب ما، أصيب بجروح في رأسه وأصابعه، ولا أظن أنك تستطيع تفسيرها، أليس كذلك؟"

لم يسمع تيل كلمات سايمون الأخيرة. كان غارقًا تمامًا في أفكاره الخاصة.

يا للسماء.

لم يكن محبوسًا هنا فحسب، بل إن السبب الوحيد لما أصبح إقامة قسرية مهدد بالاختفاء الآن. وإذا عاد ترامنيتز يومًا ما، فسيوضع في الجناح الأمني المشدد، وبالتالي سيظل بعيد المنال عن تيل.

تنهد سايمون.

– "كنا معه للتو. واجهته سيدا مباشرة باتهاماتها ضد كاسوف. لكن، كما كان متوقعًا، لم يؤكد ترامنيتز أيًا منها. اكتفى بالضحك".

تبًا!

أزاح تيل الأغطية وأراد النهوض، حتى لو لم يكن متأكدًا مما سيحققه ذلك. بدا أنه يشعر بتحسن طفيف بالفعل.

لم يكن منهكًا ومحطمًا كالليلة السابقة، وكان الألم محتملاً، لكن لم تكن هناك طريقة لمنع نقل ترامنيتز.

طلب سايمون:

– "أرجوك ابق في السرير. واقتصد في الماء. قد تضطر لاستخدامه لتصريف المرحاض. لكن لا تقلق، سيأتي شخص قريبًا جدًا ويعيدك إلى الجناح. ثم، ربما صباح الغد، سأطلب منك تكرار ما قلته للتو أمام البروفيسورة سينغر. هل سمعتني؟ هل ستفعل ذلك يا سيد وينتر؟"

كان تيل، الذي سمع هذه الكلمات وكأنه في غيبوبة، على وشك الاحتجاج مرة أخرى والصراخ: «أنا لست باتريك وينتر»، عندما وقعت عيناه على عربة المكتبة بجوار سريره.

كانت سيدا قد أعادت كتاب جيمس جويس بين كتابين مصورين كبيرين، انزلق أحدهما للأمام قليلاً، وكأن ذلك حدث سهوًا.

رمش تيل.

الكتاب، الذي كان بحجم ورقة A4 تقريبًا، كان الوحيد الذي تواجهه صفحاته بدلاً من كعبه. وبسبب هذا، استطاع رؤية كتاب آخر محشور بين دفتي هذا المجلد الشبيه بالأطلس. مجلد رفيع.

بني.

مع شريط أسود لإغلاق اليوميات.

ألقى تيل نظرة خاطفة على سيدا، ورأى نظرة العلم والموافقة في عينيها، وعندما أومأت برأسها سأل بصوت خافت:

– "هل يمكنني استعارة شيء ما للفترة التي سأقضيها هنا؟"

الفصل الخامس والخمسون

ترامنيتز

– "ما الذي يحدث؟"

كانت صورة لوجه كاسوف لتكون مثالية لمرافقة مقال بعنوان «داء الكلب في مراحله الأولى». بدت عيناه وكأنهما ستجحظان من محجريهما وكان الزبد يخرج من فمه عندما يتحدث. كان صوته أكثر خشونة من المعتاد.

– "ما هذا الهراء بحق الجحيم؟"

تحرك ترامنيتز من موقعه بجوار النافذة وتنهد بشكل مسرحي.

– "نعم، مسألة إمدادات المياه سيئة، لكن سيتم نقلي قريبًا".

كان يتوقع في الواقع فريدر بدلاً من كاسوف؛ فالأول، بصفته الطبيب المسؤول، كان مكلفًا بنقل مرضاه بمجرد استكمال جميع إجراءات الانتقال وتجهيز الناقلات.

قال كاسوف وهو يغلي غضبًا:

– "توقف عن السخرية!"

لم يكن ترامنيتز ليفاجأ لو رأى دخانًا أحمر يتصاعد من أذني هذا الوجه الطائري.

– "أنت تعرف أنني أتحدث عن باتريك وينتر. كان من المفترض أن تتخلص منه. حتى أنني رتبت لك قضاء وقت معه وحدكما. لكنك استخدمته لتتركه يبرحك ضربًا!"

لمس ترامنيتز أنفه المتورم قليلاً، والذي كان إلى جانب كدمة العين هو ما تبقى من هجوم وينتر الأحمق. ثم نظر إلى أصابعه المضمضة الآن. كان اللاصق على منبت ظفره يسبب حكة، وبطريقة ما أعجبه هذا الشعور.

– "لديه طبع حاد إلى حد ما. ومما لا شك فيه أن لديه برغيًا مفكوكًا في عقله. هذا أمر مؤكد. الآن يدعي أنه تيل بيركوف، والد ماكس".

– "لست مهتمًا. أفضل أن أعرف ما ناقشته مع سايمون".

– "سايمون؟"

– "العملاق الأسود. رأيته يدخل غرفتك مع سيدا قبل قليل. ماذا كان يريد؟"

تظاهر ترامنيتز بالحاجة للتفكير مليًا قبل أن تأتيه الإجابة.

– "أحضر لي سايمون بعض الماء وأرادت سيدا جمع كتبي".

– "قلت لا تستخف بي. ماذا كان يريد الاثنان؟"

– "إفادة".

قطب كاسوف جبينه، مما أحدث تأثيرًا بصريًا قبيحًا جعل أنفه يبدو أطول، ليظهر أكثر شبهًا بالغراب.

– "أي نوع من الإفادات؟"

– "لم تكن لتكون هنا لو لم تستطع تخمين ذلك. لقد فضحتك سيدا. ولديها شاهد".

– "من؟"

– "من تظنه يكون؟ اختبأ في غرفتي بينما كنت أمارس الجنس مع تلك العاهرة".

أمسك الطبيب الكبير بحلقه غريزيًا وحاول إخفاء قلقه باصطناع صوت ثابت.

– "هذا لا يثبت شيئًا".

– "هذا لا يثبت. لكنني أخشى أن وينتر استمع إلى محادثتنا".

كان ترامنيتز مبتهجًا بلمعته الفكرية. بالطبع لن يخبر كاسوف أنه هو يهوذا الذي كشف كل مكائد الطبيب لوينتر. كانت هناك فرصة أفضل بكثير لزعزعة أعصابه.

– "أي محادثة؟"

ابتلع كاسوف الطعم واضطر ترامنيتز لإجبار نفسه على عدم الابتسام. أوه، كم أحب التلاعب بمخاوف الناس، خاصة عندما يكونون حثالة مثل كاسوف. رغم أنه، في الحقيقة، كان يحب مخاوف الناس الطيبين أكثر. غالبًا ما تكون أعمق بكثير.

– "في الممر. عندما عرضت عليّ كوكايين وعاهرات مجانًا إذا تخلصت من وينتر لأجلك".

– "كيف، أين... هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا".

— "ليس لدي أدنى فكرة أين كان يقف. لكن الحقيقة هي أنه سمع. أخبرني بذلك بنفسه. بعد ذلك تسلل إلى غرفتي وضبطني بالجرم المشهود مع سيدا".

صر كاسوف على أسنانه.

— "تبًا".

— "بالنسبة لك، نعم. بالنسبة لي الأمر مضحك نوعًا ما. هيي، ماذا تفعل؟"

كان الطبيب الكبير قد دار حول سرير ترامنيتز وفتح الأدراج بعنف فجأة. واحدًا تلو الآخر.

— "هيي، ما الخطب؟"

سأل كاسوف وهو يقلب محتويات الرف السفلي على السرير:

— "أين هي؟"

لكنه حتى في المخبأ السري لم يبدُ أنه وجد ما يبحث عنه.

— "أين هي ماذا؟"

انتزع كاسوف غطاء اللحاف ونفضه، ثم تحسس الوسائد وأخيرًا شرع في فحص الملاءة.

سأل ترامنيتز:

— "هل فقدت عقلك تمامًا؟"

لكن عندما فتح الطبيب سحاب واقي المرتبة، عرف ما كان يبحث عنه.

لأن ذلك كان بالضبط المكان الذي خبأ فيه شفرة الحلاقة، في متناول اليد عند رأس السرير.

قال كاسوف بانتصار وهو يمسك الشفرة الفضية بين إبهامه وسبابته:

– "هل تظن أنني سأدعك تخرج من هنا مسلحًا؟"

تبًا.

أضاف وهو يدس الشفرة في جيب صدر معطفه الطبي ويستدير:

– "علاوة على ذلك، بخلافك، أنا أعرف كيف أستخدمها".

ماذا يعني بحق الجحيم بذلك؟

لم يختبر ترامنيتز مشاعر سيئة، بل فقط أفكارًا مربكة ولدت حكة خفيفة بالكاد يمكن ملاحظتها. مثل الآن.

قال ترامنيتز:

– "ماذا ستفعل؟"

– "ماذا تظن؟ سأذهب لرؤية وينتر".

تبًا. هذا يتعارض مع خططي.

– "لماذا؟"

أصبحت الحكة أقوى.

أمسك كاسوف ببطاقة مفتاح للباب.

استعدادًا للإخلاء، تم تقييد حرية الحركة في العيادة بشدة والآن لا يمكن فتح الأبواب إلا يدويًا من الخارج. كانت هناك حاجة لمفتاح رقمي من الداخل.

أثناء مغادرته الغرفة، لم يرفع كاسوف عينيه عن ترامنيتز، ليس قبل أن يغلق الباب بإحكام خلفه. وكطلقة وداع قال:

– "لأفعل ما عجزت أنت عن فعله".

الفصل السادس والخمسون

تيل

كان الخط مرآة لصاحبه؛ بسيطاً دون تكلف، وفيه مسحة من الحيوية. كانت الآثار العميقة التي تركها القلم الجاف على الورق المصفر توحي بشخصية ديناميكية واثقة من نفسها. لكن هذا الخط كان مضللاً تماماً كصاحبه.

لو لم يكن تيل يعرف الحقيقة، لظن أن هذه السطور المتسقة خطتها يد شاب مثقف وذكي، طبيب واعد أو مهندس أو محامٍ؛ ركن من أركان المجتمع، لا قاتل متسلسل سادي يجد لذته في تعذيب الأطفال الصغار داخل حضّانات صنعها بيده.

أراهن أنك لم تصل إلى شيء، ولم يسمعك أحد، قرأ تيل هذه الكلمات في مذكرات ترامنيتز. كان قد تجاوز الصفحات الأولى ليبدأ من المدخل الأخير، ذاك الذي لم يقرأه بعد.

في الوقت القصير الذي مضى منذ الأمس، تمكن ترامنيتز بطريقة ما من تدوين المزيد من القذارات وتهريبها إلى غرفته عبر سيدا. ولكي لا تضبطه سينغر متلبساً مرة أخرى، حبس تيل نفسه في الحمام وجلس فوق غطاء المرحاض المغلق، واضعاً المذكرات فوق حجره.

لقد ذهبت مكالماتك الهاتفية سدى، فجهات اتصالك إما تخلت عنك أو لم يعد لها وجود من الأساس. والآن أنت تتحسس طريقك في الظلام متسائلاً بعجز: "لماذا؟ ما الذي حدث؟"

أتعلم يا تيل، يا والد ماكس؟ إنني أشفق عليك حقاً. الإجابة واضحة كالشمس، لكني لا أريد أن أكون الشخص الذي يشرح لك قصة حياتك؛ لأنك بمجرد أن تفهم، سيصبح كل شيء أسوأ بكثير.. بالنسبة لك طبعاً.

الحقيقة التي تبحث عنها لن تمنحك أي راحة، بل ستكون أشبه بتشخيص للإصابة بالسرطان؛ فبدونها كنت ستعيش المدة نفسها، لكنك كنت ستُعفى من ذلك الوعي المضني بالموت وهو يتسلل ببطء في أنحاء جسدك.

لن أكون أنا من يخبرك، لأني لن أستفيد شيئاً من معاناتك. المتعة تكمن في مراقبتك وأنت تتعذب، لكن الآن تفصل بيننا أبواب أمنية كثيرة، وربما كيلومترات عديدة إذا ما نقلوني فعلاً.

أنا لست ثرثاراً، ولا أؤمن بضرورة نقل ما أعرفه لكل من هب ودب. أفضل أن تجد الإجابات التي تبحث عنها بنفسك. ولهذا —وهذه نصيحتي الأولى لك— عليك أن تطرح الأسئلة الصحيحة.

لا تسأل: أين ماكس وماذا حدث له؟

بل اسأل: من له مصلحة في إبقاء ماكس مخفياً؟

عند هذه النقطة، رفع تيل رأسه لأول مرة وحدق في بلاط الحمام، وكأن في تلك الفواصل الرمادية بينها تكمن الإجابة عن سبب كون هذه

السطور تثير اضطرابه أكثر من تلك التي وصف فيها الوحش لقاءه بـماكس.

ربما لأنها كانت.. صادقة؟ لم يجد كلمة أخرى لوصفها، لكن تولد لديه انطباع بأن في كلمات ترامنيتز قدراً من الحقيقة، وإن استعصى إثباتها؛ خاصة في الاعتراف الذي تلا ذلك.

كل شيء في الحياة مسألة دوافع. أنا أقتل لأن المحفزات القوية وحدها هي ما يثبت لي أني لا أزال على قيد الحياة. أحب الدموع، لا في عيون الضحايا فحسب، بل في عيون ذويهم أيضاً. لهذا اعترفت بتلك الجرائم؛ لأني أردت أن أشعر بألم الآباء وهم يحدقون في بحقد داخل قاعة المحكمة. لم يبقَ منهم سوى الأحياء طبعاً، لأني كنت قد قضيت على والدة لورا، ميريام. لكن مشاعر اللوعة واليأس لدى البقية حركت في شيئاً من المتعة بينما كانت التهم تُتلى كاملة. آباء، أمهات، إخوة.. كل واحد منهم أراد قتلي، وكان يلمع في عيونهم ألم عارم يقترب من الجنون حين أدركوا أن حجة الاختلال العقلي ستُقبل، وأني سأُسجن بعيداً عن متناول أيديهم.

حسناً، لقد وجدتَ طريقك إليّ يا تيل، يا والد ماكس. ولكن هل كان بإمكاني توقع لقائنا هنا؟ لماذا كان عليّ أن أدخر لك ألمك ويأسك لمثل هذا اللقاء المستبعد في عيادة "شتاين كلينيك"؟

لماذا لا أعترف؟

ارتجف تيل، وغزت القشعريرة جسده بسبب سؤال الأسئلة؛ ذلك السؤال الذي لم يطرحه تيل على نفسه حقاً رغم وضوحه.

لماذا لم يعترف ترامنيتز؟

كل شيء في الحياة مسألة دوافع.

رفع تيل رأسه مرة أخرى. بعد أن قضى الأيام القليلة الماضية في بكاء مرير، جفت عيناه الآن، ولو إلى حين. حتى الرمش صار مؤلماً، فجفناه يتحركان فوق حدقتيه الذابلتين مثل مبرد خشن.

لماذا لا أعترف؟

نهض تيل، ورش الماء على وجهه، وفرك عينيه وشرب دون أن يشعر بأدنى راحة. لا يزال يشعر بالعطش، ولا تزال عيناه تؤلمانه وكأنهما تأمرانه بالتوقف عن قراءة المذكرات.

لكنه بالطبع واصل القراءة؛ فقد أدرك كيف استطاع ترامنيتز زعزعته من الأعماق بكلمات معدودة. هذا المسخ يعرف كيف يضع أصابعه على جروح ضحاياه. وكشأن الكثير من السيكوباتيين، يقرأ الناس الذين يعذبهم ككتاب مفتوح، وربما يفهم آمال خصومه ورغباتهم ومخاوفهم أكثر مما يفعل أي معالج نفسي.

لقد كنت أعمى، فكر تيل وهو يعاود الجلوس. أعمى تماماً.

طوال الوقت، كان يفترض أن ترامنيتز هو الجاني الوحيد. ماذا قال له سكانيا عندما سأله عن مدى تأكدهم؟

— "كانت تقديراتنا السابقة تسعة وتسعين بالمئة، لكن في الساعة الأخيرة وصلنا إلى اليقين التام."

لم يخطر ببال تيل ولو لثانية واحدة احتمال وجود شريك. ورغم أن لديه فكرة غامضة، عبثية تماماً وغير منطقية، بل ومجنونة، ومع ذلك تبدو منطقية بشكل مخيف حول هوية ذلك الشخص، إلا أنه طرد تلك

الأفكار من رأسه وواصل القراءة، آملاً أن تضحد السطور الأخيرة من المذكرات شكوكه المروعة.

لماذا لا أعترف؟

إذا لم تجد إجابة معقولة لهذا السؤال، فستعود إلى نقطة البداية في تأملاتي.

من هو الحريص جداً على ألا يظهر ماكس مرة أخرى؟

ريكاردا.

تشكلت الفكرة في ذهنه، فوضع تيل يده على فمه وكأنه يحاول دفعها إلى الداخل أو التخفيف من وطأتها.

إنها تتنكر لي. تناديني باسمي المستعار الذي لا يمكن أن تعرفه إلا من سكانيا. أخيها الذي يُفترض أنه انتحر.

ملأت أنفه رائحة مرة وحلوة في آن واحد: عرقه الشخصي المكون من الخوف والألم واليأس. وفوق كل هذا، جاءت هذه الخيانة، رغم أن تيل لم يستطع تخيل أي دافع أو سبب لمثل هذه الفظاعة.

صحيح أن علاقتنا كانت متوترة. كنت أفرط في تدليل ماكس. وهي أرادت طفلاً ثانياً.

حتى الصحف كتبت عن ذلك. ومع معرفتهم بسرعة غضبه، شكل الأمر قصة مثيرة استغلتها الصحافة الصفراء لأقصى حد: "أي علاقة يمكن أن تنجو من هذا؟" هكذا تساءلت إحدى المجلات الأسبوعية، وتبعها عنوان آخر: "هل كانت العلاقة قد انتهت بالفعل قبل اختفاء ماكس؟"

لقد تلذذت الصحفية بتغذية قرائها المتعطشين للفضيحة بالتفاصيل: ريكاردا أرادت طفلاً ثانياً لكي لا يبقى ماكس وحيداً، بينما كان الأب مهووساً بابنه ويتركه يفعل ما يشاء. والاثنان كانا متشابهين جداً.

متشابهين أكثر من اللازم؟

انزلقت المذكرات من يد تيل الذي دفن وجهه فيهما الآن.

هل كرهت ماكس لأنه يذكرها بي؟

كلما حاول تيل التفكير في زوجته بعمق، تلاشت صورتها أكثر.

نعم، أرادت طفلاً ثانياً. نعم، كانت بيننا خلافات. ولكن هل كرهتني لدرجة أنها أخذت ماكس مني لتصيبني بالجنون؟

– "لا!" صرخ بصوت متهدج، وتردد صدى هذه الكلمة بشكل مكتوم في الحمام الصغير بضوئه الساطع الذي بدا وكأنه يزداد قوة في كل ثانية. بدأت الحرارة تسري في جسد تيل، وشعر تدريجياً وكأنه في غرفة ساونا رُفعت حرارتها لغلي أحشائه.

– "هذا جنون!"

والأمر لا يحمل أي منطق؛ فريكاردا ليست مجرمة، وبالتأكيد ليست عقل مدبر يمتلك طاقة إجرامية تمكنها من توقع خطته للتحول لمريض متخفٍ.

أم أن سكانيا هو من دفعني لذلك؟

هز تيل رأسه إجابة على سؤاله. لا، فصهره نصحه بشدة بعدم فعل ذلك حتى اللحظة الأخيرة.

أم كان ذلك "علم نفس عكسي"؟ لافتة "ممنوع الدخول" هي التي أعطته الفكرة في المقام الأول؟

ولكن كيف يمكن لسكانيا أن يكون ميتاً الآن؟ لم يبدُ عليه الاكتئاب، بل العكس تماماً. فمن يمتلك عقلاً انتحارياً لا يكون في وضع يسمح له بتهريب مريض متخفٍ إلى سجن نفسي.. أم بلى؟

بالطبع لا يمكنك أبداً معرفة ما يدور في رأس شخص آخر.. ولكن لا، سكانيا ما كان ليتركني هنا أبداً!

لا شيء من هذا يتفق مع العقل؛ لا معنى له. في أسوأ كوابيسه، كان بإمكان تيل أن يتخيل ريكاردا كجزء من مؤامرة، لكن كمختطفة لابنها؟ ثم تقضي لاحقاً على شقيقها سكانيا وتجعل الأمر يبدو كأنه انتحار؟ لا، هذا مستحيل ولا يصدقه عقل.

كما أنه بلا جدوى، ومخاطرة كبيرة جداً. لا يمكن لمجرم مبتدئ أن ينفذ مثل هذه الجرائم الكبرى.

ماكس، سكانيا.

ضحايا كثر جداً، وفرص كثيرة للخطأ.

خطر لتيل حينها أن كل ما عليه فعله هو إجراء فحص الحمض النووي (DNA) ليثبت أنه ليس باتريك وينتر. عاجلاً أم آجلاً سيصدقون احتجاجاته.. أم تراهم لن يفعلوا؟

فكرة مروعة أخرى علقت في شبكة فرضياته:

ماذا لو كانت المؤامرة لا تتوقف عند أبواب المستشفى؟

ماذا لو كان هناك شركاء آخرون هنا في الداخل أيضاً؟

قاده هذا للتساؤل: ماذا لو كانت المؤامرة قد بدأت في "شتاين كلينيك" أصلاً؟

ماذا لو كان الشخص الذي يحرك الخيوط، والذي يمتلك نفوذاً على إجراءات القبول وتوزيع الغرف وخيارات العلاج، هو في الحقيقة أحد الموظفين؟

كاسوف!

كان هذا بالطبع أول اسم خطر بباله. لقد هدده الطبيب منذ البداية، نفسياً وجسدياً. لقد اعترف بحقده علانية وتأكد أن تيل لم ينجُ من ليلته الأولى إلا بأعجوبة.

جلس تيل مرة أخرى، منهكاً من تكهناته التي كانت تدور في حلقة مفرغة ولا تؤدي لشيء. ارتجفت المذكرات في يديه وهو يلتقطها مجدداً.

شخص حالته قائلاً:

– "لقد بدأت تصاب بالبارانويا."

ثم، وبدافع صرف انتباهه عن أفكاره العبثية، قرأ المقطع الأخير الذي كتبه له ترامنيتز.

عند هذه النقطة أخشى أن أقول إني لم أكن عادلاً معك تماماً يا تيل، يا والد ماكس. تلك هي الأسئلة الصحيحة فعلاً. ولكنك لن تحصل أبداً على الإجابات الصحيحة بمجرد التفكير فيها. أعرف أن هذا لؤم مني.

ولكن، كما تعلم، الطبع يغلب التطبع.

ومع ذلك، سأعوضك عن ذلك. اتفاقنا لا يزال قائماً؛ إذا أخرجتني من هنا سآخذك إلى الحقيقة، وإلى جثة ماكس. ولكن دون أي ضمان بأنها لا تزال دافئة.

لذا أسرع؛ فمن المقرر نقلي في الساعة السابعة والنصف من مساء اليوم. سأنتظرك قبل ذلك بعشر دقائق لكي نناقش التفاصيل في هدوء.

الفصل السابع والخمسون

رفع تيل عينيه عن فواصل بلاط الحمام ونظر غريزياً إلى معصمه، حيث لم تكن هناك ساعة طبعاً، فقد سُلبت منه عند وصوله. لم يكن لديه أدنى فكرة عن الوقت.

وبغض النظر عن حقيقة أنه لم يعد بإمكانه التحرك بحرية، فلا بد أن الوقت قد فات الآن للاستجابة لطلب ترامنيتز المجنون. وقعت عيناه على الحاشية المكتوبة في الأسفل.

ملحوظة: أوه، نعم، هناك شيء آخر. تفصيل صغير لكي تعرف مدى الحميمية التي كانت عليها أحاديثي مع ماكس ومدى ثقته بي في النهاية. كلمة السر هي "مكعب ثلج".

وقبل أن يستوعب مغزى هذه الكلمات، جفل تيل من صوت عند الباب. كان صوتاً خفيفاً، بالكاد يفوق صوت تقليب صفحة، ولولا أنه كان يحبس أنفاسه في تلك اللحظة لربما فاته الأمر.

دار القفل، أو بدقة أكثر، ذلك المقبض الذي يمكنك عبره إغلاق باب الحمام من الداخل مؤقتاً. ومن الخارج، كان من الممكن فتحه في أي وقت باستخدام مفك أو عملة معدنية.

كانت الحركة بطيئة؛ ودون أي صرير، انفتح القفل المشحم جيداً كعقرب الساعة. كان المتسلل يريد تجنب اكتشافه مبكراً. وضع هذا تيل أمام معضلة صعبة: هل ينهض، وبذلك يصدر ضجيجاً أكبر من

المهاجم المفترض (فمن غير المهاجم سيحاول التسلل إليه بهذا الغموض؟)؛ أم يبقى جالساً وينتظر انفتاح الباب ولو قليلاً، مخاطراً بإعطاء خصمه ميزة القوة؟ أياً كان ما يخططون له.

اختار تيل التصرف البديهي —رغم أن هذا لم يخطر بباله فور الصدمة، ربما لأن التفكير الذي أثارته مذكرات ترامنيتز قد أبطأ عمليات تفكيره المنطقية— فتصرف بشكل طبيعي.

سحب السيفون، الذي كان خزانه لا يزال ممتلئاً، مع إبقاء نظره معلقاً على القفل. ثم اقترب من الباب، الذي أدرك الآن من النظر إلى الإطار أنه يفتح للخارج. بالطبع.

هذه الحقيقة جعلت من المستحيل على تيل سد الباب بطريقة ما، لكنها منحته فرصة أخرى؛ وهي الاندفاع للأمام، بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

هدأ صوت الماء. وكما توقع، كان الصمت المفاجئ هو الإشارة للمهاجم لكي يسرع. دار القفل بسرعة أكبر وفي لمح البصر بدأ الباب يتحرك. كان على وشك أن يُفتح بقوة، لكن تيل لم ينتظر. ألقى بنفسه للأمام بكل قوته، واضعاً ثقله بالكامل ضد الباب المدعم بالألمنيوم، وصدم المتسلل بكل ما أوتي من قوة.

سمع تيل صوت تحطم، وكأن قطعة خشب تتشظى، تبعتها صرخة مكتومة، ثم فقد توازنه. ترنح عبر الباب المفتوح، وتعثر فوق كاسوف الجاثي على الأرض. وكما أمل، فقد أصاب الطبيب في رأسه ولا بد أنه كسر أنفه.

صرخ تيل في الطبيب:

– "ماذا تريد مني؟" وركله في بطنه، مما جعله يترنح جانباً.

لهث كاسوف قائلاً:

– "سأقتلك،" رغم أنه في تلك اللحظة لم يبدُ قادراً على فعل شيء كهذا. كان تيل مصاباً، ورأسه ويده مضمدان، وحركته مقيدة بمسكنات الألم القوية في دمه. كما كان حافياً ويرتدي قميص نوم. لكنه كان واقفاً فوق خصمه، مستعداً لتسديد لكمة أخرى حتى لو عنى ذلك كسر أصابعه مرة ثانية.

– "ماذا تريد؟ أفهم أنك تريد كسب المال باستعباد النساء وتزوير فحوصات الأدوية، ولكن ماذا تريد مني؟ ما الذي فعلته لك؟"

ورغم أن تيل لم تكن لديه نية للبصق على الطبيب النفسي، إلا أن زبداً من الغضب كان يملأ فمه.

لهث كاسوف:

– "ماذا أريد؟ تباً لك، أريدك أن تتوقف!"

– "أتوقف عن ماذا؟"

– "لا تتظاهر بالبراءة أيها المخادع. لقد حذرتك. كم مرة تخطط لمواصلة لعبتك هنا؟"

همَّ كاسوف بالنهوض، لكن تيل أعطاه إشارة واضحة بأن عليه البقاء على الأرض.

سأله:

– "أي لعبة تقصد؟"

– "أوه، أنت بارع حقاً. أراهن أني لو وصلتك بجهاز كشف الكذب فلن يتحرك المؤشر."

– "أنا لا أفهم ما تقول!"

– "فقط توقف عن لعبتك اللعينة!"

صرخ تيل بصوت أعلى:

– "أي لعبة؟" لقد ضاق ذرعاً بالألغاز التي تتراكم فوق بعضها، مهددة بسحقه إذا ما انهار برج الأسئلة غير المحلولة فوقه. كان البرج يترنح بالفعل.

– "فهمت، حسناً، بالطبع. بالنسبة لك ليست لعبة، أليس كذلك؟ لذا دعني أطرح سؤالي بشكل مختلف. كم مرة أخرى ستجعل نفسك تدخل إلى هنا؟"

دوى الصمت كالانفجار.

كان الأمر وكأن تيل وكاسوف قد تبادلا الأماكن؛ وكأن الطبيب هو من صدم الباب في وجهه. كان مجرد سؤال، لكن وقعه كان مدمراً.

كم مرة دخلتُ...

– "ماذا؟"

من طرف عينه، رأى تيل يد كاسوف تتحرك نحو جيب صدر معطفه.

سأل بذهول:

– "كنتُ هنا من قبل؟"

قال كاسوف:

– "أكثر من مرة. عدة مرات."

– "لكن.. هذا لا يعقل."

– "لا، لا يعقل. ولهذا السبب عليّ أخيراً أن أسكتك، إذا لم يفعل ذلك أحد غيري."

رأى تيل وميضاً؛ انعكس الضوء على قطعة معدنية، قلم؟ أم ملقط؟ لم يدرك تيل أنها كانت شفرة حلاقة استلها كاسوف بسرعة مذهلة من جيبه إلا عندما كاد النصل الحاد يقطع عينه اليسرى، بعد أن قفز الطبيب نحوه مثل جراد.

في اللحظة الأخيرة، أرجع تيل رأسه للخلف. سمع فقرات رقبته تطقطق، وشعر بشد حاد في جمجمته، وفقد توازنه.

تباً. لا تقع، لا تقع. على الأرض ستكون هدفاً سهلاً.

لكن تيل لم يعد مسيطراً على حركاته. وهكذا كان من محض الصدفة، لا نتيجة لسرعة رد فعله، أنه وبينما كان يسقط، رفع قدمه اليمنى وركلها بين ساقي كاسوف.

سقط الطبيب على الأرض مع تيل، لكنه لم ينهض ثانية. تلوى كاسوف وهو يلهث فوق أرضية اللينوليوم، واللعاب يتجمع عند فمه. واليد التي كانت تمسك بالشفرة صارت تقبض الآن على ما بين فخذيه. كانت الشفرة نفسها ملقاة على بعد سنتيمترات قليلة من إبهام قدم تيل، وراودته فكرة استخدامها لذبح ذلك الرجل الذي اعترف للتو بوضوح بأنه يريد قتله. لكن تيل لم يكن الرجل المناسب لهذه المهمة، ولم يكن لديه الوقت الكافي.

كان الأهم، والأكثر أهمية بكثير، هو الحصول أخيراً على بعض الإجابات. ورغم أن قضية ما قاله كاسوف عن كونه كان هنا عدة مرات

من قبل لم تكن ملحة في تلك اللحظة.. ولا السؤال عن سبب خيانة زوجته له ولنفسها.. ولا عما إذا كان الجميع في الحقيقة منافقين.

إجابة واحدة فقط هي ما تهم — الإجابة على السؤال الذي جاء به إلى هنا في المقام الأول:

أين ماكس؟ ما الذي حدث له؟

والآن صار تيل متأكداً من أن احتمال عثوره على حل اللغز في الخارج أكبر بكثير منه وهو محبوس هنا، حيث تتربص به مخاطر لا يمكن لعقل سليم تفسيرها.

ولكن ربما عقل مريض؟

مثل عقل ترامنيتز؟

عرف تيل أن فكرة البحث عن مخرج من هذا المستشفى بجانب قاتل هي فكرة مجنونة. لكن هذه المهمة برمتها كانت مجنونة منذ البداية، والآن كانت الأولوية هي الخروج من هنا. بعيداً عن كاسوف، وعن أرمين، وعن علاج السرطان الذي لا يحتاجه — نحو الحرية.

نحو الحقيقة؟

الحقيقة التي تبحث عنها لن تمنحك أي راحة.

وماذا في ذلك؟ كان عليه الخروج من هنا، وبأسرع وقت ممكن.

لهذه الأسباب، اكتفى بتوجيه ضربة أخرى لأنف كاسوف المكسور بالفعل، مما أفقده الوعي. ثم، في لحظة إلهام، جرد الطبيب من ملابسه حتى ملابسه الداخلية وارتدى بنطاله وقميصه ومعطفه. ورغم أن الملابس كانت واسعة وطويلة، إلا أن الحذاء الطبي كان مناسباً تماماً.

أمسك بشفرة الحلاقة التي التقطها من فوق الأرضية الملطخة بدم كاسوف، وتوجه نحو الباب.

هز المقبض، وسرت رعدة في جسده عندما أدرك أن المخرج مغلق. لا بد أن لوائح الأمن قد تغيرت!

بحث تيل بيأس عن جهاز إدخال، لكنه لم يجد لوحة مفاتيح إلكترونية على إطار الباب أو الحائط. شكراً لله. لم يكن لِيخمن الكود الصحيح أبداً قبل أن يستعيد كاسوف وعيه، وكان من المحتمل أن ينطلق إنذار بعد ثلاث محاولات خاطئة.

خلفه، أنَّ الطبيب لكنه لم يتحرك. تحسس المعطف، فوجد هاتفاً محمولاً لم يستطع فتحه دون كود (PIN)، لكن ذلك لم يكن ضرورياً بمجرد عثوره أيضاً على بطاقة مفتاح بيضاء سادة في جيب بنطال الطبيب. كانت تبدو مثل مفتاح فندق إلكتروني، بحجم بطاقة عمل، ولكنها أكثر سمكاً بقليل ومصنوعة من البلاستيك الصلب.

ماذا الآن؟

سالت قطرات العرق على جبين تيل من تحت الضمادة.

أين أضع البطاقة؟

لم تكن هناك لوحة مفاتيح، ولا شاشة، ولا فتحة.

أنَّ كاسوف مرة أخرى، بل وسعل سعلة خفيفة، وهذا دفع تيل لتجربة كل ما يستطيع. بدأ بالمقبض، ثم القفل، فسمع طقة خفيفة.

انفتح الباب، ولكن عندها انطلق الإنذار. لم يكن صوته عالياً جداً، لكنه كان مزعجاً؛ طنين مثل المنبه.

أو مثل.. هاتف محمول؟

أخرج تيل مصدر الصوت من جيب المعطف، وبمجرد أن ضغط على شاشة هاتف كاسوف الذكي، توقف الطنين.

مجرد مكالمة واردة! كاد تيل يبتسم.

ثم لاحظ الوقت الحالي على الشاشة، وتلاشت لحظة الارتياح النادرة لِيحل محلها إدراك بأن الوقت قد فات بالفعل.

١٩:٤٣.

كان ترامنيتز بصدد الانتقال. ومع رحيله، تتلاشى آخر قشة تشبث بها تيل في أمله العبثي بأن القاتل لا يوفر له مخرجاً من هنا فحسب، بل واليقين بشأن مصير ابنه أيضاً.

الفصل الثامن والخمسون

كانت الممرات خالية؛ لا بد أن إخلاء العيادة قد اكتمل. وطالما لم يستيقظ كاسوف ويطلق الإنذار، فمن المحتمل أن يسود الصمت أيضاً. في هذه اللحظة، كان صرير نعال تيل المطاطية فوق الأرض هو الصوت الوحيد المسموع. حتى المطر توقف عن النقر فوق النوافذ السقفية. ومع ذلك، استمرت الريح في الهبوب على فترات غير منتظمة، مرسلة عواءً وحشياً عبر فتحات مصاعد البناء.

بدا الطريق إلى غرفة ترامنيتز أقصر بكثير مما كان عليه في المرة الماضية. ولكن هذه المرة لم يكن صداع رأسه شديداً، وشعر باسترخاء أكبر رغم اشتباكه مع الطبيب المسؤول. الشيء الوحيد الذي كان يسحبه للأسفل كثقل من الرصاص هو فكرة أن كل جهوده قد ذهبت سدى.

عندما وصل الممر إلى تقاطع على شكل حرف (T)، ألقى نظرة سريعة جهة اليمين، نحو المصاعد حيث رأى ترامنيتز يتحدث مع كاسوف. ثم أسرع يساراً باتجاه غرفة الممرضات. تذكر أنها كانت أول باب على اليسار. هذه المرة لم تكن هناك عربة كتب في الخارج. وسيدا رحلت منذ زمن، مع سايمون.

شعر تيل بالوحدة والنبذ، وراودته فكرة أنه ربما نُسي وتُرك وحيداً في هذا الجناح، الذي لن يجد مخرجاً منه، حتى مع بطاقة المفتاح في

جيب بنطاله. لن يأتي أحد لاصطحابه، والروح الوحيدة الأخرى هنا هي ذلك الطبيب الذي يحاول قتله لأسباب غير مفهومة.

نفض تيل نفسه ككلب مبلل، ففقدت هذه الفكرة المظلمة شيئاً من وطأتها.

أخذ نفساً عميقاً وفتح باب غرفة ترامنيتز.

وبعد ثوانٍ، شعر برغبة في التقيأ خجلاً واحتقاراً للذات.

الفصل التاسع والخمسون

– "ألا تزال هنا يا غيدو؟"

كان هناك الكثير من الخطأ في هذا السؤال وفي المشاعر المصاحبة له التي تعتمل داخل تيل. فبدايةً، كان استخدام اسمه الأول غير لائق تماماً، رغم أن تيل لم يتخيل نفسه ينادي قاتل ابنه بـ "السيد ترامنيتز". لكنه لم يتخيل أيضاً أن يسره رؤيته.

ومع ذلك، شعر تيل بالارتياح؛ فلا بد من حدوث تأخير ولم يتم اقتياد ترامنيتز بعد.

ابتسم السيكوباتي الذي لم يكن أنفه قد كُسر بالأمس كما خُيل لـتيل، أو على الأقل كان التورم طفيفاً:

– "أنت محظوظ أيها الشيطان."

باستثناء الضمادة على عنقه وشحوب طفيف، بدا ترامنيتز منتعشاً ونشيطاً. حتى العين السوداء لم تكن تزعجه كثيراً. كان قد خلع ملابس المستشفى، ويبدو أنه كان يرتدي الملابس التي دخل بها: قميصاً أسود ضيقاً يبرز عضلاته، وبنطال جينز أزرق من ماركة فاخرة. وفي قدميه كان يرتدي حذاءً جلدياً طويلاً يصل لمنتصف الساق، يبدو قديماً ولكن لم يُستخدم سوى مرات قليلة. وبمجرد ارتدائه لسترته الـ (نيوبرين) المقاومة للمطر ذات الياقة الفروية، بدا ترامنيتز وكأنه يستعد

لجلسة تصوير أزياء لا لرحلة إلى مستشفى صُمم أمنه خصيصاً لقتلة متسلسلين مختلين عقلياً.

– "لقد وصلت رسالتي إذن؟"

التفت ترامنيتز نحو النافذة، التي كانت مظلمة كفتحة غواصة في أعماق المحيط.

– "لا بد من حدوث مشاكل في مضخة المياه، ولكن الآن صار الجسر سالكاً. يمكننا الرحيل في أي لحظة. سيارة الإسعاف الخاصة بي بانتظاري بالفعل."

عندما مد يده بسبابته المضمدة، كان ظن تيل الأول أن ترامنيتز يودعه، لكنه أدرك لاحقاً أنه يريد شيئاً آخر.

– "مذكراتي، من فضلك."

قال تيل:

– "بالطبع." وأعطاه الكتاب بترك وهو الذي أخفاه معه بطبيعة الحال.

قال ترامنيتز ببرود، وبدا غير مهتم بأي تفاصيل أخرى:

– "لقد هربتَ من كاسوف إذن. ليس سيئاً. ولكن ذلك الأحمق ليس خصماً جدياً، أليس كذلك؟ متوقع جداً، ألا تظن؟"

راقب تيل بذهول ترامنيتز وهو يدس مظروفاً بين صفحتين في مقدمة الكتاب ثم يضع المذكرات في خزانة السرير. كانت حركاته هادئة، وكأن لديه كل الوقت في العالم.

حثه تيل:

– "ماذا تفعل؟ كاسوف سيطلق الإنذار في أي لحظة. وهم على وشك القدوم لأخذك."

ابتسم ترامنيتز وسأله:

– "وماذا في ذلك؟"

– "ماذا تعني بـ (ماذا في ذلك)؟ لقد كتبتَ أن عليّ الحضور لكي نناقش التفاصيل."

– "بالضبط. تفاصيل الخطة التي آمل أنك وضعتها يا تيل، يا والد ماكس."

– "أنا؟" شعرت ركبتا تيل بالوهن ورغب بشدة في الجلوس على السرير الذي –صدق أو لا تصدق– كان ترامنيتز قد رتبه بعناية.

– "ألم يكن ذلك هو الاتفاق عندما افترقنا آخر مرة؟ كنت ستجري بضع مكالمات هاتفية، وتستخدم صلاتك وتخرجنا من هنا."

– "أنت تعلم أن ذلك لم ينجح. لقد كتبتَ هذا بنفسك في مذكراتك."

نقر ترامنيتز على جبهته بتعبير مضحك:

– "نعم، بالطبع. كم أنا غبي. حسناً، يبدو أنك قطعت كل هذا الطريق سدى. أعني، ليس لدي أدنى فكرة كيف يمكنني جمعنا معاً في سيارة إسعاف نقفز منها وهي تسير."

في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل رجل. قال:

– "لقد طرأ شيء ما. عليّ أن..." ولكنه قطع كلماته عندما أدرك أن ترامنيتز ليس وحيداً في الغرفة.

سأل الرجل:

– "ما الذي يجري هنا؟"

وإذا لم يكن تيل مخطئاً، فقد رأى شرارة خافتة من التعرف في عينيه، تماماً كما في عيني تيل. كان قد خضع لتخدير عام عندما أجرى الجراح العملية، ولكنه عرف الوجه من الصحف والتلفاز. ومؤخراً رأى ذلك الرجل الذي يفضل قمصان الـ (بولو) الوردية في تقارير عن عملية ترامنيتز الطارئة. والآن تذكر الاسم أيضاً: فولكر فريدر، طبيب عام يمارس عمله في "شتاين كلينيك" عند الحاجة.

سأل فريدر، وهو يضع يده على مقبض الباب، والأخرى تخرج هاتفاً من جيب بنطاله:

– "ماذا تفعل هنا؟ ولماذا ترتدي معطف الدكتور كاسوف؟"

أشار إلى بطاقة الاسم التي لم يكن تيل قد أزالها بعد في خضم تلك الضجة.

أسرع تيل بالقول، دون أن يكون لديه أدنى فكرة كيف سيفعل ذلك:

– "اسمع، يمكنني شرح كل شيء."

هل عليه قول الحقيقة؟

اسمي تيل بيركوف، أنا والد الصبي الذي اختطفه هذا الوحش وقتله على الأرجح، وقد جعلت نفسي أدخل هنا تحت ذرائع كاذبة فقط. وبما أني لم أرغب في التجول بقميص نوم، استعرت المعطف بعد هروبي من الطبيب الذي ضربته لأنه كان يحاول قتلي.

حتى الشخص الذي يمتلك خيالاً واسعاً سيواجه صعوبة في تصديق ذلك؛ خاصة من نزيل في وحدة نفسية. وحتى لو صدقوه، فما النفع من ذلك؟

كان هدفه الخروج من هنا، برفقة ترامنيتز لكي يقوده إلى ماكس. ولكن كيف صاغ السيكوباتي الأمر لتوّه بدقة؟

«... ليس لدي أدنى فكرة كيف يمكنني جمعنا معاً في سيارة إسعاف...»

شعر تيل بأن أنفه يسيل من شدة التوتر، وهو أمر غير مستغرب بالنظر لإصابات الرأس التي تعرض لها. ربما كان ينزف؟ بحث عن منديل، ولكنه لم يجد في ملابس كاسوف.

قال فريدر:

— "أبقِ يديك حيث يمكنني رؤيتهما. سأسألك للمرة الأخيرة: ماذا تفعل هنا؟"

ضحك ترامنيتز وهو يقف بجانب السرير، مراقباً الحوار بين الاثنين بفضول فاضح:

— "هيا، أخبره. وأخبره من أنت حقاً."

فكر تيل: أنا يائس، وقبضت يده على الشيء الذي أخذه من المعطف عندما كان يبحث عن منديل.

قال:

— "أنا رهينته،" وقذف شفرة الحلاقة نحو ترامنيتز ووقف أمامه قبل أن يتمكن فريدر من القيام بأي حركة.

سمع ترامنيتز يقول بابتسامة:

– "حسناً، حسناً، خطة جيدة." ومستغلاً الفرصة، أمسك السيكوباتي بـتيل بوضعية السيطرة التي تستخدمها الشرطة ووضع شفرة الحلاقة بجانب شريانه السباتي.

الفصل الستون

رغم أن ترامنيتز لوى ذراعه للخلف وللأعلى بقسوة تفوق ما يتطلبه الموقف، إلا أن تيل بصفته رهينة متعاونة لم تكن لديه نية للمقاومة.
ومع ذلك، بدا أن السادي يستمتع بإبقائه تحت السيطرة. لم يرغب تيل في التحرك لأنه خشي أن يؤدي ذلك لخلع كتفه. وكانت شفرة الحلاقة تضغط بشدة على جلده لدرجة خيل إليه أن ترامنيتز سيقطع عنقه حقاً.

فهل سيفعل؟

سمعه يقول:

— "حسناً يا فريدر. آمل أنك قد تجرعت بعض الكؤوس القوية، لأن القليل من الشجاعة الزائفة لن يضرك فيما نخطط له."

سأله الطبيب بلهجة حازمة تثير الدهشة، خاصة وأنه يواجه قاتلاً مسلحاً أثبت مراراً أن القتل بالنسبة له —بكل ما تحمله الكلمة من معنى— هو مجرد لعبة أطفال. ورغم أن الجراح لم يكن في خطر مميت هو نفسه، إلا أنه من واقع خبرته المهنية لابد وأنه يعرف مدى خطورة الجروح القطعية — وكيف يمكن أن تصيبه هو أيضاً في لمح البصر إذا قرر ترامنيتز تبديل الضحايا.

قال الطبيب:

— "هناك ممرضان مزودان بمسدسات صعق ورذاذ فلفل بانتظارنا في المصعد. لن تصل بعيداً يا ترامنيتز."

تساءل تيل لماذا لم يدخل الرجلان مع فريدر إلى الغرفة، ولكن بالطبع لم يكن الجراح ليتوقع هذا التطور في الأحداث، وبالتأكيد لم يتوقع أن يكون مريضه مسلحاً.

أبعد ترامنيتز الشفرة قليلاً عن رقبة تيل وأشار إلى هاتف فريدر:

– "اتصل بكلاب الحراسة خاصتك وأخبرهم أن يختفوا."

أشار فريدر نحو تيل، الذي كان يقف الآن على أطراف أصابعه ليخفف الألم في مفاصل كتفه، وسأل:

– "وإذا لم أفعل، ستقتله؟"

– "أجل، سأتركه ينزف حتى الموت. وبينما تتمتع نعال حذائي بتماسك جيد، ستنزلق أنت في الحساء الأحمر بحذائك الأنيق هذا. وقبل أن تنطق بكلمة (من فضلك، كأس مزدوج)، سأكون قد قطعت شريانك الفخذي."

كان ترامنيتز يتحدث بسرعة وحماس أكبر، ومن الواضح أن حزام الأفكار في مخيلته المنحرفة يعمل بأقصى سرعة.

– "نعم، وبعدها سألعب الحبل بأمعائك وأنت تشاهد. ما رأيك في هذا؟"

ابتلع فريدر ريقه. وتلاشت كل ملامح الثقة من وجهه المترهل والمترف. وبدا الآن مثل كلب مهزوم لا يريد سوى الزحف تحت مقعد.

ضغط على زر واحد في هاتفه وقال:

– "أرجوكم، دعوني أستخدم المصعد بمفردي مع ترامنيتز." صمت قليلاً، ثم قلب فريدر عينيه ورفع صوته: "نعم، أعلم أن هذا مخالف للبروتوكول، ولكن..." –تنهد– "ولكن لدينا حالة احتجاز رهائن. لا،

لست أنا. ليس بشكل مباشر على أي حال. مريض زميل. باتريك وينتر، على ما أعتقد."

هز ترامنيتز رأسه، وربما رمق فريدر بنظرة قاسية —لم يستطع تيل رؤيتها— ولكن في كل الأحوال كانت لغة جسده كافية لتشجيع الجراح على تأكيد خطورة الموقف على مسمع من يتحدث إليه.

— "ترامنيتز مسلح. سيقتل المريض ويقتلني أنا أيضاً إذا لم تبتعدوا."

صرخ ترامنيتز:

— "أخبرهم أننا خارجون الآن. لا أريد رؤية أي واحد منهم؛ لا في المصعد ولا عند سيارة النقل في الأسفل. وإلا ستحدث مجزرة سيظلون يتحدثون عنها لعشرين عاماً."

فعل فريدر ما أُمر به، بينما دفع السيكوباتي بتيل نحو المخرج. كان الطبيب قد أنهى مكالمته الهاتفية الآن، ودون انتظار أي أوامر أخرى، فتح الباب ببطاقة المفتاح وخرج إلى الممر.

همس ترامنيتز مهدداً وهو يواصل دفع تيل للأمام:

— "لا تفعل أي شيء أحمق." وفي كل الأحوال لم يكن أمام "الرهينة" خيار سوى مغادرة الغرفة مع ترامنيتز إذا أراد تجنب كسر مفصل مرفقه أو لوح كتفه.

بمجرد وصوله للممر، أداره ترامنيتز ليواجه المصاعد.

كانت خالية.

كان الممر مهجوراً حقاً؛ لا ممرضين عند المصاعد، ولا تعزيزات مسلحة. لا يوجد أحد لنجدة الرهينة.

– "هيا بسرعة. ليس أمامنا اليوم كله."

تحركوا.

قال فريدر بينما كان باب المصعد ينفتح؛ فقد كان ينتظرهم بالفعل في طابقهم:

– "هذا لن ينجح."

– "أوه، بلى سينجح. لدينا عيناك وبطاقاتك الممغنطة." وأمر ترامنيتز فريدر بوضع وجهه أمام الكاميرا بجانب أزرار المصعد لكي يأذن ماسح القزحية بالدخول.

سرى شعور غريب في جسد تيل، جعله ينسى الألم في ذراعه الملوية للحظات.

ما الذي يغيب عني؟

سأل ترامنيتز:

– "أين سيارة النقل؟"

أجاب الجراح:

– "هذا هو بالضبط ما كنت أتحدث عنه؛ فبمجرد انفتاح باب المصعد سيسيطرون عليك. سيارة الإسعاف في المدخل، ولكي نصل إليها علينا عبور الطابق الأوسط المخفي عن الأنظار؛ وهو مكان مثالي لتصفيتك من الخلف."

ابتسم ترامنيتز، ورأى تيل انعكاس ابتسامته من طرف عينه على جدران المصعد الكرومية، وقد انغلقت أبوابه الآن.

قال القاتل:

– "لهذا السبب لن نستخدم سيارة النقل."

– "إذن ماذا سنستخدم؟"

– "أين ركنت سيارة الـ (بورش) الخاصة بك يا فريدر؟"

الفصل الواحد والستون

بيا فولفايل

رقم محجوب؟

لم تكن بيا تحب الرد على مكالمات من أشخاص غير مسجلين في دفتر عناوينها. فالمخاطرة كبيرة بأن يكون المتصل عميلاً مزعجًا يطلب استشارة في وقت غير مناسب، بعد أن حصل على رقم هاتفها بطريقة أو بأخرى. ربما من محامٍ مرر الرقم دون استئذان.

لكنها كانت تنتظر منذ أكثر من ساعة في موقف سيارات «إم ساتوينكل». لم يكن الموقف الأول بعد الجسر على بر مينة سباننداو؛ فذلك سيكون مكشوفًا للغاية. لكن هذا الموقف لم يكن بعيدًا، إذ لا يبعد دقيقتين عن الطريق المؤدي إلى المستشفى، ولهذا استغربت بيا استغراق الأمر كل هذا الوقت.

قالت، وهي تأمل أن تسمع صوته أخيرًا:

— "مرحبًا؟"

لم يخبرها غيدو بما يخطط له، وفي قرارة نفسها لم تكن منزعجة من جهلها بكامل تفاصيل مخططه. خلال محادثتهما الهاتفية الأخيرة، لم يشأ أن يقول أكثر من: «كوني في موقف السيارات بجوار أماكن نصب الخيام في الثامنة مساءً». فعل ذلك ليتجنب جعلها شريكة في الجريمة. يا له من تصرف رقيق، وإن كان حرصه مبالغًا فيه. لقد أحبته

لدرجة أنها لو خُيِّرت بين الحصول على ترامنيتز وبين السماح لها بالاستمرار كمحامية، لاختارت الأول في كل مرة. على أي حال، لم تكن هناك إمكانية واقعية للاستمتاع بعلاقتهما بحرية ودون إزعاج، بافتراض أن حبيبها تمكن بطريقة ما من الهروب من المصحة. ليس في ألمانيا على الأقل.

ابتسمت وهي غارقة في أفكارها.

كان غيدو واحدًا من القلائل الذين فهموا هذا. وربما كان الوحيد. عائلتها، على أي حال، لم تفهم، وخاصة شقيقتها المزعجة. طوال فترة دراسة بيا، ظلت شقيقتها تدعي أن السبب الوحيد لرغبة بيا في أن تصبح محامية دفاع هو إصابتها بـ «عقدة المخلص». ولأنها ضحية بالفطرة. لكن شقيقتها لم تكن لتتحدث هكذا إلا لجهلها بغيدو. بالتأكيد، لديه عيوبه. لكن لم تكن بجانبه يومًا امرأة قوية، ندٌ له، ذكية وحاذقة بما يكفي للارتباط به. شخص يمكنه تغييره بقوة الحب، ذلك الحب الذي شعرت به منذ وقعت عيناها عليه لأول مرة في غرفة استجواب الشرطة.

سمعته يقول، مزيحًا حملاً ثقيلاً عن كاهلها:

— "مرحبًا يا حبيبتي."

—"أين أنتَ؟"

— "استديري وستريني".

فعلت ما طلبه وابتسمت.

شقت المصابيح الأمامية عتمة الغابة، مضيئة تيجان بعض أشجار القيقب المصطفة على طريق الدخول إلى الموقف. ثم انعطفت سيارة رياضية عند الزاوية وانحرفت نحو المدخل.

– "ها أنتِ ذي يا عزيزتي. كنا بانتظارك".

مع ابتسامة، مسدت بيا بطنها، الذي لم يكن الحمل قد ظهر عليه بالطبع في هذه المرحلة المبكرة، وخرجت من سيارتها.

سيارة مرسيدس صالون، ليست خفية عن الأنظار تمامًا، لكنها أفضل من سيارة بورش باناميرا ذات لون سلموني ونظام تعليق منخفض.

– "هل أحضرتِ ما طلبته منكِ؟"

بدلاً من الإجابة، تحسست جيب معطف الفرو خاصتها وأخرجت المسدس من العيار الصغير.

لمع المقبض الأسود كالزيت تحت شعاع المصابيح الأمامية، التي تباهت فيها بالسلاح بفخر. لقد عهد به إليها تاجر مخدرات دافعت عنه بنجاح في العام الماضي. المجرمون في الأفلام فقط هم من يرمون أسلحتهم في البحيرة. أما في الحياة الواقعية، فهي مخبأة بأمان أكبر بعيدًا عن أعين الشرطة المتطفلة في خزانة محامٍ.

– "أنتِ رقيقة جدًا يا حبيبتي".

أرسلت قبلة عبر الهاتف وقالت:

– "عليك فقط أن تعمّره، لا أعرف كيف أفعل ذلك. لكن لا يزال هناك القليل من..."

لم تكمل جملتها.

كانت ابتسامة بيا العاشقة لا تزال مرتسمة على شفتيها عندما هشّم مصد الباناميرا ساقيها. انطلق الوحش بقوة 550 حصانًا نحوها كسهم قاتل، مطيحًا بها من حذائها ذي الكعب العالي وقاذفًا إياها إلى الخلف

لترتطم بسيارتها المرسيدس، قبل أن تتدحرج لتستقر في بركة ماء، وقد كُسر عمودها الفقري في عدة مواضع.

كانت لا تزال تتنفس. استطاعت تذوق الدم، لكنها لم تشعر بشيء أسفل فقرتها العنقية السادسة. ومع ذلك، كانت حاسة السمع لديها لا تزال سليمة.

كانت فكرتها الأخيرة: طفلنا.

وآخر صوت تسلل إلى رأسها المحتضر كان صرير إطارات البورش وهي ترجع للخلف.

الفصل الثاني والستون

تيل

– "تبًا، ماذا فعلت؟"

هز فريدر الباب الخلفي المقفل. في موقف السيارات تحت الأرضي بالمستشفى، أجبره ترامنيتز على الجلوس في المقعد الخلفي وفعّل قفل الأطفال. خلال الرحلة القصيرة، لم يتم إيقافهم أو تفتيشهم ولو لمرة واحدة. لم يكن هناك سوى حاجزين إلكترونيين تمكن ترامنيتز من تجاوزهما باستخدام بطاقة الطبيب.

– "أخرجني!"

ضحك ترامنيتز:

– " بالطبع سأُخرجك!".

ضغط زرًا في مسند الذراع وكاد فريدر يسقط من الباب الذي انفتح فجأة.

أمر تيل، الذي كان يحدق وكأنه منوم مغناطيسيًا في المرآة الجانبية للراكب نحو الكومة البشرية الملتوية الملقاة في الموقف ككيس متمزق من الملابس المستعملة:

– "أنت أيضًا".

أمر ترامنيتز مرة أخرى:

– "انزل!"، ملوحًا هذه المرة بشفرة الحلاقة أمام عيني تيل.

خلال القيادة، أبقاها مشدودة بين أصابع قبضته، مستعدًا لتشويه وجه أي شخص يحاول الإمساك بعجلة القيادة أو القيام بأي حماقة أخرى.

عندما لم يبدِ تيل أي رد فعل، نزل ترامنيتز، وأسرع حول السيارة الرياضية وفتح الباب بعنف ليسحبه من معطفه إلى الأسفلت. عبثت الرياح بياقته وساقي بنطاله، واستطاع تيل شم رائحة التراب والأوراق والبحيرة التي كانت هبات الرياح تكتسب زخمها من اتجاهها.

– "تحرك، تحرك، تحرك! نحن لسنا في نزهة لعينة!"

دفعه ترامنيتز نحو سيارة المرسيدس الخاصة بالمرأة المجهولة التي اتصل بها السيكوباتي قبل أن يقتلها في منتصف محادثتهما.

قال فريدر وهو يجثم بجانب المرأة الميتة ليجس نبضها بلا جدوى:

– "لماذا فعلت ذلك؟"

انحنى ترامنيتز والتقط المسدس الذي كانت المرأة تمسكه قبل ثوانٍ فقط.

للحظة وجيزة، انزعج تيل من الفرصة الضائعة، لكنه أدرك بعد ذلك أن السلاح كان ليكون بلا فائدة في يديه. ترامنيتز عديم الإحساس بالألم؛ حتى رصاصة في فخذه لم تكن لتجعله يتكلم. وهو لا يريد قتله.

ليس قبل أن يقودني إلى الحقيقة.

فكر تيل أيضًا أن فريدر كان من الأفضل له محاولة الهرب بدلاً من القلق بشأن المرأة المقتولة. ثم فتح ترامنيتز باب السائق في سيارة المرسيدس.

– "هيا. ماذا تنتظران؟"

صوب المسدس نحو تيل والطبيب بالتناوب، ثم لوح لهما بيده الأخرى للاقتراب.

– "اصعدا، حالاً!"

وقف الجراح، عاجزًا عن رفع عينيه المذعورتين عن الجثة. مشى إلى الخلف، خطوة بخطوة، وكأنه في غيبوبة، يحدق فيها طوال الوقت. لم يستدر إلا عندما أصبح بجانب المرسيدس.

همس والدموع في عينيه:

– "لماذا؟"

كانت هناك علامة حمراء على جبهته، حيث ارتطمت بمسند الرأس. ورغم أن تيل كان يضع حزام الأمان، إلا أنه شعر الآن بألم في رقبته حيث حفر الحزام في جلده عند الاصطدام.

– "اقفز إلى الداخل وسأخبرك".

بينما كان تيل قد صعد بالفعل إلى مقعد الراكب، بدا فريدر مترددًا، لكن عندما صوب ترامنيتز المسدس نحوه لم يكن لديه خيار، فصعد إلى الخلف. ومرة أخرى، لم يربط حزامه.

تمتم وهو يدفن وجهه بين يديه:

– "يا للمصيبة. يا لها من مصيبة لعينة".

كان من المستحيل تحديد الصوت الأعلى في تلك اللحظة: هدير المحرك، أم أنين الجراح، أم ضحكة ترامنيتز المجلجلة وهو يضع السيارة في وضع القيادة ويضغط بقدمه على الدواسة. قفزت المرسيدس للأمام، ثم ضغط ترامنيتز على الفرامل بقوة، وكأنه نسي شيئًا.

ما الذي يغيب عني؟ تساءل تيل مرة أخرى وهو يحدق في المرأة أمامه، التي أضاءتها مصابيح المرسيدس وكأنها عمل فني جنائزي.

التفت ترامنيتز إلى فريدر:

– "أتريد أن تعرف لماذا قتلت محاميتي؟"

– "نعم".

– "لأنني لم أعد بحاجة إليها".

ضحك وأضاف:

– "ولأنها كانت تثير أعصابي حقًا".

ارتسم تعبير مفكر على وجه السيكوباتي.

سمعه تيل يقول:

– "في الواقع، يمكنني قول الشيء نفسه عنك أيضًا".

أومأ ترامنيتز وكأنه يؤكد أفكاره، ثم أطلق النار على الجراح في معدته.

الفصل الثالث والستون

سينغر

– "إنه ماذا؟"

– "هرب. فر. اختفى".

– "هذا... كيف يمكن أن يحدث؟"

دارت سينغر دورة كاملة في غرفة ترامنيتز المهجورة، وكأن هناك زاوية أو شقًا في هذه المساحة الصغيرة قد غفل عنه سايمون.

– "كان من المفترض أن أحضره وآخذه إلى عربة النقل، لكن عندما وصلت إلى هنا..."

ترك الممرض جملته غير مكتملة.

سألت سينغر:

– "هل أطلقت الإنذار؟"

كان الدم قد غادر وجهها تمامًا. ترامنيتز هرب! أخطر سيكوباتي في مؤسستها قد تبخر في الهواء.

أجاب سايمون، وقد بدا مذنبًا رغم أنه تصرف بشكل صحيح تمامًا:

– "بالطبع".

كانت كل ردهة في مصحة شتاين تحتوي على أزرار ذعر مخفية — أحدها بجانب طفايات الحريق في الممر مباشرة — يمكن استخدامها في حالات الطوارئ لإبلاغ الشرطة عبر خط مخصص.

— "قبل دقيقة، قبل أن أتصل بكِ".

قالت سينغر:

— "جيد".

لن تمر سوى دقائق قليلة قبل أن يكتظ المدخل بنصف دزينة من سيارات الشرطة، وتدور أضواؤها الزرقاء في الساحة الأمامية.

لكن من أين سيبدأ الضباط البحث؟

ذهبت سينغر إلى النافذة وحدقت في الحديقة المهجورة التي تعصف بها الأنواء. في ضوء الفوانيس، لم ترَ سوى العشب الرطب والأوراق المتطايرة. غطت الأغصان التي اقتلعتها العاصفة المسارات في كل مكان مثل الأخشاب الطافية.

— "قد لا يزال الوغد هنا. كيف تمكن من تجاوز الحواجز الأمنية دون مساعدة خارجية؟"

في انعكاس النافذة المظلمة، لاحظت مرة أخرى الوجه النادم للممرض الذي كانت تثق به أكثر من أي شخص آخر هنا.

— "ما الخطب؟"

— "أنا آسف، لكن هناك المزيد من الأخبار السيئة".

— "ماذا؟"

— "كاسوف!"

استدارت بسرعة.

– "هل هو وراء الهروب؟"

تنهد سايمون.

– "أشك في ذلك. كاسوف ملقى في غرفة وينتر، مصاب بجروح خطيرة. لا بد أنه تم التغلب عليه والآن ترامنيتز ووينتر هاربان معًا. وهذا ليس كل شيء أيضًا".

يا إلهي. مريضان في يوم واحد؟

لم تكن قلقة بشأن سخرية الصحافة، التي ستمزقها إربًا غدًا، بقدر قلقها على السلامة العامة.

نحنح سايمون.

– "لا تقل لي أن شخصًا آخر مفقود".

– "لا أستطيع الوصول إلى الدكتور فريدر. لكنني وجدت هذا في الطاولة الجانبية".

– "مذكرات؟"

إذن كان وينتر محقًا؟

خطفت سينغر الكتاب من يد سايمون وفكت الشريط. وبينما كانت تفتح الكتاب سقطت منه رسالة. موجهة إلى:

البروفيسورة سينغر (إذا لم تُطردي من العمل بعد!)

عزيزتي السيدة سينغر، أنتِ شخص فضولي يحب حشر أنفه في السجلات الخاصة للآخرين. إليك نظرة حميمة، وفكاهية في آن واحد، على حياة غيدو ترامنيتز. مذكرات، إذا صح التعبير.

بينما كانت تقرأ الكلمات، استطاعت سينغر سماع الصوت النرجسي المتهكم لذلك الوغد.

كما ترين، يمتد التقرير لبضع عشرات من الصفحات. لقد أوليت عناية خاصة لوصف ما حدث للصغير الشرس ماكس، مع التركيز بشكل خاص على لحظاته الأخيرة في الحضّانة. إذا كنتِ في عجلة من أمرك، وهو ما أتخيله نظرًا لأنني أبتعد أكثر مع كل ثانية، اسمحي لي أن أنصحك بتجاوز الأجزاء الدقيقة في الوقت الحالي. (يمكنك دائمًا الحصول على قراءة مريحة لها لاحقًا، أمام المدفأة مع كأس من النبيذ).

لو كنت مكانك لقلبت هذه الرسالة ببساطة لمعرفة مكاني الحالي.

وبينما كانت تقلبها، كانت الورقة ترتجف بقوة في يد المديرة لدرجة أنها واجهت صعوبة في قراءة الفقرات المدونة على الجانب الآخر. وعندما نجحت أخيرًا ووصلت إلى النهاية – عندما أدركت فظاعة ما خطط له ترامنيتز بدقة ونفذه هنا – سقطت الرسالة على الأرض ولم يكن بوسع البروفيسورة سينغر سوى أن تصرخ بغضبها ويأسها بكل قوتها في وجه سايمون.

في تلك اللحظة، كان بالإمكان سماع صفارات إنذار الشرطة تقترب من مسافة بعيدة.

الفصل الرابع والستون

تيل

تسلل تيل إلى الخلف ومعه حقيبة إسعافات أولية وجدها في صندوق القفازات، وضغط بضمادة لوقف النزيف بأقصى ما يستطيع فوق جرح الرصاصة، لكن النزيف لم يتوقف.

كثير جدًا، هذا كثير جدًا.

كانت ضمادة الشاش والقطن وكل شيء آخر استطاع العثور عليه يقطر مثل إسفنجة مبللة. حتى الضمادة على أصابعه هو كانت غارقة بالدماء.

فاحت داخل السيارة رائحة الدم والعرق والخوف، وكل ما استطاع تيل التفكير فيه هو أن هذه لا بد أن تكون رائحة الموت، رغم أن الموت كان في الواقع يجلس مبتهجًا ومستحمًا حديثًا خلف عجلة قيادة المرسيدس.

– "مساعدة..."

أنّ الجراح، وانتحب، ودمدم، ولهث طالبًا المساعدة مرة أخرى. قطرت من جبينه حبات عرق بحجم حبات البرد. انتفضت ساقه اليمنى بشكل لا يمكن السيطرة عليه، وارتجفت مقلتا عينيه تحت الجفون وكأنها موصولة بتيار كهربائي.

صرخ تيل:

- "توقف!"

لكن ترامنيتز زاد السرعة بدلاً من ذلك. إذا لم يكن مخطئًا، فهم يتجهون نحو «سبانداو» أو «شارلوتنبورغ»، لكن ذلك لم يكن مهمًا في الوقت الحالي لأنهم بالتأكيد لم يكونوا يقودون نحو أي مكان قد يمنح فريدر فرصة ولو ضئيلة للنجاة.

- "إنه بحاجة للذهاب إلى مستشفى".

سخر ترامنيتز:

- "ألم يكن بإمكانه قول ذلك في وقت أبكر؟ لقد جئنا لتوّنا من واحد!"

- "إنه سيموت".

قال ترامنيتز وهو يغمز له في مرآة الرؤية الخلفية:

- "هذا ما آمله. وأراهن أنك لا تمانع ذلك أيضًا".

ها هو ذا مرة أخرى، السؤال عما كان يراوغه بينما يجاهد لمنع الطبيب من النوم.

ما الحلقة المفقودة؟

نظر عبر النافذة. تدحرجت الأشجار المظلمة على جانب الطريق، وجذوعها القوية تتطاول نحو السماء مثل علامات تعجب.

أنت! تفتقد! شيئًا ما!

لم تكن علامات التعجب في عجلة من أمرها. تحركت بتؤدة، لأن ترامنيتز كان يلتزم بحد السرعة، ربما لتجنب لفت الانتباه. ومع ذلك، انتهت الرحلة، التي عاشها تيل وكأنه في حلم يقظة تام، بسرعة مذهلة.

رغم أن فريدر قضى الوقت كله ينتحب، ويلهث، ويعوي، ويتمتم طالبًا النجدة بينما كانت يده اللزجة تزداد برودة وضعفًا.

توقفوا في شارع صغير تصطف فيه منازل منفصلة، وهنا، عندما رأى هذا المحيط الجديد لأول مرة في ضوء مصابيح الشوارع العتيقة، استشعر تيل شعورًا يمكن مقارنته بشكل غامض بالـ «ديجا فو».

شعر وكأنه يقرأ بداية كتاب بدا مألوفًا من جهة، لكنه مع كل صفحة كان يشعر بقلة اليقين فيما إذا كان قد قرأه من قبل.

أين أنا؟

كانت معظم المنازل تعود إلى أوائل القرن العشرين، مبانٍ تاريخية مثيرة للإعجاب بأسقف عالية وقرميد «ذيل القندس» على أسطحها الشاسعة.

لكن المنزل الذي توقف أمامه ترامنيتز كان يبرز من بين المجموعة المتجانسة بخلاف ذلك. كان بناءً حديثًا بطراز عصري ونوافذ كبيرة تمتد من الأرض إلى السقف وسطح مستوٍ فوق الاستوديو. لم تكن هناك أضواء مشتعلة في أي مكان؛ حتى رقم المنزل لم يكن مضاءً.

نبح ترامنيتز مصوبًا المسدس نحو رأس تيل:

— "افتح بوابة الحديقة!"

دفع تيل يده اليمنى دفاعًا، مما اضطره لتخفيف الضغط على ضمادة فريدر، رغم أنها لم تكن تجدي نفعًا على أي حال.

— "أبعد المسدس. لن أحاول الهرب".

قهقه ترامنيتز.

— "لا، أنت تريد رؤية ماكس، أليس كذلك؟"

عند ذكر هذا الاسم، بدأ فريدر في الأنين مرة أخرى. مد يده إلى تيل، وكأنه يتوسل إليه ألا يتركه وحيدًا في السيارة مع مجنونه.

ضغط تيل يدي الطبيب مرة أخرى على معدته.

– "لا تقلق، سأعود".

خرج وفتح البوابة الحديدية المشغولة للممر، والتي كانت مواربة وليست مقفلة. ولأن المنزل بدا غير مأهول ومظلمًا، فوجئ تيل بأن العقار لم يكن محميًا بواسطة شركة أمن ضد الدخول غير المصرح به.

ما الذي يغيب عن ذهني؟

غرغرة المحرك عندما دخل ترامنيتز إلى الممر المفروش بالحصى وتوقف في مرآب السيارات الذي كان بجانب مدخل القبو. أضاء مصباحان خارجيان فعّلتهما مستشعرات الحركة، مما يعني أنه يمكنك على الأقل رؤية يدك أمام وجهك.

نزل ترامنيتز.

سأل تيل:

– "هل هو هنا؟"

شعر بالغثيان. ليس بسبب الدم على يديه، ولا بسبب الرجل المحتضر في المقعد الخلفي أو المرأة الميتة في موقف السيارات التي دهساها.

شعر بالغثيان لأنه علم أن لحظات قليلة فقط تفصله عن اليقين المطلق.

– "هل ماكس هنا في هذا المنزل؟"

لا شيء أسوأ من عدم اليقين.

باستثناء الحقيقة...

– "حسنًا، هذا هو سؤال المليون دولار، أليس كذلك؟"

بينما أغلق ترامنيتز باب السائق، انفتح الباب الخلفي وسقط فريدر من السيارة مثل كيس مبلل.

– "أوه، انظر، كم هذا لطيف! إنه يريد المجيء معنا".

جاهد الجراح للوقوف على أطرافه الأربعة للحظة. ترنح للأمام نحو ترامنيتز ودرجات القبو.

تنحى القاتل جانبًا وركل فريدر، مما أدى إلى تدحرج الطبيب أسفل الدرج إلى مدخل القبو. كان تيل متأكدًا من أن هذا يمثل حكم الإعدام على فريدر – ستنكسر رقبته – لكن في الأسفل تمامًا تمكن الجراح من الإمساك بالدرابزين بيديه قبل أن يرتطم رأسه بالأرضية الحجرية. لكنه لم يتمكن من النهوض مرة أخرى.

ذكّر هذا المشهد المروع تيل بكلب له قضى ساعة بعد استيقاظه من تخدير عام يحاول الوقوف مرة أخرى في غرفة الإفاقة عند الطبيب البيطري، وقوائمه تنزلق مرارًا وتكرارًا على الأرضية المعقمة الملساء. كانت جهود فريدر العقيمة هنا ميؤوسًا منها ومثيرة للشفقة بالمثل.

صرخ تيل مرتعبًا:

– "دعه وشأنه!"

لكن ترامنيتز، الذي تبع الطبيب، أمسك بفريدر من ياقته وسحبه عبر باب القبو. وهنا أيضًا قامت مستشعرات الحركة بتفعيل الضوء اللازم عند دخولهم، هذه المرة في الردهة. ومرة أخرى كان الباب مواربًا.

ما الذي يغيب عني؟

أمر ترامنيتز:

– "انسه".

هسهس مرة ثانية بغضب:

– "انسه!"، عندما حاول تيل الاطمئنان على الجراح المصاب، الذي كان ملقى الآن بلا حراك على سجادة فاتحة اللون بدت منزلية بشكل غير معتاد بالنسبة لردهة قبو.

أغلق ترامنيتز الباب المؤدي للخارج وتقدم في الممر نحو الدرج الذي يفترض أنه يؤدي إلى الطابق الأرضي من المنزل.

نادى تيل:

– "من هذا الطريق!"

تسببت رائحة الغبار الرطب والكتب القديمة في حكة بأنف تيل. ورغم أن الجو هنا كان أكثر دفئًا بعدة درجات منه في الخارج، إلا أنه كان يتجمد مع كل خطوة يخطوها خلف ترامنيتز.

هل هذا ما أريده؟ هل أريد اليقين؟

قبل بضعة أيام كان ليعطي كل شيء من أجل هذا. لا، لقد أعطى كل شيء. حريته، استقلاليته.

عقلي؟

تخمر هاجس مشؤوم داخل تيل بأن المسار الذي رسمه له هذا السيكوباتي، والذي يتبع الآن لافتات الرعب فيه، سيقوده إلى حقيقة أسوأ من أي شيء يمكن أن يتخيله.

– "أين نحن؟"

رن صوت تيل أجوفًا في الخزائن المفتوحة المدمجة في الحائط، حيث يفترض أن الأحذية والمعاطف الشتوية والغسيل كانت تُحفظ سابقًا. لكنها الآن فارغة. باردة.

ميتة.

– "واحدة تلو الأخرى".

طأطأ ترامنيتز رأسه وهو يمر عبر مدخل إلى اليمين.

– "فقط انظر إلى ما أعددته لك هنا".

الفصل الخامس والستون

ازدادت الحكة سوءًا، واستطاع تيل الآن شم مادة كيميائية أيضًا. شيء نفاذ كان يهيج شعيرات أنفه واضطر للنشوق.

ورغم كل المقاومة التي أبداها جسده والتي جعلت ساقيه ثقيلتين كالرصاص، ظل تيل يتبع ترامنيتز. ولأنه لم يلاحظ وجود درجة بعد الباب، تعثر ودخل إلى شيء يشبه غرفة نوم، ربما لضيوف المالك الثري لهذا المنزل، الذي لا يمكن أن يكون هو السيكوباتي.

لا بد أن ممتلكات ترامنيتز قد صودرت وبيعت منذ زمن طويل.

ولكن ربما لا؟

غطى مفرش سرير أزرق فاتح سريرًا مزدوجًا، وكانت طبقة الغبار السميكة على ألواح الأرضية بالقرب من نوافذ القبو المظلمة دليلاً على أن أحدًا لم ينظف هنا منذ وقت طويل.

سمع ترامنيتز ينادي من الغرفة المجاورة:

— "من هنا".

كانت غرفة الضيوف متصلة بغرفة القبو الأخرى بباب جرار.

— "هيا، أتحداك! اقترب!"

أغلق تيل عينيه، لكن لم تكن هناك فرصة لإسكات صوته الداخلي الذي كان يتوسل إليه ألا يفعل ذلك.

استدر! لا تتقدم أكثر! لا تنظر!

بالطبع اتبع نداء القاتل. غناء الحوريات الشيطاني.

وعيناه لا تزالان مغلقتين، تقدم خطوة للأمام. لا بد أنه الآن في إطار الباب بين الغرفتين. أعمى، كما كان يفعل في عيد الميلاد عندما يخبره والداه أنه يجب أن ينتظر وغير مسموح له بفتح عينيه حتى يأذنا له.

لكن هنا في الأسفل لم تكن هناك شجرة عيد ميلاد أو هدايا تحتها ليتعجب منها، بل فقط معاناة وعذاب و...

– "يا إلهي!"

تيل، الذي لم يعد قادرًا على التماسك أكثر، حدق فاغر الفم في الجهاز الموجود في منتصف الغرفة التي كانت عارية بخلاف ذلك. حتى السجادة، التي كانت مفروشة في كل مكان آخر في القبو، كانت مفقودة هنا. كل ما استطاع رؤيته هو طاولة معدنية مستطيلة وعليها ذلك الجهاز الجحيمي الذي بدا في الواقع أكثر بشاعة بكثير منه في صورة الجريدة.

ذكّره الصندوق الخشبي ذو النوافذ المثبتة في جانبه بالرئة الحديدية.

في متحف التاريخ الجنائي، تعجب تيل ذات مرة من أجهزة التنفس بالضغط السلبي العتيقة، التي كان الناس يوضعون فيها للتنفس الاصطناعي.

الفرق الوحيد هو أن رأس المريض كان حرًا في الرئة الحديدية، بينما هنا الصندوق مغلق من جميع الجوانب.

سأل بصوت مبحوح:

– "ما هذا؟"

— "تريكسي، أو هكذا كان والدي يسميها. الله وحده يعلم لماذا. ليس لدي اسم لحاضنتي".

اقترب تيل ومد يده إلى الخشب المضغوط البني. على الجانب الطويل المواجه له تحسس الثقبين الدائريين، بقطر حوالي عشرين سنتيمترًا. كانا مسدودين بالزجاج، بينما كان للغطاء تجويف زجاجي عند جهة الرأس.

قال تيل بقلق:

— "ماكس؟"

لم يستطع رؤية ما إذا كان أي شيء يتحرك داخل الصندوق. كان كبيرًا بما يكفي لاستيعاب طفل في السادسة — لا، الآن صبي في السابعة. كان الزجاج كله مصنفرًا، معتمًا تقريبًا.

رغم أن...

لا، لم يكن ذلك زجاجًا مصنفرًا. كان...

تكثفًا!

إنها مغطاة بالبخار!

اقترب تيل أكثر.

من الداخل!

انحنى فوق الغطاء المغلق واستطاع بوضوح رؤية جسد ممدد هناك.

قال وهو ينظر إلى ترامنيتز، الذي كان يقف بجانبه يراقب بتسلية:

— "هل هذا..."

قفزت الدموع إلى عينيه:

— "هل هذا ابني؟"

— "ألا تتعرف عليه؟"

— "أنا... لا أستطيع الرؤية. النوافذ مغطاة بالبخار تمامًا".

وهي علامة جيدة، أليس كذلك؟ تعني أنه يتنفس، أليس كذلك؟

ربت ترامنيتز على كتفه كأب.

— "ألقِ نظرة أقرب".

— "لكن كيف... كيف يعقل ذلك؟"

نشق تيل ومسح السطح الخارجي للزجاج بكمة معطفه، وهو ما كان بلا جدوى بالطبع، لأن التكثف كان من الداخل.

لا يمكن أن يكون ماكس داخل هذا الصندوق لمدة عام. عام كامل دون أن يُكتشف في هذا المنزل؟

قال ترامنيتز بجانبه:

— "هل حقًا ليس لديك أدنى فكرة؟"

نظر إلى تيل:

— "ألا تعرف من أنت؟"

هز تيل رأسه كتلميذ صغير أمام السبورة، عاجزًا عن حل المسألة التي طُرحت عليه.

— "أو ما الذي حدث حقًا؟ لماكس قبل عام؟"

همس تيل:

— "لا!"، وشعر بالخوف يوشك أن يبتلعه من الداخل.

قال ترامنيتز:

— "حسنًا. دعني أقدم لك مساعدة صغيرة".

الفصل السادس والستون

ماكس

(قبل عام واحد)

مكعب ثلج؛ فكر ماكس وهو يتشبث بنموذج المركبة الفضائية.

خطا خارج باب المنزل ليواجهه بردٌ قارس يلائم تمامًا كلمة السر التي اتفق عليها مع والده. لقد تدربا عليها مرارًا وتكرارًا؛ في نزهاتهما عبر الغابة، في السيارة، أو أثناء انتظار الحافلة.

— "ماذا تفعل إذا طلب منك شخص غريب الذهاب معه؟"

— "أطلب منه كلمة السر."

— "وما هي كلمة السر الخاصة بنا؟"

تمتم ماكس قائلًا: "مكعب ثلج"، ثم نزل الدرجات بحذر نحو حديقة المنزل الأمامية. يجب ألا ينكسر نموذج "الليغو" أو ينفصل منه أي جزء قبل أن تراه آنا؛ آنا التي تفوح منها دائمًا رائحة طيبة وتمنحه أحضانًا دافئة.

— "هيا، أيها الصغير!"

التفت ماكس جهة اليمين فرأى رجلًا يقف تحت مصباح الشارع.

— "نعم؟"

— "هل تعرف أين يقع المنزل رقم ٦٥؟"

لم يرد ماكس أن يتأخر عن موعده مع آنا، فضلًا عن أن البرد كان يزداد قسوة مع كل ثانية.

— "ما هي كلمة السر؟"؛ أفلتت الكلمات منه عفوًا.

— "هاه؟"

نظر الرجل إلى ماكس وكأنه يتحدث بلغة سرية كالتي اخترعها مع صديقه المفضل أنتون.

قال ماكس بعد برهة: "لا يهم"، وقرر مساعدة الرجل.

— "رقم ٦٥؟"

لمَ لا؟ فالرجل لم يطلب منه الذهاب معه. كما أن قاعدة "كلمة السر" لا تنطبق بالضرورة على عامل توصيل يحاول سحب عربة محملة بالطرود عبر الثلوج.

قال عامل التوصيل بعد أن أرشده ماكس للطريق: "شكراً يا صاحبي". لم يخطئ الرجل في الرقم فحسب، بل في اسم الشارع أيضًا؛ لم يكن شارع "ليرشنفيغ"، بل "لارشنفيغ".

الأمر محيّر هنا حقًا، فكل الأسماء متشابهة.

انتظر ماكس حتى عاد السائق إلى شاحنته الصفراء وانطلق مبتعدًا. منحه ذلك وقتًا ليرتب ما سيقوله لـآنا. في الحقيقة، كان الرعب يتملكه؛ فـآنا كانت جميلة جدًا وهو لا يزال صغيرًا. هل ستضحك إذا ذهب ورنّ جرس بابها هكذا ببساطة؟ وهل تحب "حرب النجوم" حقًا؟ بالطبع؛ فـآنا فتاة رائعة، ولا بد أنها تعشق "حرب النجوم".

كان ماكس غارقًا في أفكاره وهو يعبر الطريق، لدرجة أنه لم يرَ السيارة الرياضية التي كانت تسير بسرعة جنونية تتجه نحوه.

فكر بذعر: أوه لا.. مركبة (ميلينيوم فالكون) الخاصة بي.

طار نموذج "الليغو" في الهواء وهبط محطمًا في الثلج، تمامًا مثل جسده الصغير الذي غرق من لحظة لأخرى في بحر من الألم؛ أمواجٌ تلطمه وتجتاحه بعنف وضجيج لدرجة أنه فقد الوعي.

لم يستيقظ إلا بعد ساعات عدة، ولم يبصر سوى عينين؛ فقد كان بقية وجه الرجل مغطى بقناع أخضر. استغرق الأمر وقتًا قبل أن يدرك أن السطح الصلب الذي رُبط عليه هو طاولة عمليات.

في ذلك الوقت، قبل عام واحد، ظن ماكس أنه استيقظ في الجحيم؛ وأن وحش الهالوين الشرير قد اختطفه ليعذبه. لم يكن ليتخيل أبدًا أن جحيمه الحقيقي لا يزال قابعًا في المستقبل، وأن بواباته لن تُفتح له إلا اليوم.

هنا والآن، في قبو هذا المنزل الغريب الذي أحضره الرجل إليه صباح اليوم. الرجل نفسه الذي دهسه، ووضع ساقه المكسورة في جبيرة، واعتنى به حتى استعاد صحته، فقط ليقتله في النهاية.

هنا، في هذا الصندوق الخشبي الضيق حيث يرقد بساقين مقيدتين، وتنكفئ فوقه الآن ظلال شخص ما. رجلٌ على الأرجح. بدا مختلفًا عن الرجل الذي كان يحرسه حتى الآن؛ أكثر نحافة، وربما أصغر سنًا. لكنه لم يستطع الجزم؛ فماكس لم يستطع تمييز وجهه لأن النوافذ في هذا الصندوق اللعين كانت مغطاة بالبخار.

نادى ماكس بملء الأمل، رغم أن شهور العزلة قد استنزفت كل أمل لديه:

— "أبي؟"

الفصل السابع والستون

تيل

– "ماكس؟"

طرق تيل على زجاج "الحضّانة". كان متأكدًا أن ابنه قد ناداه، رغم أنه لم يسمع أكثر من همهمة مكتومة من خارج الصندوق؛ فالجهاز اللعين كان معزولًا بإحكام.

صرخ في ترامنيتز الذي وجد صعوبة في تصديق روايته:

– "افتحه!"

حادث صدم وهروب؟ ترامنيتز ليس المختطف؟

لماذا يرقد ماكس في هذا القبو إذن؟ وفي هذه الحضّانة؟

ما الذي يغيب عني؟

– "افتحه! الآن!"

تنهد ترامنيتز قائلًا:

– "أوه، أخشى أنني لا أستطيع ذلك، فأنا لا أملك المفتاح."

رمش تيل بذهول:

– "ولماذا لا تملكه؟"

– "لأنني لم أبنِ هذا الشيء."

أصابت الحيرة تيل لدرجة أنه بدأ يتلعثم:

– "ولكن.. ولكن.. من.. من الذي...؟"

مرر تيل أصابعه فوق مفاصل البراغي. لم يجد أي رافعة أو مقبض أو مفصلة يمكنه تحريكها؛ لا في النوافذ الجانبية، ولا في الغطاء الزجاجي عند الرأس. وتملكه قلقٌ آخر:

– "هل يدخله أي هواء؟"

– "نعم، طالما ظل هذا الصمام مفتوحًا."

أشار ترامنيتز إلى أنبوب معدني على الجانب، بحجم غطاء القلم تقريبًا.

– "لكن بمجرد أن تُحكم إغلاقه..."

أخرج ترامنيتز لسانه وأصدر أصوات اختناق، ثم قهقه بعد أن أنهى تمثيله لشخص ينازع الموت خنقًا.

سأل تيل مجددًا:

– "من يملك المفتاح إذا كان هذا الشيء لا يخصك؟"

– "انتظر، بالطبع هو يخصني. إنه نموذج أولي قديم كنت أحتفظ به في مرآب عند قناة (تيلتو). لكن مثبتات النوافذ والصمام جديدة، لست أنا من صنعها."

صرخ تيل:

– "من إذن؟ إذا لم تكن أنت، فمن؟"

دوى صوت تحطم، وتلعثم فريدر المنحني وهو يدخل الغرفة وينهار وهو يئن.

التمعت عينا ترامنيتز ببهجة شيطانية:

– "يا له من توقيت مثالي! لقد جاء الذئب على ذكره!"

الفصل الثامن والستون

دم.

كان يغطي صدر الجراح بالكامل، ووجهه وشعره، والسجاد وكل مكان لمسه.

استطاع تيل تذوقه وشمّه والإحساس به على جلده، وعلى ضمادات رأسه وأصابعه، وعلى يديه. كان الدم يهدر في أذنيه كهدير نهر هائج.

همس بصوت متهدج وحلق منقبض:

– "ماذا قلت للتو؟"

الحقيقة التي تبحث عنها لن تمنحك أي راحة.

– "بحقك يا تيل، يا والد ماكس، ألا تزال عاجزًا عن ربط الخيوط ببعضها؟"؛ حاول ترامنيتز أن يلتقي بعينيه. "لماذا كان هروبنا سهلاً لدرجة لا تُصدق؟ لماذا لم يعترض طريقنا أحد؟"

لماذا كانت الأبواب هنا مفتوحة؟

– "لقد تلقينا مساعدة."

أشار السيكوباتي إلى الجراح القابع عند الباب، وهو يستند إلى الجدار بين الغرفتين.

– "أسمح لي أن أعرفك بالعقل المدبر وراء هروبنا؟ دكتور فودكا.. أعني، فولكر فريدر. مدمن كحول ليس بـ(مجهول) تمامًا، كاد يفقد كل

شيء عندما ثمل وهو يمسك بالمشرط. وهو نفسه من دهس ماكس الصغير بسيارته البورش العام الماضي."

لهث فريدر، وهو يضغط بيديه الملطختين بالدماء على جرح الرصاصة:

– "أغلق فمك اللعين."

قال ترامنيتز وهو يقترب من فريدر ويركل ساقه الممدودة:

– "هذا ما حدث بالضبط. لقد كان منطلقًا في منطقة السرعة فيها ٣٠ كيلومترًا وهو ثملٌ كالخنزير. أستطيع تخيل ما دار في رأسك وأنت تقف هناك وسط الثلوج بجانب طفل مصاب بجروح خطيرة، وقطع (الليغو) مبعثرة في كل مكان. قلت لنفسك: (تباً، إذا كُشف الأمر، سأُسحق تماماً. سأفقد وظيفتي، وسمعتي، وحريتي. سأفقد كل شيء!)."

– "أأنت من فعل ذلك؟"

ابتعد تيل عن الحضّانة وخطا خطوة نحو الرجل الذي حاول إنقاذ حياته قبل دقائق فقط.

الرجل الذي أمسكتُ بيده.

تابع ترامنيتز: "حسنًا، لقد وضع ماكس في صندوق سيارته وقاد نحو منزله الصيفي في (براندنبورغ)، ليفكر بهدوء فيما يجب فعله." نظر إلى تيل مجددًا: "على أي حال، فريدر اعتنى به. وضع ساقه في جبيرة وما إلى ذلك. كان يرتدي قناعًا دائمًا. أفترض أنك كنت تنوي إطلاق سراحه في وقت ما، أليس كذلك؟" تنهد قائلًا: "لكن في أحد الأيام ارتدى هذا الغبي معطفه.. هل تصدق؟ يا له من هاوٍ سكير. لم يضطر ماكس

لرؤية الوجه الذي لم يكن ليعرفه على أي حال؛ كان عليه فقط أن يقرأ: (الدكتور فولكر فريدر. شتاين كلينيك)."

فجأة بدت كلمات القاتل مكتومة بشكل غريب، لأن جبلًا من الهم قد جثم على أذني تيل. من الواضح أن دماغه رفض سماع الحقيقة التي يقدمها ترامنيتز.

— "المفارقة الساخرة في القصة هي أن ماكس كان بالكاد يستطيع القراءة، فهو لا يزال في الصف الأول. لكنه عرف ما يكفي."

أنَّ فريدر الذي كفّ عن الضغط على بطنه:

— "لماذا تفعل هذا؟"

— "لا تفهمني خطأ يا تيل. فريدر هنا ليس شخصًا سيئًا، على الأقل ليس من صنفي. لقد خاض صراعًا داخليًا حقيقيًا. هو لا يريد الذهاب للسجن بتهمة اختطاف طفل، لكنه من ناحية أخرى لا يطاوعه قلبه على قتل ماكس. وهنا.. جاء دوري."

خطا ترامنيتز خطوة جانبية كممثل يؤدي مشهد ظهوره الكبير على المسرح.

— "بالنسبة له، كان الأمر كأنه قدر. فجأة أهبط على طاولة عملياته. أنا، الشخص الذي يظن الجميع أنه قتل ماكس على أي حال."

ولكن لماذا لم يعترف ويستمتع بمعاناة من بقوا خلفه؟

لأن ترامنيتز لم يكن القاتل!

— "صديقنا الجراح العزيز هنا أبقى ماكس مخفيًا طوال الوقت في منزله الصيفي. كوخ صيد منعزل عند بحيرة (شارميتزيل)، حيث لا يزعجه أحد." أشار ترامنيتز إلى الطبيب: "لذا، بعد العملية دخل فريدر

غرفتي وعرض عليّ اتفاقًا. عليّ أن أجعل كل شيء يبدو وكأنني أنا قاتل ماكس الفعلي وأقود الشرطة إلى جثته. وفي المقابل يساعدني هو على الهرب."

سأل تيل، وهو لا يزال غير متأكد مما يراه ويسمعه؛ أهذا خبرٌ سار؟ تأكيدٌ بأن ماكس لا يزال حيًا؟ أم أن ترامنيتز يلعب معه لعبة بشعة؟

– "ماذا عن المذكرات؟"

– "المذكرات جزء من الاتفاق. لم أبدأ كتابتها إلا وأنا في المصحة. كان من المفترض العثور عليها بين وثائقي لاحقًا؛ الدليل القاطع على أنني أنا القاتل، لا فريدر."

– "ماذا تعني بكلمة قاتل؟ أليس ماكس حيًا؟"

التفت تيل نحو الحضّانة.

– "حتى اللحظة، نعم. ولهذا السبب أخرجني؛ لأقوم أنا بالمهمة القذرة."

يا إلهي.

في مذكراته، وصف ترامنيتز فظائعه المستقبلية.

هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها ماكس. هو سيقتله اليوم. هنا والآن.

قال ترامنيتز: "لقد أعطيت فريدر تعليمات دقيقة؛ أين يجد الحضّانة، وكيف ينهي بناءها لتعمل. وأخبرته أين يضعها ليبدو الأمر وكأنها كانت بحوزتي طوال الوقت."

سأل تيل، مفكرًا في مصابيح الشوارع خارج المنزل وتلك الرائحة الغريبة التي شعر بها عند دخوله القبو:

— "أين نحن؟"

أصرّ ترامنيتز: "أنت تعرف أين نحن."

نعم. في قبضة الشيطان، في أعماق الجحيم نفسه.

— "لقد وجدت بيا العنوان لي عندما أدركتُ هويتك الحقيقية."

رفع ترامنيتز يديه كمن يقول (لا داعي للانفعال) ثم وجه كلامه لـفريدر الذي كانت شفتاه تخرجان فقاعة لعاب مدمى: "أعرف، أعرف. هذا يخالف اتفاقنا."

في هذه الأثناء، كان تيل يعيش تجربة خارج حدود الواقع. جسديًا كان لا يزال هناك، واقفًا في هذا القبو بين آلة الشيطان التي ربما سُجن فيها ابنه، وبين مجرمين اثنين. لكن عقله كان يهيم في الفراغ. صارت الأصوات من حوله خافتة وجوفاء، وكأنها تأتي من بعيد. كان مشلولًا بالصدمة، عاجزًا عن الحراك.

قال ترامنيتز: "ظننت أن الأمر سيكون أكثر تسلية لو حدث هنا بدلاً من مكاني. كنت آمل بطريقة ما أن يأتي معنا."

سمع فريدر يسأل بصوت واهن: "لماذا تخبره بكل هذا؟"

اتجه ترامنيتز بالمسدس في يده الممدودة نحو الجراح القابع على الأرض: "للسبب نفسه الذي جعلني أختار هذا القبو؛ لأن الأمر ممتع. معاناة البشر تكون أعظم عندما يرون الحقيقة الأكثر روعًا بأعينهم."

وضع المسدس على رأس فريدر. أنَّ الطبيب، وأزاح يده عن بطنه. سقطت الضمادة المشبعة بالدم، وتدفق المزيد منه. لدهشة تيل، ابتسم الطبيب بأسنان ملطخة باللون الأحمر.

— "هيا. افعلها. هذا ما خططتُ له على أي حال."

رمش ترامنيتز بحيرة: "أتريد أن تموت اليوم؟"

— "ضع حدًا لهذا كله. كنتُ أنوي إلغاء كل شيء."

نظر الجراح إلى تيل بنظرة حزينة وكأنها تقول: (أنا آسف حقًا. لقد ارتكبت خطأً). لم يملك تيل إلا أن يفكر في أول كلمات قالها فريدر عندما دخل غرفة ترامنيتز سابقًا: "لقد طرأ شيء ما، عليّ أن..."

ردد ترامنيتز بذهول: "إلغاء كل شيء؟ يا للهول، يبدو أن السيد قد اكتشف فجأة أن لديه ضميرًا. أخشى أن الوقت قد فات."

هز فريدر رأسه: "اقتلني! لكن اترك الصبي وشأنه! لقد غيرتُ رأيي."

— "بالنظر إلى كمية الدماء التي تنزفها، أخشى أنك لست في وضع يسمح لك بالتفاوض."

سعل الجراح دمًا، ثم قال مجددًا: "اترك ماكس! الوقت ينفد على أي حال. لا بد أنهم يطاردونك."

— "وماذا في ذلك؟ ربما لا أريد الهرب."

أشار فريدر نحو تيل: "لكنك تريد رؤية ماكس وهو يتعذب. ورؤيته هو أيضًا. ولن تستطيع فعل ذلك إذا قاطعوك."

— "لديّ متسع من الوقت."

بآخر ما تبقى له من قوة، أبعد فريدر المسدس عن رأسه، لكن ترامنيتز أعاده فورًا.

— "لا، ليس لديك. بطاقات المفاتيح الخاصة بي ترسل إشارة. يمكن تتبعها في حال فُقدت. سينغر تعرف مكاني. سيهجمون هنا قريبًا."

ضحك ترامنيتز: "هراء! أنت لست بهذا الغباء. أراهن أنك مسحت أي أثر قد يقود إليك."

احتج فريدر بكل ما أوتي من قوة: "كم مرة سأقول لك؟ لقد غيرتُ رأيي. أدركتُ أنني لا أستطيع المضي قدمًا في هذا. كنتُ سأسلم نفسي."

هز ترامنيتز كتفيه: "وماذا في ذلك؟ مفاتيحك ببطاقات مغناطيسية؛ لا ترسل شيئًا. أنت تخادع. لكنها خدعة جيدة، أعترف بذلك. كما ظننت أنك لم تكن سيئًا وأنت تتظاهر بالتحدث مع الممرضين سابقًا."

قلد ترامنيتز فريدر بوضع المسدس على أذنه وكأنه هاتف محمول مقتبسًا كلماته: "نعم، أعلم أن هذا مخالف للبروتوكول، ولكن لدينا حالة احتجاز رهائن."

وضع السبطانة على رأس فريدر مجددًا: "حسنًا، يكفي عبثًا."

— "لا، انتظر، أتوسل إليك، اترك ماكس..."

انفجرت الجملة التي لم تكتمل حرفيًا في فم فريدر؛ فقد ضغط ترامنيتز على الزناد.

بدوِيٍّ يصم الآذان، اخترقت الرصاصة دماغ الجراح عبر جبهته، قبل أن تخرج من الخلف وتستقر في الجدار الجصي.

قال ترامنيتز، دون أن يطرف له جفن أمام شظايا العظام والدماء والمادة الدماغية المتناثرة على الجدار خلف الطبيب الميت: "لكنه

محق، علينا الإسراع". أما بالنسبة لـتيل، فقد كسر هذا المشهد حالة الذهول لديه؛ تلاشى الضغط عن أذنيه وتحرر أخيرًا من صدمته.

الفصل التاسع والستون

سأل ترامنيتز دون أن ينتظر إجابة:

– "ماذا تفعل؟"

فتش السيكوباتي جيوب الجراح المقتول حتى وجد ما كان يبحث عنه في بنطال فريدر.

– "ها هو ذا!"

أراه المفتاح الذي أخرجه؛ مفتاح مربع بمقبض طويل. "للصمام."

كان يهم بالمرور بجانب تيل، لكن الأخير استجمع شجاعته ووقف في طريقه.

– "توقف. ليس عليك فعل هذا."

أومأ ترامنيتز برأسه: "بالضبط، أنا أفعل هذا للمتعة فقط. لو كان عليّ فعله لكان عملاً، أليس كذلك؟"

أخرج مخزن الرصاص من مسدسه، وتأكد من بقاء رصاصة واحدة، أراها لـتيل ثم تجاوزه بعد أن أعاد تلقيم السلاح.

– "ماذا ستفعل؟"

– "ماذا تظن؟ سأعتني بـ ماكس."

طرق ترامنيتز بسبطانة المسدس على النافذة عند رأس الحضّانة.

– "أهلاً أيها الصغير، هل تسمعني؟ علاجك على وشك أن يبدأ."

تبًا، ماذا الآن؟

نظر تيل حوله في بحث جنوني عن شيء يستخدمه ضد السيكوباتي المسلح. وضع يده على رأسه وفك الضمادة.

– "توقف، وإلا سأرحل."

لم يكلف ترامنيتز نفسه حتى عناء الالتفات، بل وضع المفتاح على صمام الهواء.

– "أي تهديد مضحك هذا؟"

– "كان فريدر محقًا، أليس كذلك؟ أردتني أن آتي لتراني وأنا أتعذب."

– "وماذا في ذلك؟"

– "إذا رحلتُ الآن، فلن تنال شيئًا. لن ترى ألمي وسيكون كل هذا قد ذهب سدى."

هنا التفت ترامنيتز بالفعل، والابتسامة ترتسم على شفتيه: "أوه، أنت تبالغ في تقدير أهميتك. لست هنا لتشاهد الصبي وهو يموت."

لماذا إذن؟

– "سأستمتع بالصبي وحدي. أنت مجرد مكافأة أدخرها لوقت لاحق."

ما الذي يغيب عني؟

– "عندما ينتهي أمر ماكس، وبقليل من الحظ، ستخوض تجربة ستحطمك تمامًا. لهذا أنت هنا؛ أريد أن أراقب وجهك وأتغذى على معاناتك." استنشق الهواء وتابع: "وللعلم فقط، لن تصل إلى مكان بعيد. لقد أجرت بيا بحثها؛ لا يمكنك الخروج من هنا بمجرد إغلاق باب القبو، والباب المؤدي للطابق الأرضي مغلق. لذا لا يوجد مخرج

حاليًا. انتظر في الممر حتى أنتهي من ماكس، وسأريك ما تبقى منه لاحقًا قبل أن نكمل رحلتنا."

دار مفتاح الصمام وبدأ يضيق الخناق على إمداد الهواء.

طق.. طق.. طق.

على الفور بدأ شخص في الداخل يضرب الزجاج والألواح الخشبية.

قال ترامنيتز: "من المؤسف أننا لا نملك الكثير من الوقت، فهناك الكثير مما كنت أود فعله معه. ولكن انظر، يمكنك الرؤية بشكل أفضل الآن؛ الزجاج لم يعد ضبابيًا، ستحصل على مشهد رائع وهو يختنق".

وفي تلك اللحظة بالذات، لفَّ تيل الرباط الذي فكه من ضمادته حول عنق القاتل.

بلا جدوى.

كانت المحاولة يائسة بقدر ما كانت مثيرة للشفقة. بضربة واحدة من مرفقه، فجّر ترامنيتز ألعابًا نارية داخل جمجمة تيل. تطاير الشرر وغمر ألم سائل الفراغات بين عينيه.

سأل ترامنيتز بينما كان الطرق من داخل الصندوق يزداد قوة وهياجًا: "أي أخلاق هذه؟".

طرق.. طرق..

قال ترامنيتز وهو ينحني فوق الحضّانة: "أوه، هذه موسيقى تطرب أذني"، بينما لم يكن لدى تيل أي فكرة عن كيفية إيقاف المجنون وإنقاذ ماكس. في تلك اللحظة، لم يستطع حتى الوقوف على قدميه.

الفصل السبعون

سينغر

عزيزتي السيدة سينغر

بين يديكِ أول مذكرات على الإطلاق تصف المستقبل بدلاً من الماضي.

كل ما تقرئينه هنا هو ما ينتظر ماكس الصغير. خيالاتي لا تزال قيد التنفيذ، ربما الآن، في هذه اللحظة بالذات.

ظن الدكتور فريدر أنه يجبرني على السير وفق خطته، لكن كان من الواضح أن ادعاءه بأنه سممني أثناء العملية لم يكن سوى خديعة.

في الحقيقة، هو من يرقص على أنغامي (رغم أنني أشك، وأنتِ تقرئين هذه السطور، في قدرته على الرقص أصلاً).

جعلته يحضر (تريكسي) —ستعرفين ما هي لاحقاً— إلى مكان اخترته لكي أبدأ علاج ماكس. وفي المقابل، ساعدني هو على الهرب لأسباب سأشرحها عندما نلتقي مجدداً.

لأننا سنلتقي بالتأكيد؛ سأعود قريباً لعهدتكِ، بافتراض أنكِ نجوتِ من الإجراءات التأديبية ولجنة التحقيق التي ستتبع كارثة هروبي لا محالة.

أترين، السبب الوحيد الذي يجعلني أبوح لكِ بكل هذا بصدق هو أنني لا أملك أدنى نية للبقاء طليقاً.

أشعر بالراحة في الحياة المنظمة داخل السجن النفسي، حيث لا ينقصني شيء؛ طعام، سكن، كوكايين، وحتى عاهرات، وكل ذلك بالمجان. كما أن حياتي أُنقذت، حتى وإن كانت ألعاب فريدر النفسية مزعجة بعض الشيء. ولكن لحسن الحظ، صار كل ذلك من الماضي الآن.

بالإضافة إلى ذلك —وهذا هو السبب الرئيسي لرغبتي في العودة— ستكون هناك محاكمة ثانية.

سأنظر في عيني والدة ماكس وستعرف أن ولدها عاش لأكثر من عام إضافي. ستعرف أنه كان هناك احتمال حقيقي لإطلاق سراحه؛ لضمه لصدرها، وتقبيله ومداعبته، ومشاهدته وهو يكبر. وبعد النطق بالحكم، سأنظر في عينيها وأرى الغضب والألم واليأس؛ صورة سأخزنها في عقلي لأستحضرها كلما رغبتُ في التلذذ بها.

حسنًا، لكي تتحقق أمنيتي، عليكِ فقط الانتظار.

سأتصل بكِ عندما ينتهي كل شيء.

بكل ترقب ومودة

غيدو ترامنيتز

— "(تريكسي)؟"

المفتش البدين، الذي نسيَت سينغر اسمه مرة أخرى (اسم حيوان ما؛ بار، هامستر، فيش، أو شيء من هذا القبيل)، كان قد قرأ الرسالة هو الآخر.

سأل بنبرة متوترة: "هل تعرفين ما الذي يقصده بهذا؟". كان رجاله قد بدأوا بالفعل عملية مطاردة وفُرض طوق أمني واسع حول شتاين كلينيك، لكن قلقه كان ملموساً؛ فلا أثر لـ ترامنيتز في أي مكان.

— "أخشى أنني لا أعرف. ماذا عنك يا سايمون؟"

كان الثلاثة يجلسون حول طاولة اجتماعاتها الصغيرة المستديرة، التي كانت عادة مزدحمة بملفات المرضى قبل أن تخليها.

تنحنح الحارس، الذي استدعاه المفتش للمقابلة كشاهد: "لست متأكداً، لكنني أظن أنهم ذكروا ذلك في الصحف. أعتقد أن هذا هو الاسم الذي أطلقه ترامنيتز على الحضّانة التي..."

قاطعه سينغر، مما أثار دهشة المفتش الذي اعتاد على طرح الأسئلة بنفسه:

— "ما حجم شيء كهذا؟"

— "كبير جداً. طوله حوالي متر ونصف وعرضه يكفي ليتسع لشخص بداخله. لماذا؟"

سأل الشرطي: "نعم، لماذا هذا مهم؟".

ازداد وجهه عبوساً عندما تجاهلته الطبيبة ووجهت سؤالاً آخر لـسايمون: "هل استعار فريدر سيارة إسعاف مؤخراً؟ أو أي مركبة نقل أخرى؟ لا يمكنه نقل شيء كهذا في سيارته البورش".

بينما بدا المفتش وكأن طنيناً مفاجئاً قد أصاب أذنيه، قفز سايمون واقفاً: "سأتحقق من سجل المركبات". أسرع نحو الباب، فنادت عليه سينغر: "نعم، افعل ذلك! وإذا وجدت شيئاً، فافحص بيانات نظام الملاحة (GPS)".

الفصل الواحد والسبعون

تيل

دخل إلى غرفة الضيوف، رغم كل الألم الذي لم تكن حتى جرعة الأدرينالين كافية لتخفيفه الآن، ولا حتى الذعر.

ما دفعه للمضي قدمًا كان الطرقات المكتومة لقبضتي ماكس. إيقاع الموت الذي كان يضبط دقات الساعة.

دب... دب...

بحث تيل في غرفة الضيوف عن أي شيء يمكن استخدامه كسلاح. أداة حادة، عصا، سكين سجاد ربما. لكن الغرفة كانت فارغة تمامًا. فتح الخزانة المدمجة بعنف، فلم يجد سوى قطعتي صابون كانتا يومًا بين الغسيل، لكنهما فقدتا الآن كل عطرهما.

دب...

كانت ضربات ماكس تزداد ضعفًا. والفترات الفاصلة بينها تزداد طولاً.

إلى متى سيبقى لديه هواء للتنفس؟

بشجاعة وليدة اليأس، هرع تيل عائدًا إلى الغرفة المجاورة وسدد هذه المرة لكمة جيدة بشكل مفاجئ على ذقن ترامنيتز، لكن دون تأثير يذكر. باستثناء رد فعل أعنف من القاتل. الضربة الأولى صدعت ضلوع تيل، عاصرة كل الهواء من رئتيه. تلتها ركلة في الفخذ.

تكوم تيل في كومة بائسة. أراد الصراخ لكن لم يتبق هواء في رئتيه ولم يستطع استنشاق المزيد رغم أن فمه كان مفتوحًا من الألم.

دب... دب...

ثم رآهما. زجاجتان بلاستيكيتان فارغتان. بجانب سرير الضيف، غير بعيد عن بقعة داكنة على السجادة الفاتحة.

ما الذي يغيب عني؟

كانت قيعان الزجاجتين بنية اللون من السائل الذي احتوتاه آخر مرة.

امتلأ أنف تيل برائحة البنزين. وبدأ يشعر بالحرارة. شعر برغبة لا تقاوم في حك رأسه.

ما الذي يغيب عني؟

دب... دب...

كانت إشارات ابنه تزداد وهنًا. بدت روح ماكس تتلاشى بينما كانت روح تيل تستعيد نشاطها.

ماذا...

الخزانة؟

هل أنا...

الزجاجتان؟

ما الذي يغيب عني...؟

البقعة؟

أم كانت الحقيبة الرياضية؟

الحقيبة!!!

مباشرة تحت سرير الضيف! التي كان تيل يزحف نحوه الآن. ببطء، ببطء شديد، على أطرافه الأربعة لأنه لم يكن هناك أمل في المشي الآن.

الحقيبة السوداء!

...التي كانت تزداد ضخامة كلما اقترب منها. والتي أمسك بها أخيرًا، وفتحها... وهذه المرة كان الأمر أكثر من مجرد «ديجا فو». هذه المرة لم يكن لديه حدس، بل معرفة!

عرف تيل ما سيجده في الحقيبة الرياضية قبل أن يفتح السحاب. عرف ما عليه فعله بها.

كيف عليه أن يمسكها.

وعندما أمسكها بشكل صحيح، كانت تجربة تكاد تكون خارقة للطبيعة.

صرخ وهو يستدير:

– "ترامنيتز؟"

من موقعه عند نهاية السرير، استطاع الرؤية عبر الباب الجرار إلى الغرفة المجاورة.

سمع الوحش يقول، وعيناه متسعتان بدهشة:

– "ما هذا بحق الجحيم..."

عينان زرقاوان أكثر مما ينبغي في هذا الوجه الوسيم المنحوت أكثر مما ينبغي.

والذي ظل متناسقًا وجذابًا أكثر مما ينبغي حتى بعد أن أفرغ تيل فيه مخزن المسدس بالكامل من الحقيبة الرياضية تحت السرير.

الفصل الثاني والسبعون

– "ماكس؟"

كان مفتاح الصمام لا يزال في مكانه. بعد ربع لفة سمع تيل صوت هسهسة. وبعد لفتين كاملتين أخريين تحرر البرغي.

شرع الآن في فك أقفال الغطاء. وجد تيل المزيد من التجاويف والمزيد من البراغي، فك كل واحد منها بدوره، وأخيرًا تمكن من رفع الغطاء.

انتزعه بجنون من الصندوق وألقاه عند قدميه.

كان تيل مستعدًا للإمساك بجسد ابنه الهامد، وتحفيز قلبه بالإنعاش القلبي الرئوي، وتجربة التنفس الاصطناعي من فم لفم بأنفاسه هو – أي شيء وكل شيء يمكنه فعله.

لكن وجه ماكس الشمعي، الشاحب كالموت، والمشوه لدرجة عدم التعرف عليه، أوقفه لفترة وجيزة جدًا، لأنه... سامحني يا الله... ظن أن الأمر بلا جدوى. ظن أن ماكس قد مات بالفعل، مثل المحامية في موقف السيارات أو فريدر هنا في القبو.

أو ترامنيتز.

الكثير من الموت، والمعاناة، والألم، والرعب في مساحة صغيرة كهذه.

مساحة أعرفها. كنت فيها من قبل. وإلا كيف عرفت ما بداخل الحقيبة؟

صرخ تيل وهو يضغط بشفتيه على ابنه الحبيب، الذي لا بد أن روحه قد غادرت جسده بالفعل نظرًا لضآلة الدفء والحب اللذين استطاع الشعور بهما من الصبي:

— "لاااااااا!"

كم مرة في ذهنه استعاد تلك اللحظة التي سيحصل فيها أخيرًا على اليقين؟ كم مرة وعد نفسه بالراحة والخلاص؟ لكن الآن، بدا وكأن أسوأ تجربة ممكنة لا تزال بانتظاره.

أن يفقد طفلاً اعتقد أنه ميت، لكن كان من الممكن إنقاذه في النهاية.

من يستطيع العيش مع ذلك؟

نظر إلى ترامنيتز، فقط ليتأكد من أن السادي لم ينهض مرة أخرى. لأن هذا كان ليعجبك، أليس كذلك؟

مشاهدتي هنا، الآن؟

أبكي، أنتحب، أضعف من أن أجعل قلب ابني ينبض مرة أخرى. لاهثًا جدًا لأعطيه بعضًا من أنفاسي.

فجأة سمع سعالاً.

ثم انتفض جسد الصبي، وارتفع وكاد ينهار، لكن تيل دس ذراعه تحت ظهر ماكس وأمسك به.

— "ماكس؟ يا إلهي، ماكس، هل أنت حي؟"

انهمر طوفان من الدموع بغزارة، كأمطار الأيام القليلة الماضية، من وجهه على الصبي. تحت قبلاته سمع تيل أنينه وكان ذلك أجمل صوت سمعه في حياته. أخيرًا نطق بكلمة، ثم بأخرى، حتى شكّل الطفل جملة كاملة، هذا الصبي الجميل بعينيه الحزينتين وشفتيه الممتلئتين:

– "ماذا... ماذا حدث؟"

ضمه تيل بقوة. انتحب. وارتجف. والآن نسي كل ألمه. الآن لم يستطع الشعور إلا بالفرح، والسعادة، والثقة.

– "يا للمسيح، أنت حي. ماكس، يا ولدي الصغير، الصغير".

حتى حطمت كلمات ابنه التالية كل شيء بداخله.

– "من أنت؟"

بضعف، ولكن بتصميم، حاول ماكس تحرير نفسه من العناق.

رمش تيل. تراجع خطوة للوراء. مع شعور بأن شيئًا ما بداخله قد تفتت إلى ألف شظية.

شعر بموجة حرارة.

– "أنا... أنا..."

نظر حوله. رأى الزجاجات. شم البنزين.

ما الذي يغيب عني؟

سأل الصبي مرة أخرى:

– "من أنت؟"

وبينما كان صوت صفارات الشرطة يتسلل بهدوء عبر نوافذ القبو من بعيد، سأله ماكس بيركوف السؤال الذي كسره أخيرًا.

– "هل أبي هنا في مكان ما؟"

الفصل الثالث والسبعون

لم يكن ترامنيتز يكذب. لم يكن هناك حقًا مخرج من القبو بمجرد إغلاق الباب. إلا إذا كنت تعرف مكان المفتاح الاحتياطي، الذي وضعه صاحب المنزل تحت لوح أرضية سائب بجوار الدرج بعد انتقاله إليه قبل بضع سنوات.

للطوارئ.

وكما عرف ما بداخل الحقيبة الرياضية، عرف كيف يصعد إلى الطابق الأرضي.

ببطء، وهو يجر قدميه، تحسس طريقه في عتمة الردهة مارًا بمنطقة المطبخ المفتوح، لأنه هنا في الأعلى لم تكن هناك مستشعرات حركة ولا ضوء. فقط القمر، يسكب ضوءه عبر نوافذ الشرفة الضخمة. لكنه عرف أيضًا ما تحت قدميه: تلك الأرضية البشعة من الباركيه الشبيه برقعة الشطرنج، التي لم يتخلصوا منها أبدًا لعدم توفر المال. تمامًا مثل الجاكوزي، الذي وضعه المالك السابق المجنون في منتصف غرفة المعيشة واضطروا لملئه بالوسائد.

أريكة مغامرات لـ ليندا والأطفال.

لـ فريدا.

ولـ جوناس.

الذي أراد أن يبني له بيتًا فوق شجرة الكستناء التي ضربتها صاعقة.

تجمعت الدموع في عينيه مرة أخرى؛ ظن أن لحمه يحترق، والآن أدرك سبب هذا الألم الوهمي الذي شعر به كثيرًا في أحلامه. الآن وهو يحدق عبر الحديقة التي نمت فيها الأعشاب بإفراط نحو روضة الأطفال التي تحد هذا العقار على بعد حوالي مائة متر. أغمض عينيه وللحظة عاد إلى الحلم، حيث كان في مكتبه بالطابق الثاني والعشرين في ميدان «بوتسدامر»، يحدق في موقف السيارات حيث كانت سيارته مركونة تحت الشمس مباشرة.

ثم تذكر ما حدث حقًا.

كيف اتصلت به ليندا بينما كان يتصبب عرقًا فوق إعادة حساب معقدة لخطر وفاة الأطفال الخُدَّج. كان كبير محامي شركة التأمين الصحي يلاحقه، بعد أن طلب الأرقام منذ اليوم السابق.

لكنه ارتكب خطأ في الحساب في مكان ما ولم يستطع العثور عليه. المشكلة منعته من النوم طوال الليل.

منذ أيام وهذه الصيغ المعقدة لا تتركه وشأنه، سواء كان يتسوق، أو في الحديقة، أو في السيارة. كان يجتر الحل وفي الحقيقة لم يكن لديه وقت للرد على مكالمة زوجته. لكن لأنها حاولت عدة مرات اليوم، التقط الهاتف المحمول أخيرًا من مكتبه. المحادثة التي تلت ذلك وضعت حدًا لكل السعادة التي كانت موجودة يومًا في حياته.

— "ليندا؟"

— "أين هو؟"

— "من؟"

— "جوناس. كان من المفترض أن توصله إلى روضة الأطفال. إنه ليس هناك".

كانت تلك المرة الأولى التي فكر فيها بالانتحار.

نهض، وذهب إلى النافذة ونظر لأسفل إلى موقف السيارات.

حيث كانت سيارته.

مع مقعد الطفل في الخلف، الذي وضعته ليندا خصيصًا له.

— "هذه المرة فقط. غدًا سآخذه أنا، حسنًا؟"

قال وهو يعيد تفكيره إلى مشكلة إعادة الحساب:

— "حسنًا".

ونسي كل شيء آخر.

نسي جوناس.

في مقعد الطفل.

في الأسفل بموقف السيارات.

في سيارة سوداء.

في المقعد الخلفي.

في الحرارة الخانقة في أحد أكثر أيام الصيف حرارة.

— "مرحبًا؟"

قفز فزعًا. للحظة كان لا يزال عالقًا في حلم يقظة ذكرياته، لكن الصوت خلفه كان حقيقيًا. شخص من لحم ودم، لم يلتق به شخصيًا من قبل. كان يعرفه فقط، مثل والديه، من الصحف والتلفاز: ماكس، الذي تبعه إلى غرفة المعيشة من القبو.

قال الصبي الصغير ذو العينين الحزينتين والشفتين الممتلئتين، الذي رأى صورته كثيرًا في إعلانات المفقودين:

– "آسف".

كان يرتدي قميصًا وسروالاً داخليًا فقط، ولديه ندبة على ساقه اليمنى.

– "هل أنا... هل أنقذتني؟"

قال وهو يبكي عند إدراك أن ابنه قد ضاع للأبد:

– "نعم".

كما ضعت أنا.

هذا ما عناه ترامنيتز.

«عندما تنتهي هذه المسألة مع ماكس، وبقليل من الحظ ستختبر شيئًا سيحطمك تمامًا. لهذا السبب أنت هنا. أريد أن أرى وجهك وأتغذى على معاناتك».

نظر إلى روضة الأطفال، حيث كان الضوء لا يزال مضاءً، تمامًا كما كان عندما وقف في غرفة المعيشة هذه حاملاً مسدسًا، قبل أن يقرر عدم استخدامه. لأنه كان ليكون تصرفًا جبانًا جدًا. وهينًا جدًا.

ولهذا السبب انتهى به الأمر بوضع المسدس في الحقيبة الرياضية واختيار خيار البنزين.

لأنه كان خطأه أن ابنه احترق حتى الموت، وأراد هو أن يحترق أيضًا.

سأل ماكس بينما كان صرير الإطارات يُسمع في الخارج:

– "إذن... من، من أنت؟"

وصفارات الإنذار.

لا بد أن صفارات الإنذار كانت تقترب طوال الوقت، لكنه حجبها تمامًا. حتى الآن، عندما سأل ماكس، متوسلاً مرة أخرى والدموع في صوته: "أرجوك. من أنت؟"، وأجاب الصبي أخيرًا.

— "اسمي باتريك وينتر. أنا مريض في مصحة شتاين. قتلت ابني وقد أفقدني ذلك عقلي".

الفصل الرابع والسبعون

سينغر

بعد عشرة أيام

لقد جملوا أنفسهم. كأنهم ذاهبون لعشاء مع المدير. ليس رسميًا جدًا، ولكن ليس عاديًا أيضًا، للإشارة إلى إدراكهم لمدى خصوصية هذه المناسبة.

ارتدى تيل بيركوف سترة بنية مع قميص أزرق فاتح جديد تمامًا، ياقته تحتك برقبته كلما حكها. كان من الواضح أن رجل الإطفاء مفتول العضلات لم يشعر براحة خاصة في هذا الزي، وكان يفضل استبداله ببنطال جينز وحذاء رياضي وقميص. ربما أخذ بنصيحة زوجته، ريكاردا، التي اختارت فستانًا بسيطًا باللونين الأخضر والبني بأكمام دانتيل، وأقراطًا ناعمة وحذاءً برقبة — لم يكن دافئًا بما يكفي لأول ثلوج العام، التي سقطت قبل بضعة أيام.

لم تكن البروفيسورة سينغر تعرف مدى قرب الاثنين من بعضهما في الوقت الحالي، وما إذا كان ينبغي عليها تصديق الصحف التي كتبت عن كيف أن «الزوجين السعيدين للغاية» قد عادا لبعضهما بعد ظهور ابنهما ماكس فجأة من العدم.

كان كلاهما يرتدي خواتم الزفاف ويجلسان متلاصقين على طاولة المؤتمرات الصغيرة في مكتب سينغر. لكنهما لم يمسكا بأيدي بعضهما.

قال تيل، للمرة الثالثة الآن:

– "لا أفهم".

لم يلمس الماء أو البسكويت الذي وضعته سينغر لزوارها.

– "هذا المدعو باتريك وينتر اعتقد أنه أنا؟"

أرادت سينغر الإيماء برأسها وهزه في نفس الوقت.

– "نعم ولا. الأمر معقد".

قال تيل بيركوف، مبتسمًا للمديرة بخجل:

– "يمكنك قول ذلك مجددًا. لكن ربما يمكنك شرحه لروح بسيطة مثلي بكلمات بسيطة".

خلعت سينغر نظارات القراءة وحدقت في العدسات البلاستيكية المخدوشة وهي تصارع نفسها وسرية المريض. ثم هزت كتفيها. أوه، تباً للأمر.

على أي حال، كان افتراضها أنها ستُطرد قريبًا جدًا من قبل لجنة التحقيق. لذا فإن هذا لن يُحدث فرقًا يذكر. علاوة على ذلك، كل ما تخبرهم به سيجد طريقه إلى الصحف في مرحلة ما، ومن، إن لم يكن والدي ماكس، لديه الحق في معرفة الخلفية الحقيقية؟

بدأت قائلة:

– "باتريك وينتر مريض لدينا منذ ما يقرب من عامين الآن. قبل ذلك كان يُعالج في مستشفى «كارل بونهوفر» للأمراض النفسية".

سأل تيل:

– "هل هو مصاب بالفصام؟"

– "لا، لا علاقة له بذلك الاضطراب. ولا هو ما يسميه العوام اضطراب تعدد الشخصيات".

– "ماذا إذن؟"

– "باتريك وينتر هارب. يريد التخلص من ذاته الحقيقية لتقمص هويات جديدة مؤقتًا".

– "هويتي؟"

– "آخر مرة كانت هويتك، نعم. اعتقد أنه أنت. تيل بيركوف، رجل الإطفاء، والد ماكس".

– "لكن لماذا؟ ما الذي أوحى له بالفكرة؟"

أعادت وضع نظارتها.

– "أوه، لا يمكننا الجزم بيقين مطلق، لكننا نعتقد أن التقارير الإعلامية هي المحفز. تقرير تلفزيوني ما، ربما وثائقي عنك، لا بد أنه أثر فيه كثيرًا لدرجة حدوث التحول".

– "التحول؟"

– "هذا ما نسميه مرحلة الانتقال. عادة ما يظهر في شكل انهيار عصبي كامل، يبدأ بحديث وينتر مع نفسه، وعزل نفسه عن محيطه، وحتى إيذاء النفس. ثم نضطر لتخديره وأخذه إلى غرفة التدخل. عندما يستفيق، غالبًا ما يكون قد تقمص هوية مختلفة".

استفسرت ريكاردا:

– "قلت إنه هارب؟"

في حديثهما التمهيدي، أخبرت والدة ماكس الطبيبة النفسية أنها لم تتوقف أبدًا عن البحث عن ابنها. استأجرت محققين خاصين،

ووضعت إعلانات، وذهبت حتى لوسيطة روحية. أُنفقت كل أموالها على البحث. عندما نفدت الأموال بعد عام، فكرت حتى في بيع «قصة» عن بحثها اليائس للصحافة. لحسن الحظ، لم يظهر أي مقال عن زيارتها للعراف أبدًا.

أوضحت سينغر للزوجين:

– "نعم، هو هارب من نفسه. فقد باتريك وينتر ابنه نتيجة لخطأ مأساوي. في يوم شديد الحرارة نسي أنه ترك الصبي في سيارته بينما ذهب للعمل في شركة التأمين الخاصة به".

– "هذا فظيع".

– "نعم. لم يتجاوز الأمر أبدًا. بعد بضعة أشهر من المأساة، حاول الانتحار. سكب البنزين على نفسه وأشعل النار أمام روضة أطفاله، وهو يصرخ بأنه يريد أن يحترق مثل ابنه".

صاحت ريكاردا:

– "يا إلهي!"

– "تمكنوا من إنقاذه وكان محظوظًا بالنجاة بحروق في بشرة رأسه. للأسف ربما كان هذا سبب إصابته بسرطان الجلد، لكن هذه أقل مشاكله".

تساءلت سينغر عما إذا كانت ستشرب رشفة ماء، لكنها امتنعت.

– "وصل إلى هنا، لكن حتى في المستشفى النفسي لم يتمكن من تجاوز ألمه وكراهيته لنفسه".

– "كراهية؟"

– "نعم. يكره نفسه لدرجة أنه يريد اغتصاب هويته الخاصة. كالحلزون يبحث عن بيت جديد. وكما قلت، أدنى دافع – صورة، محادثة، خبر في الراديو – يمكن أن يحفز التحول".

رفع تيل يده كتلميذ مدرسة.

– "إذن تقولين إنه عندما يخرج من غرفة التـ..."

– "غرفة التدخل، هذا صحيح. في المرة الأخيرة التي خرج فيها، كان أنت يا سيد بيركوف. اعتقد أن اسمه الأول تيل، وأنه رجل إطفاء، وأن ابنه ماكس قد اختطف. خارجيًا، مع ذلك، احتفظ باسمه الحقيقي، وهذا ما يجعل تشخيصنا وعلاجه صعبًا للغاية".

الآن كانت سينغر هي من تحك رقبتها. كانت تتعرق رغم أنها فتحت النافذة للتو.

– "لا نعرف أبدًا أي هوية سيستيقظ بها تاليًا، ولهذا نستقبله دائمًا كمريض جديد. حتى زملاؤه المرضى اعتادوا على ذلك، رغم أن بعضهم، بالطبع، يخلق ارتباكًا عندما يتحدثون مع وينتر عن حوادث وأحداث لا يتذكرها لأنه بالفعل في هوية زائفة جديدة".

ابتسمت بحزن وأكملت:

– "في المرة السابقة، على سبيل المثال، اعتقد أنه محقق جاء لكشف تلاعب في الحسابات. وفي سياق «تحقيقه»"، قالت وهي ترسم علامات اقتباس في الهواء، "فضح بالفعل أحد كبار أطبائنا".

سأل تيل:

– "الدكتور كاسوف؟"

أومأت سينغر. لا بد أنه قرأ التقارير عن صفقات الطبيب الفاسدة.

– "نعم، لكن قبل أن يشكل خطرًا عليه، حدث تحول آخر لباتريك وينتر".

– "وأصبح أنا؟" حك رجل الإطفاء رقبته مرة أخرى.

– "بالضبط. لأن باتريك وينتر لا يستطيع التعامل مع السبب الحقيقي لوجوده هنا، يبحث عن تفسير يمكن لعقله المحطم قبوله بسهولة أكبر. يتخيل أنه دخل فقط كباتريك وينتر تحت ذرائع كاذبة، بينما في الواقع هو شخص سليم العقل تمامًا موجود في المستشفى لسبب مختلف كليًا، وبمحض إرادته. بمهمة سرية".

– "وكانت مهمته السرية العثور على ابننا؟"

كانت ريكاردا أول من أخذ رشفة ماء وأعادت الكوب.

– "نعم. عبر الشائعات اكتشف أن ترامنيتز كان أيضًا في مصحة شتاين. ربما وضع هذا قدمه على طريق البحث عن هوية تبرر محاولة حل قضية ماكس بيركوف".

سألت ريكاردا، ونظر زوجها أيضًا إلى المديرة بترقب:

– "هل يمكننا رؤيته؟"

نهضت سينغر وقالت:

– "تعاليا معي".

الفصل الخامس والسبعون

غادروا مكتبها وساروا جنبًا إلى جنب في صمت حتى وصلوا إلى الأبواب الزجاجية المزدوجة الكبيرة، التي تقع خلفها ردهة مصحة شتاين. انبعثت موسيقى بيانو رقيقة من الغرفة، وتكون لدى سينغر انطباع بأنها ليست الوحيدة التي تأثرت باللحن الحزين. بدأ زوارها بالهمس كأنهم يخشون إزعاج عازف البيانو أثناء عزفه.

– "هل هذا هو؟"

لم تستطع سينغر رؤية سوى ظهر عند البيانو الأسود، لكن نعم، بالطبع كان هو. لا أحد غيره هنا يستطيع عزف شوبان بهذه العاطفة. رغم أن اثنين من أصابعه كانا لا يزالان خارج الخدمة.

مقطوعة «نوكتورن»، سلم مي بيمول الكبير. المصنف 9 رقم 2.

مقطوعتها الموسيقية المفضلة.

– "إنه يعزف البيانو؟"

– "إذا استطاع التذكر، نعم. إنه موهوب للغاية. لو لم يكن كذلك، لما استطاع الحفاظ على هذه الأكوان الموازية حوله".

سأل تيل:

– "ماذا تعنين بـ «أكوان موازية»؟"

– "نحن نتخبط في الظلام هنا أيضًا. يبدو أن لديه بعض الثوابت. أحدها رقم هاتف زوجته، ليندا، التي يواصل الرغبة في الاتصال بها،

رغم أنها منعته من ذلك الآن. في المرة الأخيرة، اعتقد وينتر أنه يتحدث إليكِ يا ريكاردا، وأخبر زوجته أن ابنهما ربما لا يزال حيًا".

— "يعني ماكس".

أومأت برأسها.

— "بالضبط. ثابت آخر هو صهره، أوليفر سكانيا، الذي انتحر قبل بضع سنوات. رغم ذلك، يبدو أنه جزء من رؤى وينتر مرارًا وتكرارًا. مثل «أوليس»".

— "من هذا؟"

— "ليس من، بل ما. كتاب لـ جيمس جويس. يعتقد وينتر أن هناك هاتفًا محمولاً مخبأ في هذا الكتاب يسمح له بالبقاء على اتصال بجهات اتصاله في الخارج — الأشخاص الذين يدعي أنهم هربوه إلى الداخل. لكنه ليس مفرغًا ولا معدلاً. إنه كتاب طبيعي تمامًا في مكتبتنا".

أحيانًا في هلاوسه، كان وينتر يحول الأشياء اليومية إلى هواتف محمولة، مثل أقلام الحبر الجاف أو الملاعق.

عندما اقتحمت عليه المكان في العيادة قبل أحد عشر يومًا، كان يحاول الاتصال بجهاز تحكم عن بعد أعطاه إياه ترامنيتز.

لا بد أن السادي قد كشف جنون وينتر وقرر التلاعب بالمسكين. لم يكتفِ باختياره رهينة مفيدة لتعذيب الصبي حتى الموت أمام عينيه، بل رتب الأمر كله ليحدث في منزل وينتر، الذي ظل فارغًا منذ المأساة.

سألت ريكاردا:

— "هل يمكننا التحدث إليه؟"

— "لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة".

– "لكن لولاه..." توقفت ريكاردا، مما منح سينغر فرصة للاستمتاع برعشة موسيقية معقدة وجميلة كان يعزفها وينتر.

قال تيل موافقًا زوجته:

– "بدونه لم يكن ماكس ليكون حيًا. قد يكون مريضًا، لكنه في جنونه أنقذ حياة ابننا".

تنهدت سينغر بحزن وانتظرت حتى انتهت المقطوعة. ثم قالت:

– "أنتما محقان. لكن انظرا فقط".

أشارت نحو الغرفة.

لمس سايمون، الذي خرج من خلف شجرة عيد الميلاد، ذراع باتريك بحذر. نظر باتريك للأعلى باستفهام نحو الممرض.

أوضحت سينغر بينما كان مريضها يغلق غطاء البيانو وينهض عن المقعد:

– "خرج وينتر من غرفة التدخل مؤخرًا فقط".

غارقًا في التفكير، استدار وينتر، ونظر نحوهم ورفع يده وكأنه لاحظ الزوار خلف الباب الزجاجي وكان سيلوح لهم. لكنه اكتفى بإزاحة بعض الشعر عن وجهه.

قالت ريكاردا:

– "يبدو تائهًا جدًا".

ترقرقت الدموع في عينيها ولم تستطع إلا التفكير في محادثتها مع الوسيط الروحي في محطة الحافلات خارج المطعم. سألت غيديون: "وعندما أجد ماكس؟ ماذا بعد؟"

«أستطيع رؤيتك بوضوح تام في ذهني. أنت تبكين. خلف باب مغلق. في سجن».

بجانبها، كانت سينغر تتنفس بصعوبة.

– "هل يمكنكما تخيل كم هو فظيع أن تحاول الهرب من نفسك باستمرار؟ فقط لتدرك في كل مرة أنك لا تستطيع أبدًا الفرار من روحك؟"

مررت يدها خلال شعرها وأضافت:

– "عقله المعذب يبحث بيأس عن مخرج، وربما وجد واحدًا جديدًا بالفعل".

في الردهة، أشار سايمون إلى الممر بجانب الصيدلية ونادى اسم وينتر. نظر المريض إلى الباب مرة أخرى، ثم تجولت عيناه صعودًا على شجرة عيد الميلاد الضخمة. أخيرًا تبع الممرض بحركات مترددة وجسده منحني قليلاً للأمام. وبينما كان يبتعد عنهم خطوة بخطوة، وضعت المديرة يدًا على كتف ريكاردا ولمست ذراع تيل بالأخرى وقالت:

– "أخشى أن باتريك وينتر الذي ترغبان في شكره قد اختفى مرة أخرى".

الفصل السادس والسبعون

سيدا

أعلن الفحيح الهيدروليكي عن وصول زائر آخر. كانت سيدا تعيد دليل السفر الخاص بمدينة روما إلى مكانه الصحيح —من ذا الذي يحتاج دليلاً للسياحة وهو في سجن نفسي محصن؟— وعندما رأته يصعد درجات الحافلة، غمرتها السعادة لأن أمنيتها قد تحققت أخيراً.

لقد كان يومها الأخير، وقد وفى سايمون بوعده حين أحضر مريضها المفضل إلى المكتبة المتنقلة.

قالت لـباتريك وهي تضحك:

— "يا له من أمر رائع."

شقَّ طريقه نحوها ببطء عبر الممر الفاصل بين الرفوف. بدا عليه الإرهاق، وعيناه متورمتان، بينما لم يضف شعره الذي بدأ ينبت ببطء فوق رأسه الذي تعرض للتنكيل الكثير من الجمال على مظهره.

خطت سيدا خطوة نحو باتريك، وهي عازمة تماماً على ضمه، لكنه توقف فجأة وبشكل حاد لدرجة جعلتها تتراجع عن فكرتها في الوقت الحالي.

يا إلهي، كم أنا متوترة.

كأننا في أول موعد غرامي.

وليس وداعاً أخيراً.

ملأ الخاطر عينيها بالدموع، ولأنها لم ترد أن تنهار باكية أمامه، لم يتبقَ أمامها سوى حل واحد: الكلام! وبكثافة كالشلال المنهمر؛ فتلك كانت استراتيجيتها الوحيدة المعهودة، والوسيلة المثلى لتجنب فقدان رباطة جأشها.

— "حسناً، أعلم أنك لا تريد سماع هذا، وربما لن تفهمه أيضاً، لكن يجب أن أقوله. عليك فقط أن تصمد، تماماً؟ حسناً، أود أن أقول شكراً لك. بصدق. شكراً لأنك وضعت ثقتك في سايمون. كان هناك تحقيق، وأنا متأكدة أنك تعرف ذلك. بديهي طبعاً. لكنك ساعدت حقاً في إيقاف كاسوف عن العمل. لقد وجدوا مواد تدينه على حاسوبه، وأشياء من هذا القبيل. والآن سيُحاكم على الأرجح، وأنا أصبحتُ حرة."

ضحكت كفتاة مراهقة متحمسة، بينما بدا باتريك وكأن جلطة قد أصابته؛ فقد تجمدت ملامح وجهه تماماً.

حسناً، واصلي الكلام. لا تتوقفي. وإلا فسيستدير ويرحل قبل أن تفرغي ما في صدرك.

— "أنا آسفة لما فعله بك يا باتريك. يجب أن تعلم أن كل ما ورد عنك في محضر التحقيق، حول رغبتك المتعمدة في قتل جوناس، ابنك.. كل ذلك كان كذباً. لقد كان حادثاً مؤسفاً. كاسوف هو من اختلق قصة الساونا؛ كان يريد فقط أن يؤلب أرمين ضدك، ليجعله يسككتك للأبد، لأن أرمين يكره من يعذبون الأطفال. لقد حاولتُ تحذيرك في المقصف، هل تتذكر؟"

ضحكت مرة أخرى، لكن ضحكتها بدت قسرية هذه المرة.

تابعت قائلة:

– "لكن لا يهم الآن. الشيء الوحيد الذي يهم هو أن كاسوف أصبح من الماضي بفضلك، وأنا سيُطلق سراحي. ويجب أن أشكرك على ذلك."

اقتربت منه وألقت بذراعيها حول جسده الذي صار نحيلاً أكثر مما ينبغي.

فعل باتريك ما فعله طوال مونولوجها المنهمر؛ وقف هناك دون حراك، بل زاد جسده تصلباً بين ذراعيها.

في النهاية، عندما أدركت أنه لن يبدي ذرة من العاطفة، فكت سيدا عناقها وتراجعت خطوة للوراء. حينها فقط نطق باتريك وينتر بأولى كلماته.

– "أعتقد أنكِ أخطأتِ في الشخص."

أما سيدا، التي لم تعد قادرة على حبس دموعها، فقد ابتلعت غصتها بصعوبة، وأزاحت خصلة شعر عن عينيها بنفخة زفير وقالت:

– "نعم.. أعرف."

الفصل السابع والسبعون

باتريك وينتر

أمر غريب.

هذه المرأة الشابة ببشرتها العنبرية وملامحها الشرقية تفوح منها رائحة طيبة جداً، لكن سلوكها كان غريباً للغاية.

حسناً، هي تعرف اسمه المستعار؛ لم يكن سراً في مصحة شتاين كلينيك. لكن ما قصة كاسوف وجوناس وذلك الحادث؟

تلمس طريقه نحو مؤخرة الحافلة، إلى خزانة الكتب الثالثة، الرف الثاني.

بحق السماء.

كان عليه الاتصال بسكانيا بشكل عاجل، للتحقق من الهوية التي مُنحت له. كان بإمكان صهره أن يحضر لهذا الأمر بشكل أفضل، رغم ضيق الوقت المتاح للتخطيط للمهمة. لكن قصة "المريض الشبح" لم تكن تحتمل التأجيل؛ فالإذاعة تتحدث بالفعل عن ازدهار التجارة غير المشروعة بالأدوية في المستشفيات الألمانية. ولو انتظر أكثر، لاختطف شخص آخر السبق الصحفي من تحت أنفه. ولم يكن من المفترض أن يكون توفير هوية مناسبة لصحفي استقصائي مثله أمراً عسيراً على شرطي من طراز سكانيا.

باتريك وينتر. لم يكن يعرف عنه الكثير سوى أنه كان يعمل خبيراً في التأمين، وأن وينتر هذا كان يعزف البيانو —مثله تماماً، ولله الحمد— لكن من المؤكد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يجمعه بذلك العبقري الرياضي.

ألقى نظرة خاطفة على المرأة الشابة في مقدمة الحافلة. لم تعد تنظر إليه؛ يمكنه البدء الآن.

أوليس. أين أنتِ؟

راحت عيناه تمسحان كعوب الكتب حتى وجدها أخيراً، في المكان الذي أخبره به سكانيا تماماً.

خزانة الكتب الثالثة، الرف الثاني، خلف كتب الإنجيل.

همس لنفسه وهو يفتح المجلد الضخم الذي لم يلمسه أحد غيره يقيناً في هذا السجن النفسي:

— "آمل أنك أديتَ عملك بإتقان."

وجدتها!

كما وعده سكانيا، كان هاتف الطوارئ المحمول قابعاً في التجويف الذي صُنع في قلب الكتاب. سيسمح له هذا بالبقاء على اتصال مع مصادره.

أعاد الكتاب إلى مكانه خلف كتب الإنجيل. زيارته اليوم كانت مجرد استطلاع أولي؛ لن يجري أي مكالمة حتى يعثر على شيء جوهري.

عاد أدراجه نحو مقدمة الحافلة.

سألته المرأة التي كانت تجلس خلف مقعد السائق ومجلة فوق حجرها:

— "هل وجدتَ كل ما تريده؟"

فأجابها:

— "نعم، شكراً لكِ."

توقف قليلاً بينما تسلل إليه شعور غريب بأنه قد رأى هذه المرأة الشابة، ذات الشعر الداكن والعينين الأكثر قتامة، من قبل. لم يكن سوى طيف ذكرى؛ ليس "ديجافو" تماماً، بل هو أقرب إلى شعور بوجود رابط خاص يجمعهما، رغم أنهما في الواقع غريبان تماماً عن بعضهما البعض.

ربما كان مجرد تمنٍ، ففي الحياة العادية ربما لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها.

لكنه هنا لم يكن لديه ما يخسره، لذا رسم ابتسامة على وجهه وقال:

— "سيُطلق سراحكِ قريباً؟"

أومأت برأسها في خجل.

تابع قائلاً:

— "يمكنكِ أن تتركي لي رقم هاتفكِ إن أردتِ. يمكنكِ تدوينه في أي كتاب تختارينه."

ضحكت بخفوت وقالت:

— "وهل ستبحث في كل الكتب حتى تجده؟"

بادلها الابتسامة وقال:

– "ربما. لكنني أشك في أنني سأملك الوقت الكافي لذلك."

ارتجفت شفتها السفلية وسألت:

– "حقاً؟"

أجاب مبتسماً، وهو يندهش مجدداً من مسحة الحزن العميق في وجهها:

– "حقاً."

قبل قليل، كادت تبكي قبل أن تضمه فجأة وكأنهما عاشقان يتبادلان وداعاً أخيراً.

استمرت شفتها السفلية في الارتجاف، وشعر برغبة حقيقية في ضمها؛ في إخبارها بالحقيقة. إخبارها بأنه ليس مريضاً، وأنه سيخرج من هنا بمجرد انتهاء مهمته. لأنه ليس باتريك وينتر، خبير التأمين، بل هو صحفي استقصائي. لكنه، وبغض النظر عن مدى جمالها، لم يكن لِيشركها في سره. لا، لا يجب أن يعرض مهمته للخطر.

لذا، اكتفى في الوقت الحالي بمجافاة رغبته ومصافحتها فحسب.

فتحت المرأة الباب لـوينتر، فخرج من المكتبة المتنقلة دون أن يلتفت وراءه نحو تلك الجميلة الغريبة التي بدت مألوفة له بشكل مربك.

ككتاب قرأتَهُ ذات مرة.

منذ زمن بعيد جداً.

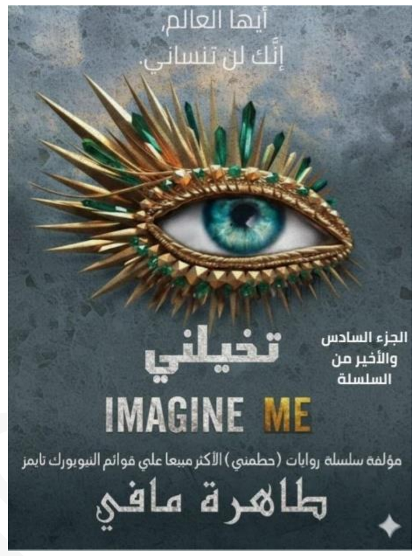
في حياة أخرى.

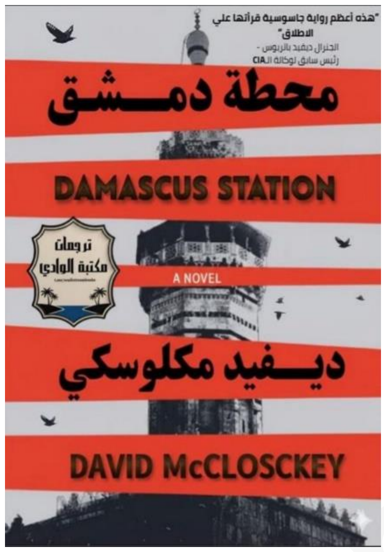
ـ تمت ـ

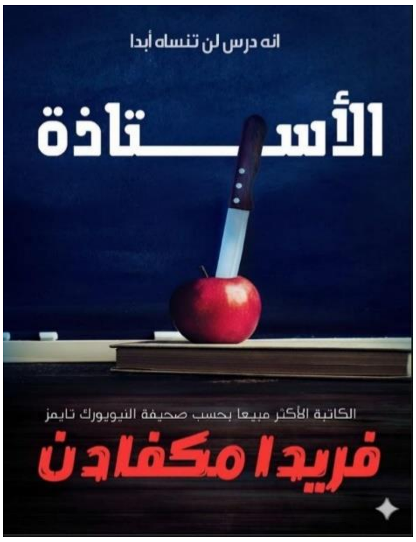
للمزيد من الترجمات

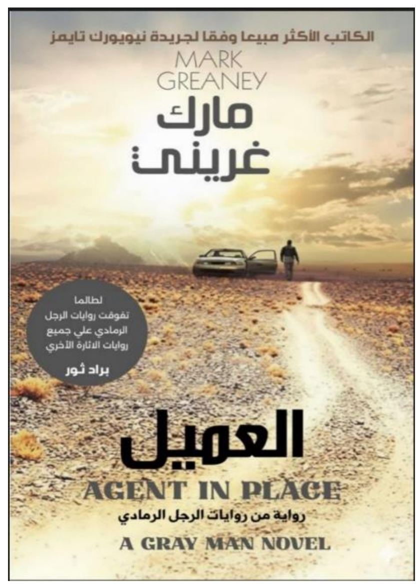
t.me/wadistreambooks

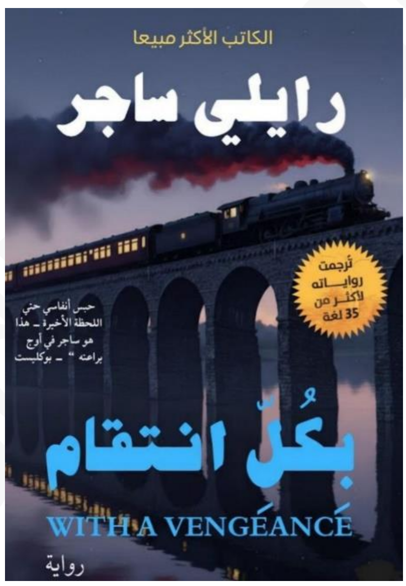
ترجماتنا













وغيرها الكثير علي قناتنا👇👇

t.me/wadistreambooks

النزيل

سيباستيان فيتزيك

"سيباستيان فيتزيك عبقري حقيقي في الغموض والإثارة".

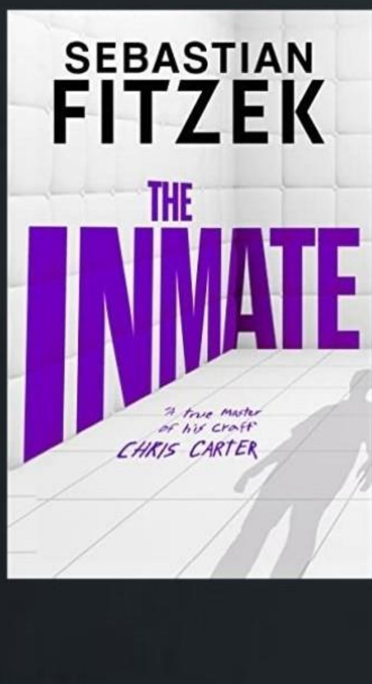
-كريس كارتر

"طفل مفقود - أب يائس - رحلة جحيمية إلى أعماق مستشفى الأمراض النفسية"

اعترف غيدوت، السجين المضطرب نفسيًا، بارتكاب جريمتي قتل مروعتين لطفلين، وقاد شرطة برلين إلى جثثهما المشوهة بوحشية. لكنه الآن يلتزم الصمت بناءً على نصيحة محاميته. الشرطة مقتنعة بأنه أيضًا خاطف الطفل ماكس، البالغ من العمر ست سنوات، والذي اختفى دون أثر منذ ثلاثة أشهر. لكن دون أدلة قاطعة، سيظل والدا ماكس عالقين في دوامة من الشك واليأس، غير قادرين على توديع ابنهما.

بعد ثلاثة أشهر من اختفاء ماكس، وبمساعدة محقق من قسم جرائم القتل يستطيع الأب المكلوم التسلل إلى مستشفى السجن النفسي شديد الحراسة، حيث يُحتجز غيدوت، متقمصًا دور مريض مزيف بملف طبي وهمي! الهدف؟ الاقتراب من قاتل الأطفال قدر الإمكان وانتزاع اعتراف منه.

لكن الحقيقة القاسية التي سيكتشفها الأب داخل جدران المستشفى ستجعله يدرك أن هناك ما هو أسوأ من عدم اليقين...



ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks